الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية

يوسف فهمي أحمد الجزايرلي



صحائف

من تاريخ الأدب العربي



دار المعارف بمصر

الهيئة المحلية
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالإسكندرية



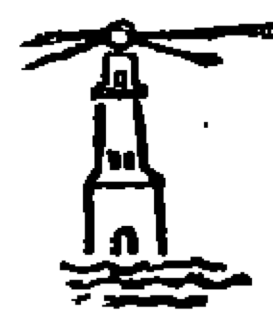


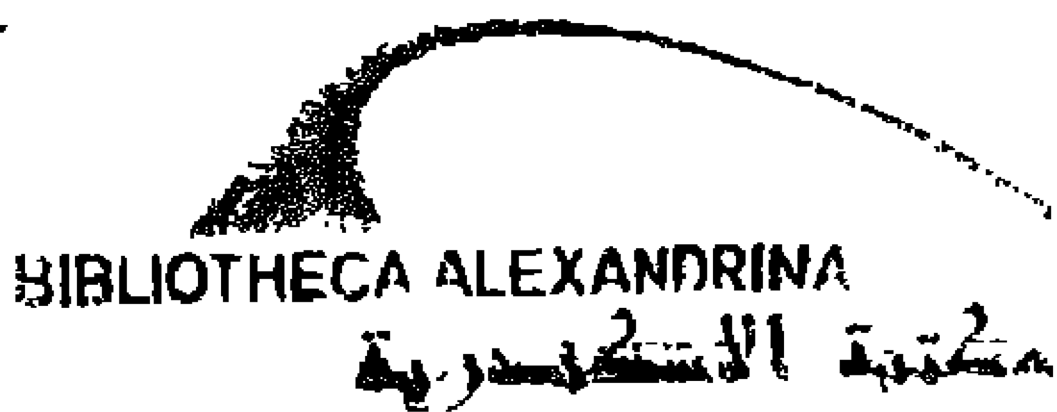
صحائف من تاريخ الأدب العربي

تأليف

يوسف فهمي أحمد الجزايرلي

١٩٦٨





دار المعارف بمصر

تقديم الكتاب

بقلم السيد/ **محمد حمدى عاشور**
محافظ الاسكندرية ورئيس الهيئة المحلية لرعاية
الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تواصل الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية نشاطها الثقافى المثمر وتستمر على تشجيع المنتجين من أعضائها فى حدود إمكاناتها المالية لإخراج مصنفاتهم إلى حيز الوجود بغية أن يستفيد المطلعون مما تضم من الأبحاث الثقافية المختلفة .

ولقد طرق الأستاذ يوسف فهمى أحمد الجزايرلى عضو مجلس إدارة الهيئة بابا من أبواب تاريخ أدبنا العربى العريق فوضع كتابه «صحائف من تاريخ الأدب العربى» وقارن فيه بين بعض الاتجاهات الأدبية فى تراثنا العربى وبين ما يماثلها فى الأدب الفرنسى .

وبهذا العمل الذى قام به السيد المؤلف تكون الهيئة المحلية قد أسهمت فى مجال الفكر العربى المقارن بغيره من الآداب الأخرى المشهورة بأصالتها.

وإنى إذ يسرنى أن أقدم هذا الكتاب ـ أرجو للمؤلف مزيداً من الإنتاج فى هذا المجال وللهيئة المحلية التوفيق فى تأدية رسالتها ـ وأسأل الله أن يسدد خطانا فى سبيل الرقى المطرد فى ظل رائد نهضتنا الشاملة وقائد عروبتنا الرئيس جمال عبد الناصر ،،

الاسكندرية فى ٢٨ من رجب ١٣٨٨
٢١ أكتوبر ١٩٦٨

محمد حمدى عاشور
محافظ الاسكندرية

صدرت هذه المقدمة الكريمة من السيد / محمد حمدى عاشور والكتاب فى مرحلة الطبع ـ وإذ ذاك صدر القرار الجمهورى باختيار سيادته وزيراً للادارة المحلية ـ والهيئة تتقدم لسيادته بصادق التهنئة راجية له التوفيق ودوام الرقى ؟

تمهيد

ليس القصد من هذا الكتاب إضافة جديد على تاريخ الأدب العربي - فمعظم الأعلام الذين جاء ذكرهم في صحائفه تناولهم الكتاب القدماء والمحدثون بالشرح المفصل المسهب مما يجعل الحديث عن سيرهم وآثارهم الأدبية قولا معادا لافائدة للقراء فيه .

ولكن بدا لي أن مقارنة هؤلاء الأعلام بغيرهم وإبراز أوجه الشبه بينهم أو تأثر بعضهم بأدباء مشهورين في تاريخ الأدب الفرنسي يضع لبنة متواضعة في كيان تاريخ الأدب العربي العام.

فمن أوجه الشبه هذه يقف القراء على معلومات طريفة قد لاتكون واضحة المعالم في أذهانهم — ومن ذلك التأثر يستبين لهم أن الأدباء العرب لم يكونوا أقل براعة في إنتاجهم الأدبي الخالد من الأدباء الفرنسيين .

ففيما يتعلق بأوجه الشبه حاولت أن أظهرها في سيرتي قيس بن الملوّح « مجنون ليلى » وجميل بن معمر وفي نماذج من الشعر المنسوب إلى المجنون وشعر جميل بثينة — وكذلك في نماذج من شعر وضّاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة — وأبرزت الشبه الواضح في فضل منتديات عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين على تنقية الأدب العربي من الشوائب والمجون في صدر الإسلام تماما كما كان لقصر « مدام دي رامبوييه » ومنتدياتها من فضل على تنقية الأدب الفرنسي من الإنتاج الغث والألفاظ التي تتنافى مع الأسلوب المهذب الرفيع في القرن السابع عشر الميلادي . وأوضحت في الحديث عن الشاعر محمود سامي البارودي مقدرته الفائقة على الوصف التصويري وقارنت هذه المقدرة بما اتصف به شعر « ألفريد دي فيني » من تفوق في هذا الباب مستشهداً بنماذج من شعر الشاعرين .

أما عن التأثر فحاولت إبرازه فى إنتاج الشاعر إسماعيل صبرى وصلة هـذا الإنتاج بالشريف الرضى والشاعر الفرنسى « لامرتين » كما حاولت إظهار مواطن تأثر شاعر النيل حافظ إبراهيم بالشاعر الفرنسى « فكتور هوجو » فيما دبّج قلمه من شعر ونثر — وأخيراً وجهت النظر إلى تأثر الشاعر خليل شيبوب بالمذهب الرومانسى .

ولقد خطرت فكرة تأليف هذا الكتاب على البال عندما هزّ كيانى النفسى قصر ذات اليد عن الإسهام ماليا فى المجهود الحربى لاسترداد أجزاء الوطن العربى السليبة — وما أن تردد فى مخيلتى الواعية قول الشاعر :

لاخيلَ عندىَ أُهديها ولا مالُ فَلْيُسْعِدِ النطقُ إنْ لم تُسعدُ الحال

حتى قمت إلى الموسوعة التى أخذت فى تأليفها منذ ثلاث سنوات متضمنة تراجم الأعلام الذين تحمل شوارع الأسكندرية أسماءهم وأخترت منهم أعلام الكتاب الثمانية وتبرعت بما يعود علىّ من حق التأليف المالى للمجهود الحربى لأكون قد أديت - بالنطق - بعض الواجب نحو الوطن العزيز وقدمت للقراء فائدة أدبية أرجو أن تعود عليهم بالنفع - والله ولىُّ التوفيق ؟

يوسف فهمى أحمد الجزايرلى

الاسكندرية فى أول أغسطس سنة ١٩٦٨

١ — مجنون ليلى وجميل بثينة

لابد لمن يريد التحدث عن مجنون ليلى من تناول موضوع القصص والقصاصين وما كان لفن القصة والرواة من الأثر فى الحياة الأدبية إبان السنين الأولى لظهور الإسلام والعصرين الأموى والعباسى بالشرح الموجز ليتبين أمر مجنون ليلى على حقيقته .

فقد كان لهؤلاء القصاصين شأن فى الحركة الأدبية عظم على مرّ الأعوام وأخذ ينمو بقدر ما كانت الحضارة الفارسية وحضارة الأمم المتاخمة لشبه جزيرة بلاد العرب تتغلغل فى نفسية الأمة العربية ثم تعدى تطوره الحد المألوف فانقلب إلى أثر سيء لم يمس شره تاريخ الأدب العربى فحسب بل التشريع الإسلامى والحياة العقلية العربية فى شتى نواحيها .

ووضح هذا الأثر السيء جلياً عندما استقرت الحياة العربية بعد الفتوحات الأولى وانتقلت من الصحراوات المقفرة إلى المدن والأقاليم العريقة فى التمدن وأخذ المفكرون فى تدوين ما وصل إلى أذهانهم بطريق النقل فى مؤلفات ما من مطالع عليها إلا ويجد هذا الأثر ماثلا فى كثير من صحائفها — ولم يكن عناء هؤلاء المفكرين بالهين إذ أنهم لاقوا من الصعاب فى جميع الروايات والأحاديث ما جعلهم جديرين بالشكر على ما بذلوا فى هذا السبيل من صبر وأناة .

وإن كان علماء الحديث والكلام قد صادفوا من هذه الصعاب الشيء الكثير فإن الأدباء الذين كرسوا جهودهم لوضع الدعائم الأولى لتاريخ الأدب العربى قد وجدوا منها ما لم يقدروا على تذليله ذلك لأنهم لم يكونوا فى تلك العصور من القوة الفكرية الناقدة بحيث يستطيعون التفريق بين الصحيح الذى تسطع حقيقته بدليل النقد العقلى وبين المكذوب الذى يلمس كذبه فى عناصره نفسها بعد تمحيصه تمحيصا علميا . ولأنهم لم يجدوا أمامهم لتدوين هذا التاريخ إلا روايات ملؤها المغالاة والأساطير وأحيانا الخرافات السخيفة .

ولا أدل على إسراف الرواة فى سرد الوقائع التى تخالف المعقول مخالفة بينة والتى تظهر فيها المغالاة والخرافة جليتين من أن حمَّاداً الراوية زعم للوليد بن يزيد أنه يستطيع أن يروى على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة لمن لم يعرفهم الوليد نفسه من الشعراء — ويقال إن الوليد امتحنه فى ذلك حتى ضجر فوكل به من أتم امتحانه ثم أجازه .

من هذا الدليل وحده يتضح مقدار إسراف الراوى فى انتحال الشعر ونسبته إلى الشعراء منهم الذين وجدوا فعلا ومنهم من لم يكن لهم وجود إلاَّ فى مخيلة أمثال حمَّاد وخلف وغيرهما من مشاهير الرواة والقصاصين .

والذى زاد الطين بِلَّة وجعل الإسراف يتعدى دائرة التصور هو أن بعض هؤلاء الأدباء حرصاً على الاقتراب من الحقيقة فيما أرادوا تدوينــــه من تاريخ الأدب العربى ذهبوا إلى البادية لينقلوا شعر العرب من أهلها — فلما وجد سكان البادية أن هؤلاء الأدباء يجزلون لهم العطاء على ما يحفظون من شعر ونثر فطنوا لهذا الربح السهل وأخذوا يفدون على المدن لعرض بضاعتهم وأسرفوا هم أيضا فى انتحال الشعر ونسبته إلى طائفة كبيرة من الشعراء لم تدبَّ لهم قــــدم على سطح الأرض .

ويحدثنا الراوية الأصمعى — وهو أحد من ذهبوا إلى البادية للأخــــذ عن أهلها وأحد من بذلوا المال فى سبيل شراء ما كان الأعراب يعرضــون من قصائد وأخبار — يحدثنا هذا الراوية المشهور أن أعرابيا يدعى أبا ضمضم أنشد أمامه لمائة شاعر يحملون جميعا اسم عمرو — فلما غادره أخذ يعدُّد هو وخلف الأحمــــر ما يعرفان من الشعراء باسم عمرو فلم يقدرا على ذكر ثلاثين .

فإذا عرفنا أن خلفا هذا لا يقل عن حمَّاد اختلاقا للروايات إذ كلاهما لم يكن ليتورع عن ابتداع القصص للكسب لما كانا عليه من الاندفاع فى هذا السبيل وأن أمثال أبى ضمضم كانوا لا شغل لهم إلاَّ النزوح إلى المدن وقص الشعر والأخبار الكاذبة على الأدباء وعلى مريدى الأدب فى مجالسهم اتضح لنا أن الكثير من

الشعر العربى لايستطاع إسناده إلى من تسب إليهم من الشعراء إلا بعد التمحيص وإمعان الفكر فى صحته .

ومن ثم نستطيع القول فى غير تردد: إن مجنون ليلى لم يكن إلا شخصية وهمية خلقها القصاصون من خيالهم الفياض لتكون بضاعتهم فى مجالس الأدب تدر عليهم الربح الوفير .

غير أن الرواية التى تحيط بهذه الشخصية الخيالية لها قيمتها من الناحية الأدبية فهى وإن كانت مشوبة بالمغالاة والخرافة إلا أنها محبوكة الأطراف خلابة السياق رائعة النتيجة ومن ثم فهى تكون عملا روائيا متكاملا .

فبطلها ليس كأبطال الروايات العادية لايقوم إلا بدور قليل الأهمية ولا يتجمع حوله من الأحداث إلا القليل بل بطل بكل مافى هذه الكلمة من معان وقوة فهو يناضل الأحداث حتى يسلبه النضال عقله ثم يصرعه شهيد غرامه تحفه الكرامة والإباء .

أما بقية أشخاصها فكل منهم يمثل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر البعيد — فليلى العامرية فتاة مطيعة لاترفض ما يأمرها به أبوها ولو أدى ذلك إلى بذلها أكبر تضحية تبذلها فتاة فى ريعان شبابها وهى إخماد لهيب حبها فى صدرها الذى يفيض بالألم — وليلى بعد ذلك سيدة تحفظ عهد الزوجية المقدس فلا تخون زوجها « وردا » على الرغم من لقائها بمن تحب وعلى الرغم من عشقها المتغلغل فى قرارة وجدانها .

وورد زوج تتنازعه الغيرة والشفقة على حبيب زوجته فيرثى لحاله ويلعن الحظ السيء الذى حرم هذا العاشق الولهان من أن يبلغ المنى ممن يحب ويهوى .

والملوح والد المجنون شيخ وقور يريد أن يفتدى ولده بكل عزيز عنده ولكن تقاليد قبيلة عامر التى هو أحد سادتها تمنعه من الاسترسال فى هذا الحنان الأبوى فيفوض أمره إلى الله ويضرع إليه أن يشفى ابنه من مرض الحب العضال ويدفعه هذا الحنان الفياض إلى استصحاب ابنه قيس إلى قبر رسول الله ليجد فى زيارته السلوى والعزاء .

وهكذا نجد فى جميع أفراد الرواية أشخاصا يقومون بأدوار تراوح فى الأهمية مما يجعل فصولها شيقة يتبعها القارئ فى شغف واهتمام قويين .

وكل هذا يدل دلالة مدعمة على أن فن القصة فى صدر الإسلام بلغ حـــدا لا يستطيع الناقد عنده إلاّ أن يعترف لهؤلاء القصاصين بالبراعة الفنية وسلامة الذوق .

وقبل أن نعرض لشعر المجنون لنتعرف على قيمته من الوجهة الأدبية يجدر بنا الإلمام فى إيجاز بسيرته كما تناقلتها كتب الأدب وأن نثبت بالدليل المنطق أن هذا الشاعر لم تكن لوجوده حقيقة تاريخية نطمئن لصحتها فى غير شك .

وليس من الصعب إقامة البراهين التى تدل على ذلك ـ فالقصاصون أنفسهم يقدمون لنا من الحجج ما يغنى عن أى استنتاج .

وللوصول رأسا إلى ما نبغى نستطيع تقسيم هذه الحجج إلى أربعة أقسام : قسم خاص بالشك فى وجوده ـ وقسم خاص بنسبه ونسب ليلى ـ وثالث بحياتهما الغرامية وما قيل فى ذلك من حكايات ـ ورابع بانتحال الرواة شعر الشعراء المعروفين ونسبته إليه ـ وسنتم البحث ببعض استنتاجات توضح أن الباقى من أشعاره المعروفة لم يقلهـــا إلاّ شعراء مجهولون وتناقلها الرواة فكانت لهم مورد رزق فى مجالس الأمراء والعظماء .

أما الشك فى وجوده فقد تعددت الرواية فيه ـ فالأصمعى يحدثنا عن أعرابى من بنى عامر ـ وهى القبيلة التى ينسب المجنون إليها ـ إذ سأله عن المجنون العامرى فقال : عن أيهم تسألنى فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذى كان يشبب بليلى ـ فقال : كلهم كان يشبب بليلى ـ قلت : فانشدنى لبعضهم ـ فأنشدنى لمزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذى لجَّ هائماً بليلى وليداً لم تُقطَّعْ تمائمُهْ
أفِقْ قد أفاقَ العاشقون وقد أتى لك اليومَ أنْ تلقى طبيباً تُلائمُهْ
أجِدْك لا تُنْسيْك ليلى مُلِمَّةً تُلِمُّ ولا عهداً يطولُ تقادُمُهْ

قلت : فأنشدنى لغيره منهم ـ فأنشدنى لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالما لا عبتُ ليلى وقادنى إلى اللهو قلبٌ للحسانِ تبوعُ
وطالَ امتراءُ الشوقِ عينىَ كلما نزفتُ دموعاً تستجدُّ دموعُ
فقد طالَ إمساكى على الكبدِ التى بها من هَوى ليلى الغداةَ صدوعُ

قلت : فأنشدنى لغير هذين ممن ذكرت ـ فأنشدنى لمهدى بن الملوح المجنون :

لو أنَّ لكَ الدنيا وما عُدِلَتْ به سواها وليلى بائنٌ عنكَ بَيْنُها
لكنتَ إلى ليلى فقيراً وإنَّما يقودُ إليها وُدُّ نَفْسِك حينُها

وإن نظرة فاحصة يلقيها الناقد الدقيق على هذه الروايه بأكملها تكفى لإقناعه بأن الأعرابى أقحم فيها إقحاماً وإن قائلها وناقلها وناظم أشعارها لم يكن سوى الاصمعى عينه ـ فمطلع الأبيات المنسوبة الى مزاحم بن الحارث يشابه مطلع الأبيات المنسوبة الى معاذ بن كليب ـ أما معنى أبيات المجانين الثلاثة فيكاد يكون واحدا إذ يدور حول حب ليلى الذى يقرب من العبادة ـ ولو أن هناك أعرابيا طلب منه الأصمعى على غرة أن ينشده للمجانين الذين يعرفهم لخطرت على باله أشعار من الوان مختلفة كأن ينشده لأولهم ما قاله فى حب ليلى ولثانيهم ما قاله فى جمال ليلاه ولثالثهم ما قاله فى هجرها أو رضاها أو ما إلى ذلك ولاسيما أن ليلى كلٍّ من الشعراء الثلاثة لم تكن تلك التى تنسب إلى بنى عامر والتى تكنى أم مالك.

والأطرف من ذلك هو أن الرواة يجعلون وجود قيس بن الملَّوح المجنون أمرا يحط من كرامة قبيلته فيضعون على لسان أحد أفرادها قوله لابن دأب حين سأله عن المجنون : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئا ؟ فيجيب الرجل على الفور : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين ؟ ؟ ـ

ولما قال ابن دأب : انى أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق أجاب : هيهات !! بنوعا مر أغلظ أكبادا من ذلك .

أما محمد بن الحكم وهو أحد الثقاة فى الرواية الصحيحة فيقول نقلا عن عوانه: ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم ـ وابن القرية ـ ومجنون بنى عامر .

ولقد أيد هذه الرواية الأصمعى نفسه فقال : رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلاّ بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القرية وإنما أوجدهما الرواة .

وكما تعددت الروايات فى أن مجنون ليلى لم يوجد إطلاقا تعددت الروايات أيضا فى حقيقة نسبه ـ وتناقض هذه الروايات نتيجة طبيعية للاختلاق والوضع الزائف . فمن كان وجوده مشكوكا فيه كان من الصعب الاتفاق على نسبة ـ ومن ثمّ اختلف الرواة فى نسب المجنون .

فمصعب الزبيرى والرياشى وأبو العالية يزعمون أنه هو الأقرع بن معاذ ـ ويزعم خالد بن كلثوم ان اسمه مهدى بن الملوّح ـ ويدعى آخرون أنه قيس بن الملوّح ويدللون على ذلك بما نسبوه لليلى العامرية من أنها أنشدت :ـ

ألا ليتَ شعرى والخطوبُ كثيرةٌ مَتَى رَحْلُ قيسٍ مُسْتَقِلٌ فَرَاجِعُ

وهكذا جعل هؤلاء الآخرون ليلى من شعراء نساء العرب على الرغم من أن وجودها فى العالم الدنيوى من أساطير الأولين ـ أما هشام بن محمد الكلبى فيزعم أنه قيس بن الملوّح ويدلل على اسم أبيه الذى اخترعه بأن ينسب إلى قيس نفسه أنه أنشد عندما مات أبوه وعقر ناقته على قبره :

عقرتُ على قبرِ الملوّحِ ناقتى بِذِى السَرْحِ لمّا أَنْ جَفَاهُ الأَقَارِبُ

وما من شك فى أن هذا البيت من وضع الراوية هشام نفسه ليبرهن على صحة سياق القصة حين يأتى فى سردها الخيالى موت الملوح وجفاء الأقارب له وذبح قيس ناقته على قبره ليستعيض بها عن ذلك الجفاء المزعوم .

ومن مجموع هذه الروايات المتناقضة الشديدة الاختلاف يتضح أن كل قصاص كان يبذل غاية الجهد فى خلق رواية تجعله موضع ثقة مريديه ولا يتورع فى توكيد ما يذهب إليه من المزاعم عن أن يخترع شعرا يؤيد روايته ثم ينسبه إما إلى ليلى ليدلل فى إصرار على أن اسم المجنون قيس وإما إلى قيس ليبرهن على أن اسم أبيه الملوّح .

وعلى هذا النحو من الاختلاق سار كل منهم عندما أراد إثبات كنية ليلى - وإن يكونوا قد اتفقوا على نسبها — فلكى تكون كنيتها « أم مالك » جعلوا المجنون يقول :

تَكادُ بلادُ اللهِ يا أمَّ مالكٍ ... بِمَا رَحبتْ يوْماً علىَّ تَضيقُ

ولكى تكون كنيتها « أم عمرو » فلا بأس عندهم من أن ينزلوا على المجنون شيطان شعره ليثبت لهم هذه الكنية الجديدة فيقول :

أبَى القلبُ إلاَّ حُبَّهُ عامِريَّة ... لها كنيةٌ عمرُو - وليسَ لها عَمْرُو
تكادُ يدِى تَنْدَى إذا ما لمسْتُها ... ويَنْبُتُ فى أطرافِها الورقُ الخُضْرُ

ولا بأس أن يكون البيتان — على مافيهما من تكلف وركاكة — من شعر المجنون مادام الغرض من وضعهما هو إثبات أن ليلى العامرية هى « أم عمرو » — وعلى صحة التاريخ وقدسيته السلام

أما قصة غرام المجنون بليلى، وكيف نشأ حبه لها فقد كان اختلاف الرواة فيها مصدرا لاتساع نطاق الخيال الروائى فى فجر الإسلام وضحاه — وكان أيضا السبب الأساسى فى كثرة الشعر الذى ينسب إلى المجنون ومصدر تعدد ألوانه — وقبل التعرض لهذه القصة الأسطورية بالنقد أرى من الملائم سردها مجملة لإظهار الجانب الفنى فى نسجها .

فقيس بن الملوّح كلف بليلى العامرية وهما فى عهد الطفولة وقد علقت به وشغفها حبه على الرغم من صغر سنها — وكان يرعيان غنم أهلهما ولم يزالا على حبهما حتى كبرا فحجبت عنه فقال يذكر أيام الطفولة :

تَعَلَّقتُ ليلى وَهِيَ ذاتُ ذُؤابَةٍ ... ولَم يَبْدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ
صَغيرين نَرْعَى البَهْمَ يَاليتَ أنّنا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البَهْمُ

والحكاية كانت تكون طريفة إذا وصلت فى سياقها بما صنعه الرواة الآخرون من أجزاء السيرة بعد ذلك — غير أن النزاع على التباين فى القصص حدا بهؤلاء الرواة إلى أن يجعلوا حب المجنون لليلى العامرية يبدأ وهما كبيران — فيقول ابن الكلبي عن ابن الجصاص : إن سبب عشق مجنون ليلى « أنه أقبل ذات يوم على ناقته وعليه حلتان من حلل الملوك فمرّ بامرأة من قومه يقال لها كريمة وعندها جماعة نسوة يتحدثن — فنزل وجعل يحدثهن وقد أعجبن بجماله وكماله وكانت بينهن ليلى — وما زال على ذلك طول يومه — فبينا هو كذلك إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد العرب يقال له « منازل » يسوق معزى له — فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أَأَعقرُ من جرّا كريمةَ ناقتى ... ووصلىَ مفروشٌ لوصل مُنازلِ
إذا جاء قعقعن الحلىّ ولم أكن ... إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخلِ
متى ما انتضلنا بالسهام نضلته ... وإن نرم رشقاً عندها فهو ناضلى

« فلما أصبح لبس حلته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضا لهن فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته وعندها جويريات يتحدثن معها فوقف بهن وسلم ثم أخبرنه بأن مجلسه لن يكون فيه منازل فنزل فجعلت ليلى تتدلل عليه فكانت تعرض عن حديثه ثم تصغى إليه وقد علق قلبه بحبها ـ وبيناهما كذلك إذ أقبل فتى آخر من حيها فاخذت تُسِرُّ إليه ـ ولما انصرف وجدت أن وجه المجنون قد تغير فأنشأت تقول :

كلانا مظهرٌ للناس بُغْضاً ... وكلٌّ عندَ صاحبه مكينُ
تبلّغنا العيونُ بما أردنا ... وفى القلبين ثَمَّ هوىً دفينُ

« فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأغمى عليه فمكث ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما فى قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ »

هذه هى رواية ابن الكلبى عن ابن الجصاص وكأنى بهذا الراوى كان بين الحبيبين يوم لقائهما يسمع ويرى ويدوّن حديثهما بطريقة « الاختزال » قبل أن يعرفها الناس بعد عدة أجيال ـ وكأنى وأنا أقرأ هذه الحكاية أمام منصة « الشاعر أبى ربابة » أنصت فى عهد الصبا إلى قصة أبى زيد الهلالى سلامة وهو يرويها فى براعة وعُنجهية ويتفنن فى تزويدها بالحواشى المثيرة وهو يضرب ربابته بقوسها ليضفى على حديثه الكثير من العظمة المفتعلة .

ويتفق أبو مسكين مع ابن الجصاص فى كل تفاصيل هذه الرواية بعد أن يضفى عليها لونا من الوصف الخلاب ولكنه يقول إنها حدثت لقيس بن معاذ أحد المجنونين الآخرين ـ وهذا الخلاف يهدم كيانها القصصى من أساسه .

وكل من يمعن النظر فى هذه الحكاية يؤمن بأن شيئاً منها لم يقع لقيس بن الملوّح أو لقيس بن معاذ ـ وإنما إذا كان طرف منها قد وقع بالفعل فإنما يكون ذلك لعمر بن أبى ربيعة الذى كان من عاداته مداهمة النساء فى حيهن والجلوس معهن والتحدث إليهن وعقر ناقته عند الاقتضاء لما كان عليه من سخاء فى هذا السبيل ثم يغضب بعد ذلك للانشغال عنه بفتى آخر ـ وكل من قرأ اخبار ابن ابى ربيعة يلمس هذه الحقيقة فى روح سرد القصة نفسها .

وفى ثنايا هذه القصة الأسطورية نلمح ظاهرة هى من لزوميات القصص العربى فى القرون الأولى للتاريخ الهجرى تلك هى المغالاة التى تتخطى كل حدود المعقول ـ فقيس بن الملوّح « المجنون » يشهق عندما يسمع شعر ليلى ـ ويقينا أنها لم تقله ـ يشهق شهقة شديدة ويغمى عليه ساعة ـ وسيغمى على هـذا المسكين فى قصص الرواة طوال حياته الغرامية التعسة لاتفه الأسباب حتى ليخال قراؤها أن ثلاثة أرباع عيشته كانت إغماء تلو إغمـاء ـ فلا يفيق إلا لينظم الشعر الذى ينسب إليه ـ ولعل الرواة نسبوه إليه وهو فى حالة إغماء شديد حتى لا يكون واعياً فيلومهم على هذا الانتحال المذهل .

وبعد ذلك اللقاء الذى وصف على النحو المتقدم اشتهر أمر غرامهما ولاسيما بعد أن أخذ يقول فيه الشعر فيتناشده الناس — ثم يتقدم قيس ليخطب ليلى من أهلها فيفضلون عليه « وردا ابن محمد العقيلى » فتزوجها ورد على كره منها وذلك بعد أن تحدث بينها وبين حبيبها حوادث غرامية طريفة من حيث سذاجتها وبعدها عن الواقع — ومنها ذهابه إليها ذات ليلة ليطلب أدما فتأتى وتصب السمن فى إناء وهما يتحدثان فى نشوة الغرام فتستنقع أرجلهما وهما لايدريان من فرط العشق والهيام — ومنها أنه ذهب إليها ليلة أخرى يطلب ناراً فأعطته شيئاً منها فى خرقه ووقفا يتحدثان فاحترقت الخرقة فأخذ طرف ردائه ووضع النار فوقه وما زال ينقلها من طرف إلى آخر حتى لم يبق من ردائه إلا مايستر عورته — وهكذا يحدثك الرواة أيها القارىء تصدق المستحيل لأن المستحيل فى عرفهم من ألزم لزوميات القصص فى عصرهم .

ولما لم يكف قيس عن التشبيب بليلى بعد زواجها شكاه أهلها إلى السلطان فأهدر دمه — ولكن المجنون لايخاف على حياته فيفشى حبها إلى أن رحل أهلها إلى بلاد أخرى فيلح عليه الحزن والهمّ وتشتد عليه قسوة الغرام فيفقد عقله .

وتختلف الروايات حتى فى جنونه — فمن القصاصين من يقول إنه لم يكن مجنوناً — وينكرون كل الروايات التى تنسب إليه الجنون ويؤكدون أن سبب تسميته بالمجنون يرجع إلى البيتين المنسوبين إليه :

وإنى لمجنونٌ بليلى موكّلٌ ولستُ عزوفاً عن هواها ولا جلدا
إذا ذكرتْ ليلى بكيتُ صبابةً لتذكارها حتى يبلَّ البكا الخدّا

ومن الغريب حقاً أن الأصمعى الذى ينكر وجود المجنون — كما تقدم القول وذلك على أساس ما سمع من روايات الأعراب فى البادية — يعود فيروى لابن عبد الصمد بن المعذل ولحمّاد بن طالوت ولعمر بن شبة أن قيساً لم يكن مجنوناً بل كانت به لوثةٌ أحدثها العشق فيه — وهذا القول يناقض ماذهب إليه الأصمعى من أن قيساً ليس له وجود فعلى بين سكان الدنيا !!!

أما عثمان بن عمارة المُرّى فيجعل جنونه يبدأ من ذلك اليوم الذى لقى فيه ليلى وهى فى جماعة من أترابها فأخذت تتحدث إليه ثم توجه التفاتها إلى فتى آخر ثم تتوجه إليه فيقول البيتين الآنفى الذكر — ويغمى عليه ويستفيق وقد ذهب عقله فلا يلبس ثوبا الا خرقه ولا يمشى إلا عارياً ويلعب فى التراب ويجمع العظام أى أنه صار أحد مجاذيب السيد أحمد البدوى الذين نعرفهم الآن بما يأتون من أعمال تدخلهم فى زمرة البلهاء أو المستبلهين .

وهكذا تجعل رواية عثمان بن عمارة المُرّى المجنون يفقد عقله لمجرد سماعه بيتين من شعر ليلى فيهما بريق من الأمل فى حبها وتجعل عيشته نكداء منذ هذه اللحظة إلى أن يتوفاه الله فيذهب إلى الدار الباقية وهو فى زمرة شهداء الغرام الأفلاطونى .

غير أن الراوية الكلبى يجعل لجنون قيس مقدمة شيقة — فيزعم أن والد قيس وأمه ورجال عشيرته ذهبوا إلى أبى ليلى قبل أن يزوجها وردا العقيلى . وتوسلوا إليه أن يزوجها من ابنهم لأنه إذا لم يفعل قضى عليه بالموت — فيصر أبوها على تزويجها من « ورد » خشية العار — فييأس قيس ويزول عقله فيأخذه أبوه إلى الحج ليتعلق بأستار الكعبة ولكنه يسمع صائحاً فى الليل يصيح باسمها فيصرخ ويسقط مغشياً عليه — كعادته — ويمكث كذلك الى الصباح (دون أن يموت!!!) ثم يفيق ويقول :

عَرَضْتُ على قلبى العزاءَ فقالَ لى ... من الآنَ فيأسْ لاأعزكَ من صَبْرِ
إذا بانَ من تهوى وأصبحَ نائياً ... فلاشىءَ أجدَى من حلولكَ فى القبرِ

ثم يتعلق بأستار الكعبة ويصيح « اللهم زدنى من هوى ليلى » — ويهيم بعد ذلك على وجهه فى البرية مع الوحش ولا يأكل إلاّ ما ينبت فيها من بقل ولا يشرب إلاّ مع الظباء وطال شعر جسده ورأسه وألفته الظباء والوحوش فكانت لا تنفر منه !! وبهذا الوصف الخيالى الشيق تقدم « الكلبى » الراوية العربى على مؤلف قصة طرزان الأمريكية بعدة قرون — ولعل المؤلف الأمريكى قد علم برواية الكلبى فانسج من خطوطها العريضة مسلسلة طرزان التى لقيت إقبالا شديداً على

دور السينما من محبي المغامرات المماثلة لمغامرة العاشق المسكين مجنون ليلى .

غير أن « قيس الطرزانى » المتوحش النافر الفاقد العقل سرعان ما يسترد عقله ويترك الصحراء ويبحث عن مساكن ليلى من وقت إلى آخر فيتربص لزوجها حتى إذا وجده وهو يصلى الفجر فى يوم ممطر يهجم عليه لا ليغتاله أو ليلحق به الأذى ولكن ليقبض على ذراعيه ويقول له فى لطف وعذوبة :

بربكَ هل ضممتَ إليكَ ليلى قبيلَ الصبحِ أو قبَّلْتَ فاهَا ؟
وهل رَفَّتْ عليكَ قرونُ ليلى رفيفَ الأُقحوانةِ فى نداهَا ؟

فلا يستحى هذا الزوج الحربى ولا يثور أو يزجر المجنون على قوله هذا بل يجيب فى ليونة متناهية لا تتفق والروح العربية التى تغضب لأية بادرة تمس العرض من قريب أو من بعيد : أما وقد حلفتنى فنعم ! ! ـ وعندها تعود العصبية الجنونية إلى قيس فيقبض بكلتا يديه على الجمر ولا يفارقه حتى يسقط مغشيا عليه فى نوبة من نوبات إغمائه التى لا تحصى ـ وما من شك فى أن هذه الحكاية البديعة السياق من نسج خيال الرواة الخصب الذى يحليه نظم البيتين الرائعين المتقدمين وهما يكونان لوحة تستحق أن تتناولها ريشة الرسامين لإبراز منظر ورد يضم ليلى إلى صدره وقد ألقى نسيم الصباح على أحد كتفيه شعر ليلى الطويل الفاحم السواد .

ويزيد محمد بن الحكم على سياق هذه الحكاية أن أهل المجنون عثروا عليه وأخذوه يتريض فقال له بعض الفتيان إن جبلى النعمان كانا مقرا لليلى ـ فاسرع يسالهم أى الرياح تاتى من ناحيتهما فيقولون الصبا فيمكث المجنون ثلاثة أيام فى هذا المكان دون أكل ولا شرب حتى تهب ريح الصبا ويقول :

أيَا جَبَلَىْ نُعمانَ باللهِ خلِّيَا سبيلَ الصَبَا يَخْلُصْ إلىَّ نسيمُها
أَجِدْ بَرْدَهَا أو تَشْفِ مِنِّى حرارةً على كبدٍ لم يبقَ إلاَّ صميمُها
فإنَّ الصَبَا رِيحٌ إذا ما تنسَّمَتْ علَى نفسِ محزونٍ تجلَّتْ همُومُها

وأكبر الظن أن هذه الأبيات انتحلت للمجنون فى عصر متأخر عن العصر الذى يقال إنه عاش فيه لإثبات صحة هذه الرواية فقط ـ ذلك لأن كل المعنى الذى يستخلص منها هو وصف ريح الصبا حين تهب ولأن روح معانيها روح متمدنة ليس فيها من خشونة أهل البادية شيء ـ ويخال لى أنها صيغت فى العصر العباسى لما فى كلماتها من سلاسة وعذوبة جرس .

وبعد أن يعيش المجنون على هذا النحو البوهيمى الشاق ردحاً من الزمن غير قصير يقضى الرواة على حياته بالخيال الفياض نفسه الذى أحيوه به .

فيزعم عثمان بن عمـــارة المُرِّى أن شيخا من بنى مرة أراد رؤية المجنون فسافر إلى أرض بنى عامر والتقى بالملوّح والد قيس فقص عليه حكاية ابنه التعس فى إسهاب ثم دله على فتى لا يانس المجنون فى البادية إلاّ له ولا يقول شعره إلاّ إليه ـ فيساله الفتى عما يريد من المجنون فيقول إنه يود رؤيته فيقبل أن يستصحبه إلى حيث يأتى كل يوم ويحذره أن يهابه إذا رآه حتى ولو رماه بالحجارة وأن يجلس إلى جانبه دون ان ينظر إليه كانه لا يريد مخاطبته حتى إذا سكن من نفاره ينشده شعراً غزلا ويستحسن أن يكون من شعر قيس بن ذريح لأنه معجب به .

ثم يدل الفتى الشيخ على المكان الذى تعود المجنون أن يأتى إليه فى الصحراء ويتركه ـ فيذهب الشيخ وينشده الشعر حتى يأنس فيبكى بالمغالاة نفسها التى نجدها فى كافة أجزاء الرواية لأن بكاءه يبل الرمل الذى بين يديه ! ! وينشد قائلا :

وَأَدْنَيْتِنِى حَتَّى إذا ما سَبَيْتِنِى ... بِقَوْلٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطح

تَنَاءَيْتِ عَنِّى حِيْنَ لالِى حِيْلَةٌ ... وَخَلَّفْتِ ما خَلَّفْتِ بَيْنَ الجوانح

وبينا هو كذلك إذ سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن بصر الشيخ ـ وفى اليوم التالى جاءت المرأة التى كانت تصنع له الطعام إلى الطعام فوجدته بحاله وفى اليوم الثالث ذهب الشيخ مع أهل المجنون إلى الصحراء فوجدوه ميتا فى واد كثير الحجارة خشن فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه .

ومن الغريب حقاً أن نجد فى هذه الرواية عكس ما زُعم فى رواية سابقة من

أن المجنون لا يأكل إلا من نبات الصحراء بين أنواع الحيوانات الأليفة والمتوحشة على حين أن امرأة فى هذه الرواية تصنع له الطعام يومياً وتتركه فى المكان الذى تعود أن يأتى إليه ليأكل - وأغرب من ذلك أن يتفق ذهاب الشيخ للبحث عن المجنون فى البادية مع صعود روحه إلى بارئها بعد ثلاثة أيام كأن لقاء الشيخ بالمجنون وموته كانا على موعد - ومن الغريب أيضاً أن يقول المجنون البيتين السابقين على ما فيهما من نعومة التحضر وهو على ما هو عليه من النفور والتوحش بعد البقاء طويلا فى الصحراء بين الظباء والوحوش .

وعلاوة على ما نلحظه فى قصة حياة مجنون ليلى كلها من تناقض وشذوذ ومغالاة مما يدل صراحة على اختلاقها فاننا نجد فيها العناصر نفسها التى نجدها فى قصة « جميل بن معمر وبثينة » . وليس من المغالاة إذا قلنا إن قصة المجنون ما هى إلاّ نسخة محرفة من قصة « جميل بثينة »

فجميل وبثينة يلتقيان فى النسب تماما كما يلتقى قيس بن الملوح بليلى العامرية لأن جميل من ربيعه وبثينة كذلك .

وجميل كالمجنون علق ببثينة وهما طفلان - وقال فى ذلك شعرا حلوا جزلا يزيد فى المتانة وعذوبة الجرس على شعر المجنون فى هذا الصدد - فاسمعه يقول :

عَلِقْتُ الهوَى مِنْها وَلِيداً فَلَمْ يَزَلْ
إلى اليومِ يُنْمِى حُبَّها وَيَزِيدُ
وَأَفْنَيتُ عمرى بانتظارىَ وَعْدَهَا
وأَبْلَيتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ
فَلا أنَا مَرْدُودٌ بما جئتُ طالباً
ولا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ

ومن عجيب الصدف أن تكنى بثينة جميل بن معمر بأم عمرو كليلى - وأن يقول جميل الشعر فى ذلك كما قاله المجنون :

فهل تُجزِيَنّى أمُّ عَمْرٍو بِوِدِّهَا
فَإنَّ الذى أخْفِى بها فوقَ ما أُبدى

وحب جميل لبثينة يدوم حتى الممات كما يدوم حب المجنون لليلى فيقول جميل:

يَهْواكِ ماعشتُ الفؤادُ فإن أمُتْ
يَتْبَعْ صَدَاىَ صَدَاكِ بينَ الأَقْبُرِ

وجميل صادق الصبابة لا يحول عن غرامه مثل المجنون ـ فغرام الاثنين قوى متين يتغلغل فى قلبيهما ويستولى على وجدانهما ـ وفى ذلك ينفث جميل هـــذه الصبابة فى بيته الرنان :

خليلَىَّ فيما عشتما هَلْ رأيــتما
قتيلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قاتِلِه قبْلى ؟

وجميل يلتقى ببثيناه فى الليل بعيدا عن أهلها ويغامر من أجل ذلك مرات ومرات ثم يخطبها من أهلها بعد أن يتناشد الناس شعره فيها فيرفضون زواجه منها ويقدمون شعره للسلطان فيهدر دمه فيتتبع بثينة ويصعد فوق التلال المجاورة لها ليتنسم ريح الحى الذى تسكنه ويقول :

أيا ريحَ الشمَالِ أما تريْنى أهيمُ وإنَّنى بَادِى النُحولِ
هبِى لى نسمةً مِنْ ريح بُثْنٍ وَمُنِّى بِالهُبُوبِ إلى جميـــلِ
وَقُولى يا بُثَيْنَةُ حَسبُ نفسى قليلكِ أوْ أقل مِنَ القليلِ

وكل هذه الوقائع نجدها ماثلة فى سيرة المجنون متتالية فيها على نمط واحد وسياق واحد ليس فيه من التباين شيء .

وأبو جميل بن معمر كأبى المجنون يضرع إلى الله أن ينجى ابنه من حب بثينة وينصح إلى هذا الابن أن يعزف عن هذه الفتاة المتزوجة وأن يوجه حبه إلى خير فتاة فى قبيلته لأنه قادر على الزواج منها لما هو عليه من الغنى والجـــاه ـ فيرفض كما رفض المجنون ويبكى ويقول مثله : إن القلب لا يستطيع التخلص من حبه ثم ينشد هذه الأبيات الثلاثة الشيقة :

ألا مَنْ لِقلبٍ لا يَملُّ فيذهَلُ
أفِقْ فالتعزِّى عَنْ بُثينةَ أجملُ
سلا كلُّ ذى وُدٍّ علمتَ مكانَهُ
وأنتَ بها حتى المماتِ مُوكَّلُ
فما هكذا أحببتَ مَنْ كانَ قبلَها
ولا هكذا فيما مضَى كنتَ تَفعَلُ

وجميل كالمجنون مسرف فى حبه وفى صبابته — فإسرافه فى الحب يجعله يعزف عن الإفادة المادية من شعره فلم يمدح أحداً — وإسرافه فى الصبابة ينطقه بهذه الأبيات المليئة بالوله واللوعة :

لها فى سوادِ القلبِ بالحبِ مَيْعَةٌ
هِىَ الموتُ أو كادَتْ على الموتِ تَشْرف
وما ذكَرتكِ النفسُ يا بُثنُ مرةً
مِنَ الدهرِ إلاَّ كادَتْ النفسُ تَتْلَف
وإلاَّ اعترتْنى زَفْرَةٌ واستكانَةٌ
وَجَادَ لها سَجْلٌ من الدمعِ يذرف
وما استَطْرَفَتْ نفسى حديثاً لِخُلَّةٍ
أُسرُّ به إلاَّ حديثكِ أطْرَفُ

ويقول فى موضع آخر من ديوانه :

لقد لجَّ ميثاقٌ مِنَ اللهِ بيْنَنَا
وليسَ لمنْ لمْ يوفِ للهِ من عهدِ
فلا وأبيها الخيرَ ما خنتُ عهدَها
ولا لىَ عِلْمٌ بالذى فعلتْ بعْدِى

وما زَادَها الواشونَ إلاَّ كرامةً
علىَّ وما زالتْ مَوَدَّتُها عِندِى
أفى النــاسِ أمثالى أحَبَّ فحالُهُمْ
كحالىَ أمْ أحبَبْتُ مِنْ بينهم وحدِى؟
وَهلْ هكـذا يَلقَى المحبونَ مثلَ ما
لقيتُ بِها أمْ لم يجد أحدٌ وَجْدِى ؟

ومن كل هذه الشواهد المتقدمة يتضح فى جلاء أن شخصية المجنون الخيالية وشخصية جميل بن معمر واحدة ـ وأن الرواة لما وجدوا فى حياة جميل مادة قصصية صالحة لتغذية فن الرواية عمدوا إلى توسيع محيطها الروائى بحيـاة أسطورية أخرى أكثر منها اقترابا إلى المثل العليا التى لم يدانيها جميل مثل ما داناها قيس بن الملوّح ولم تسم إليها بثينة مثلما سمت ليلى العامرية .

فجميل وإن كان محباً صادقاً مسرفا فى حبه إلاّ أنه لم يجن لهذا الحب ولم يترك الأهل والأصدقاء ويلجأ إلى البادية ليعيش بين الظباء والوحوش بعيداً عن متع الحياة ورغدها كما فعل قيس ـ فهو وإن كان يحب بثينة حبا يقرب من العبادة إلاّ أنه لا يتردد عندما تغضبه فى أن يتركها نائمة بجانب ناقته ويرحل ويستمر على هجره لها زمناً ليس بالقصير .

وبثينة وإن كانت من هؤلاء النسوة اللاتى أخلصن فى حبهن إلى حد كبير إلاّ أنها ليست ساذجة صافية النفس كليلى ـ فالنزوع إلى الخبث والخداع يجعلها قادرة على استنباط الحيـل للتخلص من المآزق ـ فهى إذا ما رآها جميل وهو فى زى الراعى وجاء أهلها على صراخ الفزع الذى دفعته من صدرها عند رؤيته ألقت بثوبها فى النار لتزعم لذويها أنها صرخت لاحتراق هذا الثوب .

وبثينة لا تقيم لحرمة الزوجية والحرص على شرف الزوج كبير وزن فلا تتورع عن أن تلتقى بجميل فى خلوة ـ فإذا جاء خادمها ليسقيها لبنا ووجدها معه

أخفت جميلا تحت متاعها وجعلت خادمتها تنادمها فيقتنع زوجها وأبوها وأخوها بأن الخادم كذب عليها ـ وإذا كانت هذه الحكاية لا يسهل تصديقها إلا أن لقاء جميل بها يدل على مكرها واستطاعة إخفاء هذه المغامرة بوسيلة أو بأخرى ـ وبثينة لا تحجم بعد ذلك عن أن تنعت هذا الزوج السيء الحظ بأقبح الصفات وتسميه بالأعور الذميم على حين أن ليلى لم تحاول الإساءة إلى سمعة زوجها ورد أو ذمه .

وبثينة إلى جانب ما تقدم حمقاء سليطة اللسان سريعة البديهة فى ذلك . على خلاف ليلى البسيطة الطوية الطيّعة الراضية بما قدر لها الكاظمة الغيظ الكابتة للواعج حبها حتى الممات ـ فقد قال الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى دامت خلافته إلى عام ٩٧ هـ (٧١٥ م) إلى بثينة وهى فى سن الكهولة : ما الذى رأى فيك جميل حتى أحبك كل هذا الحب؟ فلم يكن منها إلاّ أن أجابت على الفور: الذى رأى فيك الناس حين استخلفوك ! !

فجميل وبثينة لم يكونا إلاّ شخصيتين عاديتين جمعهما الغرام فأحب كل منهما الآخر حباً قوياً ، ولكنه حب يخضع للنظم البشرية ـ فيتخلله الهجر والصد والوصل ويتخلله الخبث والمكر وابتكار الحيل والفروسية ثم ينتهى بالفراق كأى حب مألوف . ذلك لأن جميل بن معمر له وجود تاريخى معترف به فقد كان شاعراً من بنى عذرة وتوفى بمصر عام ٨٢ هـ (٧٠١ م) ومن ثمّ لم يكن فى وسع الرواة أن يجعلوا قصة حبه خيالية بحت فاضطروا إلى سردها مع إدخال بعض الحواشى الأسطورية التى لم تشوّه كل جوانبها الحقيقية .

أما المجنون وليلى فشخصيتان ممتازتان طابعها النبل والعفة والتفانى فى الصبابة والبعد عن الشهوات الدنيئة والتوجع للفراق حتى الممات ـ فهما ـ كما أراد لهما الرواة ـ يمثلان من الناحية الاجتماعية الذروة فى الحب العذرى الصادق وهـــذا لا نجده فى حب جميل وبثينة .

وكما كان من السهل إقامة الأدلة على اختلاق القصاصين لشخصية مجنون ليلى فإنه ليس من العسير تقديم البراهين الدالة على انتحالهم لشعره .

فعلاوة على البرهان المنطقى الذى نستخلصه من نفى وجود المجنون كشخصية تاريخية حقيقية لاثبات انتحال هذا الشعر فإن القصاصين والرواة أنفسهم يمدوننا ببعض البراهين الأخرى فى هذا الصدد .

فأيوب بن عباية يقول « إن شعر قيس بن الملوّح مجنون ليلى وضعه فتى من بنى مروان كان يهوى امرأة منهم ـ وكان يقول فيها الشعر وينسبه إلى المجنون وقد صنع له أخبارا وأضاف إليها ذلك الشعر فحمله الناس وزادوا فيه »

ويقول ابن الكلبى إن بعضهم حدثه أن المجنون وشعره من وضع فتى من بنى أمية كان يهوى إبنة عم له ـ وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه .

وقال الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل فى ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً هذه سبيله قيل فى لُبنى إلاّ نسبوه إلى قيس بن ذريح »

ويؤكد ابن الأعرابى أن جماعة من بنى عامر سئلوا عن المجنون فلم يعرفوه وذكروا أن هذا الشعر كله مولد عليه .

هذه هى أدلة القصاصين والرواة أنفسهم ـ أما الأدلة العقلية فيستطاع استخلاصها من أمرين : أحدهما نسبة بعض أشعار المجنون إلى الشعراء المعروفين ـ والآخر الإحساس الذى يستولى على النفس عند قراءة البعض الآخر من هذا الشعر فيدلنا بالبديهة على أنه إما لشاعر من كبار الشعراء الروح التى نلمسها فيه وإما لشعراء مجهولين وضعوه فى عصور متأخرة ـ من ذلك الأشعار التى تنسب للشاعر نصيب وهى :

أمُستقبلى نفحَ الصبَا ثمّ شائقى ببرد ثنـــايا أم حسّان شائقُ
كأنّ على أنيابهـــا الخمرَ شجّها بماءِ النّدَى مِنْ آخر الليل غاتق
وما شمته إلاّ بعيــنى تفرّساً كما شِيمَ فى أعلى السحابةِ بارِقُ

وكل من يقرأ شعر نصيب لا يشك لحظة فى أن هذه الأبيات من نظمه وأنها

حشرت فى شعر المجنون حشراً لاثبات رواية ذهابه إلى ليلى ذات مساء وطلبه النار فاتته بقبس منها فوضعه على أطراف ردائه حتى احترقت جميعها - وليس فى هذه الحكاية ما يدل على أن الأشعار المتقدمة قيلت بمناسبتها .

ومن هذه الأشعار أيضاً تلك التى تنسب الى المجنون وهى :

وخبّرتمانى أنّ تيماءَ منزلٌ ... لليلى إذا ماالصيفُ ألقى المراسيا
فهذى شهورُ الصيفِ عنّاقد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا ؟

وما علينا إلاّ أن نرجع إلى قصيدة جميل اليائية المفتوحة لنحس فيها هذه الروح التى نشعر بها عند قراءة هذه الأبيات التى قالها جميل فى قصيدته :

وأنتِ التى إن شئتِ كدرت عيشتى ... وإن شئتِ بعدَ الله أنعمت باليا
وأنتِ التى مامن صديق ولا عدا ... يرى نضوَ ماأبقيتِ إلاّ رثى ليا

إذا خدَرتْ رجلى وقيل شفاؤُها ... دعاءُ حبيبٍ كنتِ أنتِ دعائيا
ولازادنى الواشونَ إلاّ صبابةً ... ولا كثرة الناهين إلاّ تماديا
لقدْ خفْتُ أن يغتالنى الموتُ عنوةً ... وفى النفسِ حاجاتٌ إليكِ كما هيا
وإنّى لتُثْنينى الحفيظةُ كلما ... لقيتكِ يوماً أنْ أبثكِ مابيا
وقالوا بهِ داءٌ عيَاءٌ أصابهُ ... وقد علمتْ نفسى مكانَ دوائيا
ألم تعلمى ياعذبةَ الريقِ أننى ... أبيتُ إذا لم ألقَ وجهكِ صاديا؟

فإذا مزجنا هذه الأبيات ببعض التى تنسب إلى المجنون من البحر والروى نفسهما لتكونت من هذا المزيج قصيدة لا نشك لحظة فى أن قائلها شاعر واحد شعر فى نظمها بإحساس واحد هو عاطفة الحب القوى فخرجت جزلة العبارة صادقة التعبير

والواقع هو أننا اذا أضفنا الأبيات المتقدمة إلى الأبيات الآتية التى تنسب إلى المجنون وهى :

خليلىّ لا واللهِ لا أملكُ الذى قضَى اللهُ فى ليلى ولا ماقضَى ليا
قضاها لغــيرى وابتلانى بحبّها فهلا بشيءٍ غيرَ ليلى ابتلانيا ؟
أعدُّ الليــالى ليلةً بعــدَ ليلة وقدْ عشتُ دهراً لا أعدُّ اللياليا
وما أشرُفُ الإيقاع إلاّ صبَابةً ولا أنْشُدُ الأشعارَ إلاّ تداويا
وقدْ يجمعُ اللهُ الشتيتين بعْدَما يظُنّان كلَّ الظنِ أنْ لاتلاقيا
لحَى الله أقواماً يقــولون إنّنى وجدْتُ طوالَ الدهرِ للحُبِّ شافيا

لعلمنا فى غير كبير عناء أن الذى قالها جميعها هو جميل — وأن اسم ليــلى فى البيتين الأول والثانى وضع بدل اسم « بثن » وهو اختصار « بثينة » وكان جميل كثيراً ما يخاطبها فى أشعاره بهذه التسمية المقتضبة الحلوة .

وهل فى العقلاء ذوى الإدراك الحصيف من يصدق أن رجلا فقد عقله وهام على وجهه فاقد الوعى يستطيع نظم هذه الأبيات الرصينة العذبة الجرس والمعانى التى تدل على رجاحة العقل وقوة الإدراك السليم فيما يستطيع نظمه من القوافى .

ولست بذلك أريد القول إن جميع الأبيات التى تنسب لمجنون ليلى من هذا البحر الطويل ومن هذه القافية المفتوحة هى من شعر جميل بن معمر وإنما الذى أريد الوصول إليه هو أن بعض هذه الأبيات أخذت من شعر جميل ووضعت فى الشعر الذى ينسب إلى المجنون وبعضها الآخر قاله الرواة ونسبوه إليه .

أما الإحساس الذى يستولى على نفوسنا لدى قراءة طائفة كبيرة من الأشعار المنسوبة إلى المجنون فنستدل منه على روح مؤلفها الحقيقى ونستطيع إلى حد ما تعيين هذا المؤلف من بين الشعراء — فنجده مثلا ظاهراً فى هذه الأبيات التى يقول الرواة إن المجنون قالها عندما وجد ليلى بين أترابها وأراد التحدث إليها فأعرضت عنه وأخذت تكلم شابا يدعى «منازل» وهى التى مطلعها :

أأعقِرُ مِنْ جرَّا كريمةَ ناقتى ووصلى مفروشٌ لوصْلِ منازِلِ ؟

فإن نسبتها إلى عمر بن أبى ربيعة ربما تكون أقرب إلى الحقيقة كما قدمت لأن طابعه الشعرى فيها واضح ويتجلى هذا الطابع أيضا فى روعة الوصف الدقيق فى الأبيات الآتية التى تنسب عبثاً إلى المجنون :

ولم أرَ ليلى بعدَ موقفِ ساعة بخيفِ مُنىً ترْمى جمارَ المحصَّبِ
ويبدى الحصى منها إذا قَذفَتْ به منَ البردِ أطرافَ البنَانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ مع الصبحِ فى أعقاب نجم مغرّبِ
ألا إنمـا غادَرْتِ ياأمَّ مالكٍ صدَى أينما تذهب الريحُ يذهبِ

فإن هذا الوصف البديع المفعم بالغزل الشجى لايعرف كيف يسمو إليه إلاّ عمر بن أبى ربيعة الذى له فى مثل هذا اللون من القريض مواقف مشهورة .

وخذ مثلا آخر تلك الأبيات التى عزاها الرواة إلى قيس بن الملوّح ليدللوا على نسبه ونسب ليلى وعلى اسم أبيه ـ فإنك تجد فيها من التكلف والإسفـاف مايحملك تجزم بأنهـا وضعت فى عصور مختلفة لاتمت إلى العصر الذى يقال إن المجنون عاش فيه بسبب ـ ويمكنك أن تضم إليها تلك التى وضعت على لسانه ليرد بها على ليلى عندما جاءته قائلة : ياقيس إن أمك تزعم أنك جننت من أجلى وتركت الطعام والشراب فاتق الله وابق على نفسك فيبكى ويقول :

قالتْ جُننتَ على أيْشٍ فقلتُ لها الحبُ أعظمُ مـا بالمجـانين
الحبُّ ليسَ يفيقُ الدهرَ صاحِبُهُ وإنّمـا يصرع المجنون فى الحينِ

فهل المجنون الذى ذهبت كل قواه العقلية يرتجل هذين البيتين ليرد على ليلاه بمجرد أن تخاطبه فى أمر جنونه ؟ إن هذا لايقبله عاقل من مجنون ليس له عقل :

ومن الأبيات التى تنسب لهذا المعتوه وتظهر فيها النعومة الواضحة التى تحمل على أنها نظمت فى العصر العباسى الثانى وقت أن توغل الترف فى الاجتماع العربى وكانت من نتائجه تلك النعومة المترفة التى نلحظها فى كثير من الشعر والنثر فى ذلك العصر ـ من تلك الأبيات المقطوعة التالية :

ياللرجالِ لِهَمٍّ باتَ يعروني
مستطرفٍ وقديمٍ كادَ يبْليني
مَنْ عاذِري مِنْ غريمٍ غيرَ ذي عسرٍ
يأبى فيمطلني دَيْني وَيلْويني
لايبعدُ النقد من حقي فينكرهُ
ولايحدثني أنْ سوفَ يَقْضيني
وما كشكرىَ شكرٌ لو يوافقني
ولا مُنَاىَ سواهُ لو يُوافيني
أطَعْتُهُ وعصيتُ الناسَ كلَّهمُ
في أمرهِ وَهَوَاهُ وهو يَعْصيني

ومن الأدلة التي تؤكد أن هذه الأبيات وضعت في العهدالعباسي الثاني أن الحبيبة فيها تخاطب بالمذكر وقد غلب هذا التذكير في ذلك العصر على التأنيث إذ اتبعه معظم الشعراء حتى الفحول منهم - ومازال - مع الأسف يطبع أغانينا بطابعه المستهجن .

وإذا علمت أن الرواة يدعون أن المجنون قال هذه الأبيات عندما ألحت ليلى في الصدّ عنه فأتى إليها ذات يوم وجلس يتحدث إلى صاحباتها ثم أنشدهن هذه الأبيات فأخذن يضحكن منه وهو يبكي تبين لك أن الميوعة المرنة التي تتنافى مع خشونة البادية لاتظهر في الأبيات فحسب بل في حكاية المناسبة التي قيلت فيها .

ويعزو الرواة للمجنون أبياتا تخرجه عن هالة العذرية التي أحاطوه بها وعن الحب الأفلاطوني النقي من كل شائبة - فقد قالوا على لسانه حين علم أن زوج ليلى سبّه وقال : أو بلغ من قدر قيس بن الملوّح أن يدعي محبة ليلى وينوّه باسمها ؟ قالوا على لسانه الأبيات التالية :

فإنْ كانَ فيكم بعلُ ليلى فإننى
وذى العرشِ قد قبّلْتُ فاهَا ثمانيا

وأشهدُ عندِ الله أنى رأيتُها
وعشرون منها إصْبعاً مِنْ ورائيا

أليسَ من البلوىَ التى لاسوى لها
بأنْ زُوِّجَتْ كلباً ومَا بُذِلَتْ لِيَا ؟

فنى هذه الأبيات يبدو قيس بن الملوّح نذلا ـ وهذا لايتفق وما ألبسه هؤلاء الرواة من بُردِ الشهامة فى الحب والتفانى فى الصبابة النقية ولا مع روح التسامح والإشفاق والرثاء لحال المجنون التى وجدناها فى معاملة زوج ليلى له حين سأله إذا كان قد ضمها (قبيل الفجر أو قبّلَ فاها) .

غير أن القصاصين لم ينسوا أن ينسبوا للمجنون الأشعار المليئة بالمثل العليا والروعة والجمال اللفظى مثل قوله :

الله يُعلم أنّ النفسَ هالكةٌ
باليأسِ مِنْكِ ولكنِّى أعَنِّيها

مُنّيتُكِ النفسَ حتّى قدْ أضرَّبها
واستَيْقَنَتْ خُلُفاً مِمَّا أُمَنّيها

وساعةٍ منكِ ألهوُها وإنْ قصُرَتْ
أشهىَ إلىّ مِنَ الدُّنْيَا ومافيها

ومن الشعر المنسوب إلى المجنون مايتضمن الرصانة والمتانة الدالتين على الروح العربية الأصيلة كقولهم عنه :

طَربتَ وشاقتكَ الحمولُ الدوافعُ
غداةَ دَعَا بالبينِ أسفعُ نازعُ
شَجَا فَاهَ نَعْيـاً بالفراقِ كأنهُ
حَريب سليبٍ نازِحُ الدار جَازعُ
فقلتُ ألا قـدْ بين الأمر فانصرف
فقد رَاعنَا بالبينِ قبلكَ رائعُ

. . .

وقد يَتَنَاءَى الإلْفُ من بعدِ إلفِهِ
ويصدعُ مابينَ الخليطين صَادِعُ
وكم من هَوىً أو خيرةٍ قد أَلِفْتُهمْ
زماناً فلم يمنعهمُ البينُ مانعُ
كأنى غداةَ البينِ مَيِّت جَوْبَةٍ
أخُو ظمأ سُدَّتْ عليهِ المشارعُ
تخَلَّسَ مِنْ أوْشالِ ماءٍ صَبَابَةً
فلا الشربُ مبذولٌ ولا هو نافِعُ

ولعل من المفيد تلخيص البحث القيم الذى دوّنه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء عن شخصية المجنون ـ ويتركز هذا التلخيص فى الاستنتاجات الآتية :

١ ـ أن هذه الشخصية كانت رمزاً لطائفة من الآراء الأدبية وعنوانا لألوان وضّاحة من ألوان العاطفة وشكلا خلابا من أشكال فنون الشعراء فى العصر الأموى .

٢ — أن المجنون ليس له شخصية شعرية بارزة فى كل شعره وإنما نلاحظ فى هذا الشعر بعض شخصيات الشعراء المعروفين أخذ شعرهم وأضيف إلى المجنون .

٣ — أن اسم ليلى كان شائعاً عند العرب فى ذلك الوقت مثل اسم « هيلانه » عند اليونان فى عصر الأبطال .

٤ — أن هذا المجنون نراه إما فاقد الشعور من الإغماء أو فاقد العقل تائهاً فى القفار — ورجل هذا شأنه لا يمكن أن يصدر عنه شعر بعضه من المتانة بمكان بل خليق بمستشفى الأمراض العقلية .

ولقد أضاف أمير الشعراء أحمد شوقى لبنة كبيرة فى كيان تخليد ذكر مجنون ليلى بتاليفه المسرحية الشعرية التى تحكى قصة غرامه العذرى النادر . ولعل أمير الشعراء أراد أن ينافس بهذه المسرحية الرائعة مسرحية شعرية سبقتها فى الشعر الفرنسى هى مسرحية «سيرانو دى برجراك Cyrano de Bergerac » التى ألفها الشاعر الفرنسى « أدمون روستان Edmond Rostand » خلال عام ١٨٦٨ م . وفى هذه المسرحية التى تعد من روائع الشعر الفرنسى يمت بطلها « سيرانو دى برجراك » فى بعض نواحى حياته بصلة إلى مجنون ليلى — فهو مثله شاعر مغرم لا ينال من حبيبته ما كان يتمنى — وهو مثله يتألم ويشقى بهذا الحب العذرى الأفلاطونى إلى آخر لحظة من حياته — وهو من النبل بحيث يقدم لمن يعشق (وهى روكسان) الشاب الذى تحبه فى هالة من قوة الشاعرية واتساع الأفق الأدبى وذلك بأن يلقنه الأشعار التى ينظمها فى حب « روكسان » التى تجهل أنه يحبها والتى تخال أن هذه الأشعار الرائعة من نظم حبيبها الشاب الوسيم وليس من نظم « سيرانو » الدميم الخلقة الكبير الأنف بشكل مضحك — وإذا كانت شخصية المجنون وهمية فإن شخصية «سيرانو» حقيقية . فقد كان شاعراً فرنسيا من الشعراء الساخرين الماجنين — وقد عاش فى الفترة الواقعة بين عامى ١٦١٩ و ١٦٥٥ م — أى أنه مات وعمره ٣٧ عامــا . وقد نالت مسرحية «سيرانو دى برجراك» شهرة كبيرة وخلدت اسم «سيرانو» بعد أن كاد التاريخ يهمل ذكره على غرار مسرحية مجنون ليلى التى كان لها أثر عميق فى إبراز اسمه لتتسع دائرة تخليده فى إطار تاريخ الأدب العربى على مر الأجيال .

٢ — وضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعه فى الميزان

كثيراً ما يضع التاريخ على هامشه شخصاً - فإذا ما طواه الموت طويت صفحته على أثره فلا يتردد ذكره على الألسن إلاّ نادراً كأنه أحد النكرات الذين لم يسهموا فى تشييد جانب من الحضارة الإنسانية .

والشاعر الذى أحاول بهذا الحديث إظهار نواحى النبوغ فيه هو وضّاح اليمن وأحد هؤلاء المطمورين الذين دون التاريخ أسماؤهم فى زاوية من هامشه ليلقى القارىء عليها نظرة عابرة دون تكبد أى عناء فى التعرف على ما تركوا من آثار قيمة فى الفنون أو العلوم .

ولقد كان شاعرنا ممن توافرت فيهم صفات النبوغ على الرغم من تجاهل تاريخ الأدب العربى لهذه الصفات - فهو ضليع فى لغته متين فى تفهم معانيها الدقيقة لدرجة أن أشعاره استشهد بها للدلالة على بعض المترادفات العويصة التعبير فكلمة « التنويل » على معنى التقبيل أثبت اللغويون صحة ذكرها بالمعنى الأخير ومثلوا لذلك بقول وضّاح اليمن:

إذا قلتُ يوماً نوّليني تبسمتْ
وقالتْ معاذَ الله مِن فعل مَاحَرُمْ

فما نَوّلتْ حتى تضرّعتُ عندَها
وأنبأتُها مارخّصَ اللهُ فى اللّمَمْ

وكلمة المحراب على معنى الغرفة استشهدوا على صحتها ببيته الماجن فى مرماه العذب فى جرسه :

رَبّةُ محرابٍ إذا جئتُها　　لم ألقها أو أرتقى سُلّما

ولم يترك شاعرنا بابا من أبواب القريض إلاّ طرقه ولا لوناً من ألوان الشعر إلاّ نظم فيه فأجاد كل الإجادة .

وإذا كانت الصفتان المميزتان لشعر عمر بن أبى ربيعة هما البراعة فى التشبيب وبلوغ الذروة فى وصف ما يعرض له من صور أو حوادث فإن وضّاح اليمن لم يكن أقل منه شأناً فى هاتين الناحيتين ـ فقد شبب فأحسن ووصف فاتقن لدرجة أن ما وصف يتمثل أمام قارئه صوراً رائعة المنظر صادقة التعبير بهيجة النسق .

وقد يخطر على البال ـ عندما تاتى المقارنة بين الشاعرين ـ سؤال لابد لمن يتخيل ما بلغه عمر بن أبى ربيعة من الشهرة وذيوع الصيت وما بقى عليه وضّاح اليمن من الترك فى ركن من أركان النسيان من أن يطرحه على نفسه فى كثير من الدهشة ـ وهو لماذا رُفع بالأول إلى أعلى عليين وزُج بالثانى فى حفرة الإهمال السحيقة على حين أن فن كل منهما يكاد يكون واحدا فى نزعاته وفى جماله بل وفيما يغذى شاعريته من مشاعر وأحاسيس؟

والجواب عن ذلك نجده واضحاً فى نظم الاجتماع الغريزية التى لم تستطع الأجيال لها تبديلا على الرغم مما أدخلت على البيئات المتعاقبة من أساليب فى مختلف العصور الماضية .

فالدعاية الطنانة كانت وما تزال العامل القوى فى تفضيل رجل على رجل ولو كان مستوى إدراكها العقلى فى درجة واحدة من الارتقاء .

ومن شرائط نجاح هذه الدعاية الأساسية الجـاه ووفرة المال ومكانة الأسرة من البيئة ـ وفى جاه عمر بن أبى ربيعة وفى غزارة ماله وسمو مكانة أسرته ما شد أزر هذه الدعاية وجعل حظه منها أكبر بكثير من حظ وضّاح اليمن .

فتاريخ الأدب العربى يقيم من عمر صاحب مدرسة ينتمى اليها العرجى ومن هم على شاكلة العرجى ـ ويضع الوضّاح فى مرتبة الشعراء الثانويين الذين لا نتعرف على جهودهم الأدبية إلاّ من حواشى سيرهم كأنهم أفراد عاديون لم يسهموا فى الحركة الفكرية إبان صدر الإسلام بنصيب مثمر خلاق .

وأكبر الظن أن تلك الغمرة كان من نتائجها المجحفة أن قذفت بوضّاح اليمن ـ فى القرن الأول الهجرى ـ إلى شاطىء مجهول ليموت بعيداً عن النافخين فى أبواق الدعاية فتدفن الرمال فى موجاتها المتلاحقة جسمانه ومعظم آثاره الفكرية ـ وكان أحرى بهذه الآثار أن يضاف كنزها الثمين بأكمله إلى تراث الناطقين بالضاد الأدبى مصحوباً بما يستحق من تفصيل وشرح وتقدير .

ولنستعرض فيما يلى بعض أبيات من شعر ابن أبى ربيعة فى التشبيب والوصف وبعض أبيات من القليل الذى وصل إلينا من شعر وضّاح اليمن فى هذين اللونين من القريض لنقف على أوجه الشبه فى تفكير الشاعرين :

فعمر بن أبى ربيعة شبب بزينب بنت موسى الجمحيه فى قصيدته التى يقول فيها :

أَلا يابكرُ قد طَرَقا خيالٌ هاجَ لِى الأرَقا
لزينبَ إنها همِّى فكيفَ بحبْلِها خلَقا
خَدَلّجةٌ إذا انصرمت رأيتَ وِشاحَها قلَقا
وساقاً تملأُ الخلْخَا لَ فيه تراهُ مُخْتَنِقا
إذا مازينبٌ ذُكرتْ سَكبْتُ الدمعَ مُتّسِقا
كأنَّ سحابةً تهْمِى بماءٍ حُمِّلتْ غَدَقا

وقال وضّاح اليمن يشبب بجارية تدعى حبَابة شاهدها بالحجاز وسمع غناءها فأُعجب بها إعجاباً شديداً . وكانت حبَابة من المغنيات الشهيرات فى صدر الإسلام مثل سلاّمة القس وغيرها :

يا مَنْ لقلبٍ لا يُطيعُ الزاجرينَ ولا يُفيقْ
تسْلو قلوبُ ذوى الهوى وهْوَ المكلّفُ والمَشوُقْ
تبلَتْ حبَابةُ قلبَهُ بالدَّلِ والشكلِ الأنيقْ
وبعَينِ أحورَ يرْتَعى سقْطَ الكثيبِ منَ العقيقْ

مَكحولةٍ بالسحر تُنْشِي نشْوَةَ الخمرِ العتيقْ
هيفاء إنْ هي أقبلتْ لاحتْ كطالعةِ الشروق
والردْف مثلُ نقَا تلبَّدَ فهْوَ زُحلوقٌ زَلوقْ
دَاوِى هَوَاىَ وأطفِئى مافى الفؤادِ منَ الحَريقْ
وَترفَّقِى أمَلى فقدْ كلَّفْتنِى مالا أطيقْ
فى القلبِ منكِ جوىَ المحُبِّ وَرَاحةُ الصَّبِّ الشَّفيقْ
هـذا يقودُ برُمَّتِى قوْداً إليكِ وذا يسوقْ
يا نفسُ قد كلَّفْتنِى تعبَ الهوَى منْها فذُوقْ
إنْ كنتِ تائقةً لِحَـرِّ صَبابةٍ منْها فتُوقْ

فالسياق فى القصيدتين يكاد يكون على نمط واحد ـ والخيال متقارب الفكر كأن مبدعه شاعر لا شاعران ـ فعمر بن أبى ربيعة يشكو لبكره ما يلاقى من طيف زينب من الأرق وهى كل همه فى الحياة فكيف بها تصرم حبل وداده ؟ وزينب خدلجة ـ أى مكتنزة الذراعين والساقين حتى أن هاتين الساقين تختنقان بالخلخال ـ وزينب إذا ذكرت فاضت عينا عمر بالدمع المنهمر على خديه كما تهمى السحابة المغدقة من المطر .

ووضَّاح اليمن يشكو من قلبه الذى لا يسلو حبَابة مع أنها أسقمته بالدَّل وبسحر العين ـ وحبَابة محبوبته هيفاء وفى ردفها من العظم ما فى ذراعى وساقى زينب فاتنة ابن أبى ربيعة من الامتلاء والضخامة ـ وهذا هو معيار جمال أجسام الغوانى فى ذلك العصر ـ وحبَابة كلفت وضَّاح اليمن مالا يطيق كما جعلت زينب عينى عمر تهمى بالدمع المدرار .

ويسير الشاعران على نهج واحد فى التشبيب فيوهمان القارىء أن المحصنات يسعين إليهما ويطلبن ودَّهما ويعجبن بهما ـ وكلا الشاعرين يذكر اسمه فى قصائده التى من هذا النوع ليثبت وجوده وليؤكد أن هؤلاء المحصنات لم يسعين لغيره وإنما له هو بالذات :

فاسمع لابن أبى ربيعة يقول فى هذا الباب عن زينب الجمحية :

مازَالَ طرفى يحارُ إذْ بَرَزَتْ حتى رأيتُ النقصانَ فى بصرى
أبصرتهُا ليلةً وَنِسْوتهَا يمشينَ بين المقام والحجرِ

. . .

قَدْ فُزْنَ بالحسنِ والجمالِ معاً وَفُزْنَ رِسلاً بالدَّلِّ والخفَرِ
يُنْصِتْنَ يوماً لها إذا نَطقتْ كيما يُشَرِّفْنَها عَلَى البَشَرِ
قالَتْ لِتِربٍ لها تُحدِّثُها لَنُفْسِدَنَّ الطوافَ فى عُمَرِ
قُومى تَصدَّى له لِيعْرِفَنا ثم أغمزيه ياأخت فى خفَرِ
قالتْ لها قد غمزتُه فأَبى ثم اسْبَطَرَّتْ تَسْعى على أثرى
مَنْ يُسْقَ بعدَ المنامِ رِيقَتَها يُسْقَ بِمِسْكٍ وَبَارِدٍ خَصِرِ

وينسج وضَّاح اليمن على منوال عمر بن أبى ربيعة فيقول :

حَىِّ التى أقْصَى فُؤَادِكَ حلَّتِ
عَلِمَتْ بأنكَ عاشقٌ فأَدلَّتِ
وإذا رأتكَ تقلقلتْ أحشاؤُها
شوقاً إليكَ فأكثرتْ وأقلَّتِ
وإذا دَخَلْتَ فأغلقت أبْوَابهُا
عزَمَ الغيورُ حِجَابهَا فاعْتَلَّتِ
وإذا خرجْتَ بكتْ عليكَ صَبَابَةً
حتّى تَبُلَّ دُمُوعُها مابَلَّتِ
إنْ كنتَ ياوضَّاحُ زرتَ مُرحباً
رَحُبَتْ عليكَ بلادُنا وأظلَّتِ

وما من شك فى أن كل منصف لا يتردد فى أن يجد فى لونى التشبيب المتقدمين قوة الشاعرية الخصبة فى وضَّاح اليمن ويلمس فيهما عناصر جمال التعبير وعذوبة الجرس ويحكم عادلا بأن شاعرنا لا يقل عن ابن أبى ربيعة فى روعة الخيـــال وحسن الأسلوب مع مرح المجون الذى هو أحد مميزات نبوغ الشاعرين .

أما الشعر الوصفى فالشاعران لهما طريقة بارعة فى عرض صورة واضحة فى رسمها جلية فى تكوينها مكتملة فى إطارها ولو ذهبا فى سبيل ذلك إلى أبعد حد من الخلاعة .

فالوضَّاح يصف ليلة من ليالى لهوه مع روضة بنت عمرو التى أحبها وهام بها ـ فتأتى قصيدته وكأنها لوحة زاهية رسمتها ريشة رسام ماهر فيقول :

أغَنِىٌّ على بيضاءَ تَفتَرُّ عَنْ بَرَدْ
وتمشى على هَوْنٍ كمشيةِ ذى الحَرَدْ
وتَلبَسُ من بزِّ العراقِ مَنَاصِفاً
وأبْرادَ عَصْبٍ من مُهَلهَلةِ الجَنَدْ
إذا قلتُ يوماً نوِّلينى تَبَسَّمَتْ
وقالت لعمرُ اللهِ لو أنَّهُ اقتصـــدْ
سَمَوْتُ إليهـــا بعدَ مانامَ بَعْلُها
وقد وَسَّدَتْهُ الكفَ فى ليلةِ الصَرَدْ
أشارت بطرفِ العين أهلاً ومرحباً
ستُعطى الذى تهوى على رغم من حَسَدْ
ألستَ ترى من حولنَا من عَدُوِّنَا
وكلَّ غلام شامخِ الأنفِ قَدْ مردْ ؟
فقلتُ لهـــا إنى امرؤٌ فَاعْلَمِنَّهُ
إذا ماأخذتُ السيفَ لم أحفل العددْ

بنى لىَ إسمـــاعيلُ مجداً مؤثلاً
وَعَبْدُ كُلالٍ قبْلَه وأبو حَمَدْ
تُطِيْفُ علينـــا قهوةٌ فى زجاجةٍ
تريكَ جنان القومِ أمضى من الأسَدْ

فينبرى له عمر بن أبى ربيعه ليريه آية من شعره الوصفى فى لوحة جميلة تبين موقفاً من موافقة الغرامية العديدة التى تضرب بصراحتها ومجونها الأمثال فيقـــول :

جرَى نَاصِحٌ بالودِّ بينى وبينهـــا
فقَرَّبَنى يومَ الحِصَابِ إلى قتلى
فطَارَتْ بحدٍّ مِنْ فؤادى وقَارنت
قَرِينَتُها حبلَ الصَّفَاءِ إلى حَبْلى
فلمَّا تواقفنا عرَفْتُ الذى بها
كمثلِ الذى بى حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ
فقلنَ لها هـــذا عِشاءٌ وأهلنا
قريبٌ ألمَّا تسأمى مركبَ البَغْلِ ؟
فقالتْ فما شئتُنَّ قلنا لها انزلى
فللأرضُ خيرٌ من وقوف على رَحْلِ
نجـــومٌ درارىٌ تَكَنَّفْنَ صُورةً
من البدرِ وافتْ غيرُ هُوجٍ ولاعُجْلِ
فَسَلَّمْتُ واستأنستُ خيفة أنْ يرَى
عَدُوٌ مقامى أو يرى كاشحٌ فعـــلى
فقالتْ وأرختْ جانبَ السِتْرِ إنما
مَعى فتكلمْ غيْرَ ذى رِقْبَةٍ أهلى

فقلتُ لها مابى لَهُمْ من تَرَقُّبٍ
ولكنَّ سِرِّى ليس يحمله مثلى
فلمّا اقتصرنا دونَهُنَّ حديثنا
وهُنَّ طبيباتٌ بحاجةِ ذى الشَّكلِ
عرَفْنَ الذى تَهوى فقُلْنَ ائذنى لنا
نُطِفْ ساعةً فى بردِ ليلٍ وفى سَهْلِ
فقالت فلا تلبثْنَ قلنَ تحدثى
أتيناكِ ـ وانسبنَ انسيابَ مَهَا الرَّمْلِ
فَقُمْنَ وقد أفْهَمْنَ ذَا اللُّبِ إنما
أتَيْنَ الذى يأتينَ من ذاكَ من أجلى

هذا هو الشاعر وضَّاح اليمن فى مقابلة عمر بن أبى ربيعة وكان من الإنصاف أن يُعرف مقداره الأدبى فى ناحيتين من نواحى القريض مع مقارنة هذا المقدار بما ارتفع إليه أحد فحول الشعراء فى صدر الإسلام للدلالة على أن شاعرنا لم يكن نكرة ـ وكل ما فى الأمر أنه كان مطموراً ـ ولم يكن خاملا وإنما لم تتح له الفرص المواتية والدعاية الطنانة الكافية ليستطيع عرض إنتاجه الفكرى القوى وشعره الجزل فى سوق الأدب ومعارض التاريخ عرضاً مستفيضاً يتفق وما يجب أن يكون له من تقدير سليم بعيد عن شوشرة الدعايات والتهويش ـ وسيتضح من تحليل وعرض ما نظم وضَّاح اليمن من قصائد فى أنواع الشعر الأخرى أن حظه من هذا التقدير فى عالم الأدب لم يكن إلا قليلا شحيح المقدار .

ولنبدأ الآن فى تقديمه إلى من يجهلون سيرته بذكر أخباره التى تدل على نسبه وما وقع له من أحداث طوال حياته .

فهو ـ كما نسبه صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى ـ عبد الرحمن ابن إسماعيل بن كُلال ـ ووضَّاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه ـ ويختلف فى تحقيق هذا النسب : فيقول قوم إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهرز

لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة ـ ويزعم آخرون أنه من آل خولان ابن عمرو بن قيس بن معاذ بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث وينتهى نسبه إلى المرّعف بن قحطان .

وممن ذكروا أنه حميرى خالد بن كلثوم إذ قال : ـ « كان وضّاح اليمن من أجمل العرب وكان أبوه إسماعيل بن كُلال بن داذ من آل خولان بن عمرو ابن معاوية الحميرى ـ فمات أبوه وهو طفل فانتقلت أمه إلى أهلها وانقضت عدتها فتزوجت رجلا من أهلها من أولاد الفرس ـ وشب وضّاح فى حجر زوج أمه ـ فجاء عمه وجدّته أم أبيه ومعهما جماعة من أهل بيته من حمير يطلبونه ـ فادعى زوج أمه أنه ولده ـ فحاكموه فيه وأقاموا البينة أنه ولد على فراش إسماعيل بن كُلال أبيه ـ فحكم به الحاكم إليهم ومسح يدهُ على رأسه وأعجبه جماله وقال له : إذهب فأنت وضّاح اليمن لا من أتباع ذى يزن فعلقت به هذه الكلمة منذ يومئذ فلقّب وضّاح اليمن »

وممن زعموا أنه من أبناء الفرس ابن الكلبى ومحمد بن زياد الكلابى .

وكان وضّاح اليمن والمقنع الكندى وأبو زبيد الطائى يردون مواسم العرب مقنعين يسترون وجوههم خوفا من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم ! !

ولم تذكر المراجع التى أمكن الاطلاع عليها لتحقيق أخبار سيرته تاريخ ميلاده ولو على وجه التقريب .

وليس من شك فى أن الروايات التى تدعى أن هذا الشاعر ليس له وجود وأن سيرته محض أسطورة لا تقوم على أسس متينة من الحقائق التاريخية التى يركن إلى صحتها فى غير تردد ـ إذ أن الروايات التى تناقلت سيرة حياته والكثير من أشعاره الذى وصل إلينا ورجال السند الذين ذكروا تفاصيل هذه السيرة وهذه الأشعار لا تدع مجالا للشك فى وجوده وفى صحة معظم أخباره خصوصاً وأنه كان معاصراً لطائفة كبيرة من الشعراء الذين عاشوا فى صدر الإسلام

وجاء ذكره فى سير عدد من هؤلاء الشعراء عندما تعرض الرواة والمؤرخون لتدوين هذه السير فى كتبهم وفيما يُروىَ عنهم .

والخلاف فى نسبه لا ينهض دليلا على الشك فى وجوده كشاعر فحل من شعراء صدر الإسلام ولا سيما أن هذه المراجع التى تختلف فى حقيقة نسبه تجمع على تحديد تاريخ وفاته فى العشر السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجرى .

والمصدر الوحيد الذى لا يمكن أن يتطرق الشك إلى صدق سنده والذى يعين السنة التى مات خلالها وضّاح اليمن هو النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ـ فقد ذكر صاحب هذا المصدر التاريخى الموثوق فى صحته ما يلى عند سرده وفيات عام ٩٣ الهجرى (٧١١ م) :ـ « وفيها أى فى تلك السنة ـ توفى وضّاح اليمن ـ واسمه عبدالله بن إسماعيل بن عبد كُلال ـ كان من أهل صنعاء من الأنبار وقيل: اسمه عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كُلال ـ ووضّاح اليمن لقب له لجمال وجهه ـ وهو صاحب القصة مع أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك بن مروان التى ذكرها بن خلّكان فى تاريخه »

ويقينى هو أن كل هذه الروايات مجتمعة تبدد كل شك فى وجوده شاعراً من شعراء عصره الأفذاذ .

وكان الوضّاح يهوى امرأة من أهل اليمن ـ وقيل من بنات الفرس ـ تدعى روضة بنت عمرو من ولد فُرعان ذى الدروع الكندى ـ وقد ذهبت به كل مذهب وخطبها فامتنع قومها من تزويجه إياها وعاتبه أهلها وعشيرته فقال فى ذلك :

يا أيهـا القلبُ بعضَ ما تجِـدُ   قـد يعشقُ المرءُ ثمَّ يَتَّئـدُ
قد يكتمُ المرؤُ حُبَّهُ حِقَبـاً   وَهْوَ عَميـدٌ وقلبُـهُ كَمِـدُ
ماذا تُريدينَ مِنْ فَتىً غَزِلٍ   قَدَ شَفَّهُ السُقمُ والسَهَدُ
يُهدِّدُونى كـيما أخافَـهُمُـو   هَيْهاتَ أنىَّ يُهَدَّدُ الأسَدُ

وقال فى روضته هذه بعد أن زوجت غيره :

يا قلبُ ويحكَ لا يَذْهَبْ بكَ الحُرَقُ
إنّ الأُلى كنتَ تهواهُم قد انطلقوا
ما بالُهُمْ لم يُبالوا إذْ هجرتَهمُو
وأنتَ من هجرِهِمْ قد كدتَ تحترقُ

وقال فى تباريح الشوق الذى كان يملأُ قلبه إليها :

يا رَوضةَ الوضّاحِ قدْ عنّيْتِ وضّاحَ اليمنْ
فاسْقِي خليلكِ مِنْ شرا بٍ لم يكدّرْهُ الدرنْ
الريحُ ريحُ سفرْجلٍ والطعمُ طعمُ سُلافِ دَنْ

وعندما حمل إلى الوليد بن عبد الملك بالشام هاجه الحنين إلى روضته المعبودة فأنشد يقول :

أبَتْ بالشامِ نفسى أنْ تطيبَا
تذكّرْتُ المنازلَ والحبيبَا
ألا ليْتَ الرياحَ لنا رَسُولٌ
إليكم إنْ شمالاً أو جنوبَا
فتأتيكم بما قلنا سريعاً
ويَبْلُغُنا الذى قلتم قريبَا
ألا يا رَوضُ قد عذّبتِ قلبى
فأصبحَ من تذكّركم كئيبَا
ورقّقْتِنى هواكِ وكنتُ جلْداً
وأبْدَى فى مفارِقيَ المشيبَا

وناجى طيفها فى غربته وقد كوى لهيب الفراق وجدانه فقال :

طرقَ الخيالُ فمرحباً سهلاَ بخيالِ من أهدَى لنا الوَصْلاَ
وسَرَى إلىَّ ودُونَ منزلِه خمسٌ دوائمُ تعملُ الإبلاَ
ياحبَّذا مَنْ زارَ مُعتَسِفاً حَزْنَ البلادِ إلىَ والسهلاَ
حتى ألمَّ بنا فبتُّ به أغنى الخلائقِ كلِّهم شملاَ
واللهِ مالى عنكِ منصَرفٍ إلاّ إليكِ فأجملِى الفعْلاَ

وفى النماذج المتقدمة من الشعر الغزلى الرقيق المتقن ما يبرهن فى وضوح على أن شاعرنا وضّاح اليمن كان من كبار شعراء عصره .

ولم يبق الدهر على جمال روضة وبهائها ليكون للوضّاح فيهما بعض السلوى والتغنى بما ضما من محاسن ورونق ـ فأصيبت بعد زواجها من غيره بداء الجزام ويقول بعض الرواة إن الوضّاح كان على سفر مع أصحابه وبينما هو يسير استوقفهم وعدل عنهم ساعة ثم عاد وهو يبكى وقال إنه عدل إلى روضة فوجدها جذمت وأخرجت من بلدها فأصلح من شأنها وأعطاها جزءا من نفقته ـ وهكذا قدر لشاعرنا أن يرى بعينيه مصدر وحيه وإلهامه وقد حطم الداء الوبيل تمثاله الرائع بمعوله الفتاك المدمر بعد أن كان ملاذه الذى يلجأ إليه كلما أنشب الفراق والإخفاق فى الغرام أنيابهما فى قلبه العانى .

[illegible] أساءت إليه الدعاية المغرضة فى شهرته وذيوع صيته أساءت إليه الدعاية الكاذبة فى سيرته كرجل يحافظ على كرامته ويحرص كل الحرص على أن يبادل من تعهدوه برعايتهم وعطفهم إحساناً بإحسان .

فهذه الدعاية الكاذبة التى شنها العباسيون على الأمويين لينالوا من سمعتهم وليطعنوا فى عقيدتهم الدينية وفى عروضهم لأسباب سياسية كان من نتائجها المباشرة سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية على أنقاضها المقوضة عام ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ـ هذه الدعاية عينها أقامت من وضّاح اليمن عربيداً فاجراً يذهب فى مجونه المتطرف إلى حد التشبيب بزوجة الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى دام حكمه من عام ٨٧ إلى ٩٧ هـ (٧٠٥ - ٧١٥ م) والذى على

أيامه بلغت الامبراطورية العربية أوج عزها - كما جعلت منه مستهتراً بكل القيم الأخلاقية فيتخذ من هذه السيدة الحسيبة النسيبة خليلة مسرفة فى نزقها مستهينة بشرفها وشرف أسرتها العريقة فى المجد والسؤدد .

وقبل أن أتناول أقوال هؤلاء الرواة بالتسفيه وأقيم الحجة على بعد ما ذهبوا إليه عن الحقيقة أجد من الملائم سرد رواياتهم على علاتها لنتبين مواضع الضعف فيها وذلك من سياقها نفسه .

فقد روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » عن محمد بن خلف بن المرزبان عن القاسم بن الحسن المروزى عن العمرى عن لقيط والهيثم بن عدىّ أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان (وهى أخت الخليفة التقى الورع العادل عمر بن عبد العزيز) استأذنت زوجها الوليد بن عبد الملك وهو خليفة فى الحج فأذن لها فقدمت مكة ومعها من الجوارى ما لم ير مثله حسنا - وكتب الوليد وتوعد الشعراء جميعاً إذا ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها .

وقدمت فتراءت للناس - وتصدى لها أهل الغزل والشعراء ووقعت عينها على وضّاح اليمن فهويته !!

وروى صاحب الأغانى أيضاً عن الحرمى بن أبى العلاء عن الزبير بن بكّار عن جعفر مولى أبى هريرة عن أبيه عن بديح: «أن أم البنين قدمت حاجة وهى عند الوليد بن عبد الملك وهو خليفة - فبعثت إلى كثيّر عزّة وإلى وضّاح اليمن أن انسبانى - فأما وضّاح اليمن فإنه ذكرها وصرح بالنسيب بها فوجد الوليد عليه السبيل فقتله - وأما كثيّر فعدل عن ذكرها ونسب جاريتها غاضرة»

ويقول بديح - الذى جعله صاحب الأغانى فى الرواية الثانية سنده الأصيل - « إن عبيد الله بن قيس الرقيات علق بأم البنين حين رآها تحج فقال فيها شعراً بعد أن حذّر بديحا هذا من إباحة سره » :

أصَحَوْتَ عَنْ أمِ البنينَ وذكرِها وعَنَائها
وهجرتَها هجرَ امرىءٍ لم يَقْلُ صَفْوَ صَفائها
قُرشيَّةٌ كالشمسِ أشرقَ نورُها ببهائها
زَادَت على البيضِ الحسانِ بحسنِها ونقائها
لما اسْتَكرَتْ للشبابِ وقُنِّعَتْ بردائها
لمْ تَلْتَفِتْ لِلِدَاتِها وَمَضَتْ على غُلَوَائها
لولاَ هَوَى أمِ البنينَ وحاجتى للقائها
قَدْ قَرَّبَتْ لى بَغْلَةً محبوسةً لِنجائها

أما الحرمى فيقول إن أم البنين لما جاءت مكة حاجة أرسلت إلى وضَّاح اليمن وإلى ابن قيس الرقيات (وليس إلى كثيِّر عزّة) -كما جاء فى رواية لقيط والهيثم بن عدىّ المتقدمة الذكر - أن انسبانى - فهاب قيس الرقيات ونسب بجاريتها غاضرة - وأما وضَّاح اليمن فنسب فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله .

وليس من العسير تفنيد هذه الروايات المتناقضة فى كيانها لإظهار كذبها وبهتانها وذلك بالاستنتاجات المنطقية التالية :

أولا — أن أبا الفرج الأصفهانى من أخلص الأوفياء للعباسيين وقد ألف كتابه الموسوعى « الأغانى » فى عهدهم وراجع الأصوات المختارة المئة فى كتابه الخليفة الواثق وكان الخليفة هارون الرشيد هو الذى اختار هذه الأصوات - ولا يستبعد أن يكون أبو الفرج قد اختار الروايات التى تنسب الفجور والاستهتار بالشرف إلى أم البنين ليرضى نزعة العباسيين إلى الحط من شأن بنى أمية بعد أن دالت دولتهم - وكان وضَّاح اليمن هو كبش الضحية التى تقدم قرباناً لحبك رواية أم البنين بأن ينسب إليه المجون المتطرف والدعارة الجامحة وخيانة الخليفة عبد الملك الذى أحسن إليه واكرمه .

ثانياً — أن تناقض هذه الروايات الواضح يهدمها من أساسها ويبعدها عن الحقيقة التاريخية كل البعد .

ثالثاً — أنه ليس من المعقول أو المقبول منطقياً أن سيدة فاضلة مثل أم البنين - بنت عبد العزيز بن مروان وشقيقة عمر بن عبد العزيز - تبتذل لدرجة أنها تدعو وضّاح اليمن وكثيّر - في رواية - ووضّاح اليمن وقيس الرقات في رواية أخرى - للتشبيب بها وهي تؤدي فريضة الحج وتخلص إلى الله في بيته الحرام .

رابعاً — أن يخالف الشعراء في مكة أوامر الخليفة المشددة ويذكروا أم البنين في شعرهم جهاراً دون أن يبادر عامل الخليفة على مكة إلى إنزال العقاب الصارم بهم .

خامساً — ألاَّ يكون في موكب أم البنين حرس كبير من الرجال الأشداء يمنع وقوع مثل هذا الاستهتار من جانب الشعراء إذا أقدموا عليه .

سادساً — أن الأشعار المنسوبة لعبيد الله بن قيس الرقيات لا يستبعد أن تكون من نظم أحد شعراء العباسيين لحبك الرواية التي تحط من شأن أم البنين وتعرض شرفها وعرضها للقول الفاحش - ولا يستبعد أيضاً أن يكون ناظمها هو أبو الفرج الأصفهاني نفسه لإضفاء ثوب الزيف البراق على حقيقة الأمر لطمسها إرضاء لبني العباس .

هذا ما يستطاع استنتاجه من أقوال الرواة على النحو المدون قبل - ولعل هذا الاستنتاج يقنع القارئ الحصيف بأن هذه الأقوال مختلقة وكاذبة في جملتها وتفصيلها .

ولأتطرق الآن إلى سرد حكاية قتل وضّاح اليمن كما يرويها صاحب « الأغاني » نقلا عن خالد بن كلثوم وهي تتلخص في الآتي :

«كان وضّاح اليمن قد شبب بأم البنين وهي أم عبد العزيز بن الوليد والشرف

فيهم ـ فبلغ الوليد تشبيبه بها فأمر بطلبه فأتى به فأمر بقتله ـ فقال له ابنه عبد العزيز : لا تفعل يا أمير المؤمنين فتحقق قوله ـ ولكن افعل به كما فعل معاوية بابى دهبل فإنه لما شبب بابنته شكاه يزيد وسأله أن يقتله فقال : إذن تُحقق قوله ـ ولكن تبرد وتُحسن إليه فيستحى ويكُفّ ويكذّبُ نفسه ».

« فلم يقبل الوليد من ابنه عبد العزيز هذا الحل ـ وجعل وضّاح اليمن فى صندوق ودفنه حياً » .

« وقد وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من وَلَدِ الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المُسابّة وذلك فى دولة بنى العباس . فوضع الشعوبى عليهم كتابا زعم فيه أن أم البنين عشقت وضّاحاً فكانت تدخله صندوقاً عندها ـ فوقف على ذلك خادم الوليد فأنهاه إليه وأراه الصندوق فأخذه فدفنه »

وروى علىّ بن سليمان الأخفش فى كتاب « المغتالين » عن السكرى عن محمد ابن حبيب عن الكلبى : « أن أم البنين عشقت وضّاحاً ـ فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها ـ فإذا خافت وارته فى صندوق عندها وأقفلت عليه ـ فأهدى للوليد جوهر له قيمة فأعجبه فدعا خادماً له فبعث به معه إلى أم البنين وقال :

« قل لها إن هذا الجوهر أعجبنى فآثرتك به » ـ فدخل الخادم عليها فجأة ووضّاح عندها ـ فأدخلته الصندوق وهو يرى فادى إليها الرسالة ودفع إليها الجوهر وقال :ـ يا مولاتى هبينى منه حجراً ـ فقالت لا يا بن الخنى ولا كرامة ـ فرجع إلى الوليد فأخبره ـ فقال كذبت يا ابن الخنى وأمر به فقتل ـ ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهى جالسة فى ذلك البيت تمتشط وقد وصف له الخادم الصندوق الذى أدخلته فيه . فجلس عليه ثم قال لها : ـ يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك فلم تختارينه ـ فقالت : ـ أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب ـ فقال لها :ـ هبى لى صندوقا من هذه الصناديق قالت :ـ كلها لك يا أمير المؤمنين . قال :ـ هذا الذى جلست عليه ـ قالت :ـ خذ غيره فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها ـ قال :ـ ما أريد غيره ـ قالت:ـ خذه يا أمير المؤمنين » .

« فدعا بالخدم وأمرهم بحمله حتى انتهى إلى مجلسه فوضعه به - ثم دعا عبيداً له فأمرهم بحفر بئر فى المجلس عميقة فنُحِّى البساط وحفرت إلى الماء - ثم دعا بالصندوق فقال :- يا هذا إنه بلغنا شىء إن كان حقاً فقد كفنّاك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر - وإن كان باطلا فإنا دفنا الخشب وماأهون ذلك - ثم قذف به فى البئر وهيل عليه التراب ولم يُر بعد ذلك وضّاح اليمن فى الدنيا » .

ونظرة مدققه يلقيها الناقد المنصف على هاتين الروايتين المختلفتى السند تجعله يؤمن عن عقيدة راسخة بأنهما مختلقتان من ألفهما إلى يائهما وأن مصـــدرهما الأصيل هو ذلك الشعوبى الخبيث الذى فاخره أحد أحفاد الوليد بن عبد الملك فانتصر عليه فصمم على الانتقام منه بالطعن الفاحش فى عرض إحدى جداته أم البنين بكتاب ألفه - وتلقفته الدعاية العباسية فى لهف وغبطة وخصته بأوسع مدى من النشر وتلقفه الرواة الموالين لبنى العباس فى سرور وأعطوه أوفر قسط من انتاج خيالهم الشرير .

وليست المسألة مقصورة على روايات كاذبة قصد بها النيل من شرف امرأة أحبت شاعراً لتمر عليها مر الكرام دون دحضها بالبراهين الدامغة - وإنما مسألة هامة تتعلق بناحية تاريخية يجب إثبات اختلاقها الدنيء دفاعا عن سيدة من فضليات نساء العرب فى الحقبة الأولى من العصر الإسلامى ودفاعاً عن سلسلة متعاقبة الحلقات من خلفاء الدولة الإسلامية فى فجر ظهورها وهى الدولة الأموية التى كان لها أكبر الفضل فى الفتوحات وأقوى الأثر فى نشر الحضارة الشرقية فى العهد الأول للإسلام ولا سيما فى عهد الوليد بن عبد الملك الذى وطد دعائم الإمبرأطورية العربية وانتصر قواده على البوزنطيين (الروم) وبلغوا بـــلاد القفقاس والمغرب وصقليا وإسبانيا - وفى الشرق فتح قتيبة بن مسلم بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة وتشكنت وبلغ حدود الصين بينما كان محمد بن قاسم يفتح بلاد الهند .

وقبل إقامة الأدلة التى لاتقبل الشك على بهتان هذه الفرية السافلة يجدر تمنيد الروايات المتقدمة الذكر لتبيان تناقضها وبعدها عن العقل والمنطق .

ففى رواية لقيط والهيثم بن عدىّ نجد أم البنين تعشق الوضّاح بمجرد أن

تراه ودون أن تعبأ بأوامر الخليفة زوجها الذى حرم على الشعراء الاقتراب منها والتشبيب حتى بجواريها ـ وكأنها بذلك الوصف إحدى هؤلاء النساء الطائشات اللاتى لا يقمن للشرف وزناً حتى ولو كن فى حمى بيت الله الحرام ـ فتتراءى للناس وتطلب التشبيب بها فى غير حشمة .

وفى رواية بُديح نجد أم البنين تبعث إلى الوضّاح وإلى كثيّر عزّة أن انسبانى فيفعل الوضّاح وينسب كثيّر بجاريتها غاضرة ـ ثم يأتى الحرمى ويقول إنها أرسلت إلى وضّاح وإلى ابن قيس الرقيات فيفعل وضّاح وينسب ابن قيس الرقيات بجاريتها غاضرة ـ وفى هذا التناقض ما يقطع بكذب الروايتين معاً ـ ومن ناحية أخرى لا يستطيع العقل أن يصدق فى سهولة أن امرأة أمير المؤمنين تأتى حاجة وفى ركابها حرس قوى وقد سبقتها أوامر الخليفة المشددة إلى عامله على مكة إلى حد أن تبعث إلى وضّاح اليمن وإلى كثيّر أو ابن قيس الرقيات ليقولوا فيها النسيب ضاربة بأوامر زوجها عرض الحائط ومخاطرة فى نزق واستهتار بشرفها وشرف أسرتها الكريمة فى غفلة من رجال حرسها الأقوياء الساهرين .

وإن كانت بين الروايات المختلفة رواية فيها ظل خافت من الحقيقة فهى تلك التى تعزى إلى خالد بن كاثوم الذى أماط اللثام على جلية الأمر بما وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد من فخار أدى إلى الكتاب الذى وضعه هــذا الشعوبى وضمنه حكاية قتل وضّاح اليمن على الصورة الخيالية التى أتيت على تفصيلاتها .

وفى عناصر هذه الحكاية بالذات كل البراهين التى تقطع باختلاقها فى غير لبس ـ فأم البنين فى سياقها تتمثل لنا حمقاء تطلع خادمها على خليلها وتضعه فى الصندوق أمامه وتزجره وتهينه بدلا من أن تسترضيه ليغض الطرف عن خيانتها الزوجية ـ ويتمثل لنا الخليفة الوليد أرعن مغفلا فيأتى بالصندوق الذى يضم وضّاح اليمن حتى ينتهى إلى مجلسه ويدفنه حيا على مرأى من رجال بلاطه دون مبالاة بما يترتب على ذلك من افتضاح أمر زوجته وتلويث عرضها . وكلتا الصورتين لا تحتاج

إلى أى عناء لاثبات ما اشتملت عليه من زيف مشوه واختلاق واضح يقومان دليلا لا يقبل الشك على كذبهما .

ولنعرض الآن لما كان عليه الوليد بن عبد الملك من أخلاق وصفات لنتبين ما إذا كان تساهله فيما يتصل بشرفه وعرضه على النحو الذى ادعاه الرواة عن أم البنين يتفق وما سطره التاريخ المأثور بالنسبة إلى هذه الأخلاق والصفات أو يتعارض معها كل التعارض .

فابن الأثير يحدثنا عن هذا الخليفة الأموى فى كتابه « الكامل » فيقول « إنه وَلِىَ الخلافة عام ٨٦ هجرية فصعد على المنبر واجتمع إليه الناس فخطبهم قائلا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، واللهُ المستعان على مصيبتنا لموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافه : فقوموا وبايعوا » ـ ويختتم ابن الأثير هذه الكلمة بقوله إن الوليد كان أول من عزى نفسه وهناها من الخلفاء ! !

فهل فى شدة بأس هذا الحاكم المستبد المتكبر ما يدعو إلى الظن فى أنه كان سهل القياد يرضى بأن تفعل زوجته ما افتراه عليها الرواة دون أن يطيح برأسها لمجرد الشك أو الشبهة وقبل أن تلطخ سمعته وسمعة أسرة بنى مروان بالعار ولاسيما أنها بنت عمه ؟

وكان من كبريائه المتطرفه وتعاليه أن حج بالناس عام ٩١ الهجرى فخطب الخطبة الأولى فى يوم الجمعة وهو جالس ـ وكان من جبروتة وقبضه على زمام الحكم بيد من حديد باطشة لا تعرف المهادنة أن اختار ولاته من بين الطغاة الجبابرة الذين قال فيهم عمر بن العزيز قبل توليه الخلافة : ـ « الحجاج بالعراق ـ والوليد (أى الخليفة) بالشام وقرَّة بن شريك بمصر وعثمان بن حييَّان بالمدينة وخالد بن عبدالله بمكة ـ اللهمَّ قد امتلأت الدنيا ظلما وجوراً فادحاً » ـ فاين كان الجبار خالد بن عبدالله حين تجرأ الشعراء وشببوا بأم البنين فى مكة ؟

ويقول ابن الأثير إن الوليد خطب الناس فقال :ـ « أيها الناس عليكم

بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع العاصى ـ أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ـ ومن سكت مات بدائه ـ ثم نزل وكان جباراً عنيداً ،

وهذه الصفات لا تستقيم فى ملك يريد الزور والإفك أن يجعل منه ضعيفاً فاقد النخوة والرجولة ولا يعرف ما يجرى فى مخدع زوجته .

ومن الغريب حقاً أن يكون هذا الخليفة الذى يتهم فى عرضه دون أن يثور لشرفه فى غضب ما حق هو ذلك الرجل نفسه الذى أغضبه دخول المخنثين بالمدينة على النساء لفتنتهن فيامر عامله ابن حزم الأنصارى بأن يخصيهم جميعـــاً وفيهم الدلال ـ والغريض ـ وابن عائشة ومن إليهم ـ وأغضبه شذوذ الشاعر الأحوص الخلقى فأمر عامله بجلده مائة جلدة وَصَبَّ الزيت على رأسه ووضعه فى البُلُس (أى الغرائر الكبيرة)

وبعد كل ما تقدم يقال فى جرأة نادرة إنه كان من الضعف بحيث لم يقدر على صون بيته من أن تدبّ فيه قدم تدنس طهره ! !

ولم يكن الجبروت والقسوة والأخذ بالشدة كل صفاته إذ كان إلى جانب ذلك خليفة مصلحاً ـ بنى المســـاجد وأمر بإنشاء الطرق فى جميع أطراف إمبراطوريته وبحفر الآبار العديدة فى كل مكان ـ ومنع المجذومين من الخروج على الناس وأجرى عليهم الأرزاق ـ وفى عهده كان الوالى على بلاد المغرب موسى بن نصير وطارق بن زياد قائده ـ وقد أعطى كل مُقْعَد خادماً وكل ضرير قائداً وفتح الأندلس والهند .

وكان لحّانا لايحسن النحو دميا يتبختر فى مشيته سائل الأنف جداً ـ وهـذا النقص إذا اجتمعت عناصره فى رجل يملك السلطة المطلقة ضاعفت من الغيرة التى تلازم المحروم من جمال الخلقة وتجعله شديد الحرص على عرضه يثور فى وحشية تجرف كل شىء أمامها إذا خالجه أى ظل من الشك فى نقاء فراشه .

هذا هو الوليد بن عبد الملك الذى تقيم منه الدعاية العبـاسية وأبواقهـا من

المرتزقة والنفعيين والمنافقين خليفة خاملا خائر العزيمة فاقد النخوة تعشق زوجته وضّاح اليمن فيقنع بدفن أحد صناديقها انتقاما لعرضه المسلوب - وهو بما دون قبل ملك ذو شكيمة جبروتية وعزيمة لاتلين وغضب يمحو كل مايعترض سبيله إذا ثار وزمجر .

أما زوجته أم البنين فالتاريخ المأثور يقدمها لنا نقية صالحة فى إطار وقور يتفق ومالهـا من عظمة وطيب الأرومة وسامق النسب والحسب . فهى قوية العطف والشفقة تطلب العفو عن عبد الله بن قيس الرقيات من والد زوجها الخليفة عبد الملك بن مروان - وكانت ذات دالة كبيرة عليه فما زالت به حتى عفى عن الشاعر وحققت رجاء أبيها عبد العزيز بن مروان وعبد الله بن جعفر فى الشفاعة لهذا الشاعر - وبعد ذلك يفترى الرواة عليها ويقولون إن بن قيس الرقيات الذى أحسنت إليه ونجته من الموت - تحقيقاً لرجاء والدها - قد شبب بها وفضحها بقصيدته الآنفة الذكر - وكانت هذه السيدة الفاضلة - أخت الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وحفيدة عمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين الأربعة - محسنة سبّاقة لفعل الخير ساعية فى تحقيقه - فقد أدخلت الثريا بنت على بن عبد الله التى استخف بها عمر ابن أبى ربيعة وهى فى عنفوان شبابها وجمالها وكانت تضع الخواتم فى أصابعها العشرة فضربته بظاهر كفها فأصابت الخواتم ثنيتيه العليين وكادت تقلعها ولم يفلح علاجها واسودتا وعيّره الشعراء بها - والثريا هى زوجة سهيل الذى قيل فيه وفيها :

أيها المنكحُ الـثريا سهيلاً ... عمرَكَ الله كيفَ يلتقيـان
هى شـاميةٌ إذا مااستقلتْ ... وهو إذا مااستقلَّ يمـانى

أقول أدخلت المحسنة أم البنين الثريا هذه على زوجها وكانت قد كبرت وأعوزتها الحاجة ومازالت به حتى قضى حاجتها وأغدق عليها العطاء .

وسيدة هذا بعض ماتتحلى به من خصال حميدة لايعقل أنها تقدم فى رعونة وطيش على بيع شرفها الغالى دون مبالاة على النحو الذى وصفته الدعاية العباسية المغرضة .

ولعل من المفيد التنويه فى هذا المقام بالمقال الذى كتبه المستشرق « ليـفى

بروفنسال ، فى دائرة المعارف الإسلاميه عن بنى أمية لإثبات أن هذه الدعاية كانت قوية هدامة إلى أبعد مدى ـ فقد جاء بالمقال الآنف الذكر ـ « أنه إذا كانت التواريخ التى كتبت بعد سقوط دولتهم والتى كان أصحابها متأثرين بالآراء السائدة بين أهل التقى تقرن ذكر الأمويين بالسخط واللعنة ـ فينبغى ألاّ ننسى حقيقة لاريب فيها هى أن الإسلام إنما توطدت أركانه دينا تدين به الأمم فى أيام حكمهم وكان بعض ذلك بتأثيرهم ـ على أن التاريخ الذى تغلب عليه روح الدين والذى أصبح تاريخ الإسلام الرسمى فى عهد بنى العباس يعيب على الأمويين أشياء كثيرة حتى أنه يرميهم بالتقصير فى أداء الفرائض الدينية وأنهم نبذوا روح الدستور الإسلامى فى الحكم » .

ومامن شك فى أن واضعى قصة وضّاح اليمن وأم البنين من بين هؤلاء الذين تأثروا بذلك التاريخ الرسمى العباسى الذى يقرن اسم الأمويين بالسخط واللعنة ومن أعوانهم ذلك الزنديق الشعوبى مؤلف الكتاب الممقوت .

هذه هى قصة وضّاح اليمن مع أم البنين التى ظهر باطلها ظهوراً لايحتاج إلى أكثر مما تقدم من الإيضاح .

ولأعود الآن إلى مصاحبة شاعرنا فى جولاته الشعرية بعد أن حاولت قدر الاستطاعة ان أرد عليه اعتباره وأنقذ سمعته مما شابها من إفك ظالم بالنسبة إلى خليفة مدحه فأثابه ثم حمل إليه بالشام فكرر المدح فأحسن رفده وأجزل صلته .

ولم يكن الوضّاح مجهولا فى عصره من الفنيين شأنه فى ذلك شأن النابهين من الشعراء ـ فقد غنى بشعره ابن محرز وابن عباد وابن سريج وحكم الوادى وهم من مشاهير المغنيين العرب فى ذلك الحين .

وفيما يلى أنموذج من شعره الغزلى الرقيق الذى يسرى من السمع إلى أعماق الوجدان فيغمره حنيناً عذباً :

يالَقومى لكثرةِ العذّال ... ولطيفٍ سرى مليحَ الدَلالِ
زائرٌ فى قصورِ صنعاءَ يَسرى ... كلَّ أرضٍ مخوفةٍ وجبالِ

يقطعُ الحَـزْنَ والمهامِةَ والبيــدَ من دونه ثمـانُ ليالِ
عاتبٌ فى المنامِ أحْبِبْ بعُتْبا هُ إلينا وقوله من مقالِ
قلتُ أهلاً ومرحباً عَدَدَ القَطْـرِ وسهلاً بطيفِ هذا الخيالِ
حبذا مَنْ إذا خلونا نجيًّا قالَ : أهلى لكَ الفـداءَ ومالى
وَهْىَ الهَمّ والمنى وَهَوى النَفْـسِ إذا اعتلّ ذو هَوى باعتلالِ
قِسْتُ ماكانَ قبلنا من هوى النـاسِ فما قستُ حُبَّها بمثالِ
لم أجدْ حُبَّها يشاكلُهُ الحـبُّ ولا وَجْدنا كوجدِ الرجالِ
لم يزدْهُ تَقَادُمُ العهدِ إلاَّ جِدَّةً عندنا وحسنَ احتلالَ
أيها العاذِلُون كيفُ عتابى بعدَ ماشابَ مَفْرَقى وَقَذالى
كيفَ عَذْلى على التى هِىَ مِنّى بمكانِ اليمينِ أخْتِ الشمالِ

هذا أنموذج حلو الجرس عذب الرنين فى أذن السامعين يضفى على شعر الوضّاح فى هذا اللون من القريض أبهى حلل البهجة الروحية التى يلتذ لها الوجدان ويهتز لها القلب طربا لما احتوته من انغام شجية ومعان جزلة رقيقة .

وإذا طرق الوضّاح سبيل الرثاء أتقن الصياغة فى حزن صادق يحفه الورع الصادر عن فؤاد عامر بالإيمان الذى لا ينفق وحياته التى تضم أكثر من ناحية من نواحى اللهو والخلاعة ـ فيقول فى رثاء أبيه :

أرَاعَكَ طائرٌ بعــدَ الخُفُوقِ
بِفَاجِعَةٍ مُشَنَّعَةِ الطّروقِ
كأنّى إذْ علمتُ بها هُدُوًّا
هَوَتْ بى عاصِفٌ من رأسِ نِيقِ
أعَلّ بزفْرَةٍ من بعــد أخرى
لهــا فى القلبِ حَرٌّ كالحريقِ

وَتَرْدُفُ عبرةٌ تَهتَانَ أخرى
كفائضِ غربِ نضّاحٍ فتيقِ

كأنّى إذْ أكفكِفُ دَمْعَ عينى
وأنهاهَا أقُولُ لهـا هَرِيقى

. . .

سأصبِرُ للقضـاءِ فكلُّ حىٍّ
سيَلْقَى سكرةَ الموتِ المَذُوقِ

فما الدنيا بقـائمةٍ وفيهـا
من الأحياءِ ذو عيْنٍ رَمُوقِ

وللأحياءِ أيـامٌ تَقَضّى
يَلُفُّ ختامُها سـوقاً بسوقِ

فأغنَاهُم كأعْدَمِهِم إذَا ما
تقضَّتْ مُدَّةُ العيشِ الرقيـقِ

. . .

ودنيَـاكَ التى أمْسَيْتَ فيهـا
مُزَايِلَةُ الشقيقَ عن الشقيقِ

وإذا عمد شاعرنا إلى المدح مهد له بالغزل اللطيف على غرار مايفعل جميع شعراء عصره ـ فيناجى حبيبته ويصف جمالها وحسنها ثم يعرج على الخيل فيسرد عَدْوَها الشديد ومن ثمَّ يتطرق إلى الممدوح ليخصه بالثناء والكرم وما إلى ذلك من الخصال الكريمة ـ وفى القصيدة التالية مايدل على براعته فى الديباجة الغزلية والذوق الفنى السليم فى تنميقها :

صبا قلـبى ومالَ إليكِ ميـلا
وأرقنى خيـالكِ ياأثيـلا

مهفهفة تـــــلمُّ بنا فتبـــــدى
دقيقَ محاسنٍ وتُكنُّ غيــلا
دعينا ماأممت بنـــاتِ نعشٍ
من الطيفِ الذى ينتـــابُ ليلا
ولكـِنْ إنْ أردتِ فَصَبِّحينَا
إذا أَمّتْ ركائبُنَـــا سُهَيْــلاَ
فإنّكِ لوْ رأيتِ الخيــلَ تَعْدُو
سِرَاعاً يتّخِذْنَ النقــعَ ذَيْلاَ
إذاً لرأيتِ فَوقَ الخيلِ أسْداً
تُفيدُ مَغَانِما وتُفيتُ نَيْلاَ

. .
.

إذَا سارَ الوليدُ بنا وَسِرْنَا
إلى خيــلٍ تَلُفُّ بِهِنَّ خَيْــلاَ
وَنَدْخُلُ بالسرور ديَارَ قومٍ
وَنَعْقُبُ آخرينَ أذى وَوَيْلا

وشاعرنا قد يسف كغيره من الشعراء على اختلاف طبقاتهم وعصورهم فنجد بين قصائده الشعر الخليع والمتكلف الذى يحاول فيه نوعا من القصص القصير — ومن النوع الأول قوله

أبَى القلبُ اليَمَانى الـــذى تُحْمَدُ أخْــلاَقُهْ
وَيرفَضُ لَهُ اللَّحْنُ فمـــا تُفْتَقُ أرْتَاقُهْ
غَزَالٌ أدْعَجُ العَيْنِ رَبِيْبُ خَدَلَّجُ سَاقُهْ
رَمَانى فَسَبَى قَلْبِي وَأَرْميهِ فأشْتَاقُهْ

وقد غنى إسحق الموصلى هذه الأبيات الخليفة المعتصم - وقد رجع من الصيد - فطرب له وشرب على هذا اللحن بقية يومه .

ومن النوع الثانى قصيدته التى تشبه إلى حد بعيد أغنية شعبية كانت تغنى فى الأفراح وليالى السمر التى تقيمها الأسر فى بيوتها وترددها الفتيات والنساء وذلك فى مستهل القرن العشرين - ولعلها تغنى حتى الآن فى بعض المدن والقرى بالقطر المصرى - وكان مطلع هذه الأغنية الشعبية المصرية يقول للحبيب المتردد فى زيارة حبيبته خلسة دون أن يشعر به أهلها - « إن كنت خايف من أمى . أمى علىَّ ستارة » - « وأن كنت خايف من أبويا - أبويا نايم فى الحارة » - وقصيدة الوضاح فى هذا المعنى :

يَارَوضُ جيرانكم الباكرُ
فالقلبُ لالاهٍ ولاَ صَابِرُ
قالتْ ألاَ لاتلِجَنْ دارَنَا
إنَّ أبانَا رَجُلٌ غَائِرُ
قُلتُ فإنىِّ طَالِبٌ غِرَّةً
مِنْهُ وَسَيْفِى صَارِمٌ بَاتِرُ
قالت فإنَّ القَصْرَ مِنْ دُونِنا
قلتُ فإنىَّ فَوْقَهُ ظَاهِرُ
قالتْ فإنَّ البحر من دُونِنَا
قلتُ فإنىَّ سَابحٌ مَاهِرُ
قالتْ فحولى إخْوَةٌ سبعةٌ
قلتُ فإنىَّ غالبٌ قَاهِرُ
قالتْ فلَيثٌ رابِضٌ بَيْنَنَا
قُلتُ فإنىَّ أسَدٌ عَاقِرُ

قالتْ فإنَّ اللهَ من فَوْقِنا
قلتُ فربي راحمٌ غافرُ
قالتْ لقد أعييتنا حُجَّةً
فأتِ إذا ماهجَعَ السامرُ
فاسقُطْ علينا كسُقُوطِ الندَى
لَيْلَةَ لاناهٍ ولاَ زاجر

هذا هو وضَّاح اليمن فى حياته الخاصة وفى حياته الفنية وفى الحديث المتقدم ماقد يكون قد وَفَّى هاتين الناحيتين مايستحقان من شرح وتفصيل .

٣ — عائشة بنت طلحة

ومدام دى رامبوييه Mme de Rambouillet

ليس من شك فى أن أدب الندوات « أوأدب الصالونات » كما يدعى فى الأدب الحديث قد أسهم بنصيب ملحوظ فى تهذيب اللغات الحية وتنقيتها من الشوائب اللفظية والارتفاع بما كان يجرى فى هــــذه الندوات من مناقشات وأحاديث إلى المستوى الرفيع المنزّه عن الإسفاف والنزعات الجنونية مما كان له أطيب الأثر فى رقى التفكير الأدبى على مر القرون الماضية .

ولقد وجدت فيما وقفت عليه من مؤلفات أن السيدة عائشة بنت طلحة والسيدة « كاترين دى رامبوييه Catherine de Rambouillet » تشبه إحدهما الأخرى فى نزعتها الأدبية وافتتانها بالثقافة الراقية التى ترتكز على الفن الأصيل النابع من الوجدان الزاخر بالأحاسيس النفسية والعواطف القلبية الصادقة ـ فكان لكل منهما فضل لاينكر فى صيانة عدد كبير من اتجاهات الأدبين العربى والفرنسى من أن يشوب تراثها الثقافى الإسفاف وعوامل الانحلال الضارة .

وقبل أن أتناول بالتحليل والشرح عناصر التشابه فى حيـــاة هاتين السيدتين الأدبية وما قامتا به من أعمال فى سبيل تنقية الأدب بتوجيه العنـاية الحادية إلى أدباء وشعراء عصريها أجد من الملائم أن يحيط المطلع على هذا البحث علما بنبذة تاريخية مركزة توضح سلوك كل منهما فى الحياة التى مارستها مع تبيان بعض نواحى البيئة التى عاشت فى كنفها ثم تأثيرهما فى الأدب العربى والفرنسى .

فعائشة تمت بالنسب إلى أسرة من أكرم الأسر العربية فى صدر الأسلام ـ فأبوها طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة ويكنى بأبى محمد نسبة إلى ولده البكر ـ وهو من أشراف قريش وقد اشتهر بورعه وكان من أوائل القراء ومن الصحابة الذين بشرهم رسول الله عليه الصلاة والسلام

بالجنة ومن السابقين الأولين إلى الإسلام ـ وابتلى هو وأبو بكر الصديق بتهديدات قريش وسوء معاملتهم لها ـ وهاجر مع النبي وكان من أصحاب مشورته ومن أصدق أصدقائه ـ وكان رسول الله قد أنفذه قبيل وقعة بدر ليرصد حركات القافلة المكّيّة فعجز عن العودة لدى نشوبها ومن ثمّ لم يسهم فيها بشأن ذى بال ـ غير أنه اشترك فى الغنيمة مع سائر المهاجرين ثم أبلى فى وقعة أحُد أحسن البلاء وامتاز فيها بشجاعته وبسالته الفذة إذ حمى بجسمه النبي عند تراجع المسلمين فأصيب بعدة جراح وقطعت أوتار إصبعين من أصابعه فشلتها عن الحركة ـ وقد أكسبه حسن بلائه هيبة فى أيام النبي وبعد وفاته وجعل له مكانة رفيعة فى قلوب المسلمين .

واستطاع طلحة أن يجمع ثروة طائلة من الفتوح الإسلامية فامتلك الضياع الشاسعة فى جزيرة العرب وفى العراق علاوة على الأملاك العينية الأخرى ـ ويدل تاريخ سيرته على أنه كان من بين المرشحين للخلافة ـ وعقب مقتل عثمان بن عفّان ظن طلحة أن الخلافة أضحت سهلة المنال ولكن علياً بن أبى طالب بويع بها فبادر طلحة إلى الاعتراف به ـ غير أنه ما لبث أن غادر المدينة إلى مكة حيث انضم هو والزبير إلى السيدة عائشة أم المؤمنين ثم شخص الثلاثة إلى البصرة ووجدوا فيها أنصارا عقب إعلانهم أنهم يرغبون فى الأخذ بثأر عثمان من على بن أبى طالب .

وفى وقعة الجمل المشهورة قتل طلحة وابنه محمد وقتل الزبير ـ ولم يَشْقَ آل طلحة بفقد عميدهم إذ آلت إليهم ثروته الضخمة وظلوا محتفظين بجاههم العريض الوارف ـ وكان منهم كثير من المحدثين إلى جانب السيدة عائشة التى نحن بصدد التحدث عن سيرتها وأثرها فى الأدب العربى .

ويتضح من أقوال الرواة أن طلحة كان مقاتلا شهما يتسم بنبل الخلق والكرم وكان يمارس التجارة فى جاهليته فجمع من أرباحها مالا وفيرا ـ ومن ثمّ استطاع شراء جميع أسهم خيبر من الذين أسهموا فى فتحها مع رسول الله ومن ورثتهم ـ ولما فتح عثمان بن عفّان باب بيع وشراء تلك الأسهم باع طلحة كل ما يملك منها لمن

أسهموا فى فتح العراق من الحجازيين وذلك فى مقابلة شرائه ما يملكون هناك وضم إلى ذلك ما استطاع شراءه من الأراضى التى يمتلكها الحجازيون فى العراق . وهكذا صار من أصحاب الملكيات العريضة والإقطاعات الشاسعة فى القطر العراقى علاوة على أملاكه فى الجزيرة العربية وأصبح الناس فى الحجاز وفى العراق يتحدثون عن ماله الكثير وجـــوده السابغ وبِرّه بذوى قرباه من تَيْم وذوى صداقته ومودته من القرشيين والأنصار ويلهجون بكرمه وإحسانه لمن يحتاجون لمعونته ثم يتحدثون عن زوجاته وما يحظين به من رفاهية ودعة وترف ونعيم مخضر الجوانب فيذكرون هذه الزوجات الثلاث وهن سعدى بنت عوف المرية ـ وأم أبان بنت عتبة بن ربيعة ـ وأم كلثوم بنت أبى بكر الصديق شقيقة السيدة عائشة أم المؤمنين ووالدة عائشة بنت طلحة التى بهرت أهل عصرها بجمالها وأبهتها وافتتانها بالشعر والشعراء ومعرفتها الواسعة الأفق بما دبجت أقلامهم من قصائد ولاسيما الغزلية منها .

ولما كان الرواة يجمعون على أن عائشه الجميلة الفاتنة قد فقدت والدها طلحة ولمّا تزل فى سن الطفولة الغضة التى لا تعى من أمور الحياة إلا القليل الغامض ـ ولمّا كان مقتل طلحة والدها قد حدث فى شهر جمادى الآخرة عام ٣٦ هـ (٦٥٦م) فإن ميلادها يكون فى عام ٢٩ أو ٣٠ هـ (٦٤٩ - ٦٥٠م) بفرض أن عمرها كان ست سنوات أو خمسا يوم أن قتل طلحة فى وقعة الجمل المشئومة فى تاريخ الأمة العربية .

ويقينى هـــو أن الوقت قد حان للتعرف على شخصية الفاتنة عائشة فى ثنايا التاريخ . فأول ما يطالعنا الرواة به من أخبارها يتناول سبب تسميتها فى أسطورة طريفة تزعم أن أباها علم بمولدها لدى عودته من رحلة قضاها فى العراق وأخذ يستعرض الأسماء ليختار لها اسما جميلا يلائم بهاءها الوضّاح وهى ترقد فى مهدها بجانب أمها ـ ولـكن أم كلثوم تقطع عليه تفكيره وتصرم حبل اختياره وتقترح عليه أن يطلق عليها اسم خالتهـا عائشه أم المؤمنين فوافق طلحة على هذا الاقتراح

وقال : لعلّها تصير بعد نضجها مثل عائشة فى رجاحة العقل ونفاذ البصيرة وحدّة الذكاء لتمتاز بهذه الصفات الرفيعة على سائر النساء . وهكذا أدرجت عائشة بنت طلحة فى سجل الأحيـــاء تحمل اسم خالتهـا زوجة رسول الله عليه السلام . ولم يخطىء والدها فى فراسته بالنسبة إلى المولودة الجميلة فكأنه كان يطلع على ماقدر لها فى عالم الغيب وما منحها الله فى أزليته من مواهب لامعة . فصارت عندما كملت أنوثتها وتفتحت أحاسيسها واتسعت آفاق ذكائها أشبه الناس بأم المؤمنين فيما تمناه لها أبوها وهى فى المهد.

وقطعت عائشة الفاتنة أعوام طفولتها وسنى المراهقة فى كنف أهلها وفى ظل رعايتهم الرحيمة تنعم بالترف والدعة والرخاء بين أترابها وهى راضيـــة بعيشتها قريرة العين بما يحيط بحياتها من ثراء وجاه ورغد إلى أن فقدت والدتها فحزنت ثم عادت تزاول حياة المرح والبهجة المدللة .

ولم يحدثنا التاريخ المأثور عن مراحل ثقافتها أو نشأتها التعليمية . غير أن ما ذكر عنها فى بعض المراجع التاريخية يدل على أنهـا كانت على قسط وافر من التثقيف. فقد وصفها صاحب كتاب الأعلام ـ لخير الدين بن الزركلى ـ بأنها كانت « أديبة عالمة بأخبار العرب فصيحة اللسان» وقال عنها المستشرق « ك. ف. زيترستين Zettersteen» فى دائرة المعارف الإسلامية إنها كانت «من شهيرات نساء الإسلام . وكانت تتصف بكل الصفات التى كان يعدها أغلب العرب من الصفات البارزة عند المرأة العربية وعلاوة على جمالها الرائع وانتسابها إلى أسرة عريقة فى المجد والحسب كانت على خلق نبيل فخورة بنفسها وبنسبها مما كان يحبه العرب فى نسائهم . وبكل هذه الصفات لايستغرب أن تكون هذه السيدة الجميلة إحدى شهيرات نساء العرب فى زمانها » .

وذكرها المرحوم الأستاذ عبد الله عفيفى فى الجزء الثالث من كتابه « المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها» فقال : كانت عائشة بنت طلحة من السيدات الناقدات إذ كانت حكمَ الشعراء الذى يُقدَّرُ حكمُهُ حق تقدير ولايغيلُ رأيُهُ ولاتبدو

منزلتُه . وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب وكلهم قد عقد يده على خير ما قال وليس بينهم إلاّ من كان حديثه طوال طريقه عما عسى للسيدة أن تقول وتحكم به لأنه سيكون بين المتأدبين وبُغاة الشعر يقينا لاشك فيه » .

«وكانت تجتمع بالمغنين والشعراء والرواة والأدباء وذوى الرأى والسناء فتحدث كلًّا بما عنى به وخُلِقَ له حتى لاتدع له مجالا يقول فيه »

ويروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » أنه كان بينها وبين زوجها الثالث عمر بن عبيد الله بن معمر مساجلة وكلام فى شتى نواحى المعرفة فسهرت ليلة ثم قالت : إن عمر بن أبى ربيعة لجاهل بليلتى هذه حيث يقول :

وإلٍ كفاها كلَّ شىءٍ يهمُّها فليسَ لشىءٍ آخِرَ الليل تَسهرُ

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على سعة أفق معرفتها وغزارة علمها مما مكنها من المساجلة والمناقشة إلى ساعة متأخرة من الليل دون أن تمل أو يمل زوجها من حديثها الشهى المفيد .

ولما تأيمت بعد زواجها من عمر بن عبيد الله كانت تقيم سنة بمكة وسنة بالمدينة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتتنزه فيه وتجلس بالعشيات فيتناضل بين يديها الرماة والشعراء ـ فمر بها النميرى الشاعر فأقسمت عليه أن يقول شعرا فى إبنة عمه زينب التى أحبها فأنشدها قوله :

تضوعُ مسكاً بطنُ نعمانَ إذْ مشتْ
به زَيْنَبٌ فى نسوةٍ خفِراتِ
تَهادَيْنَ مابْينَ المحُصَّبِ من منىً
وأقبلْنَ لاشُعْثاً ولا غَبِرات
يُخَبِّئْنَ أطرافَ البنانِ منَ التُقَى
ويَقْتُلْنَ بالألحاظِ مُقْتَدِرات

إلى أن قال :

فكِدتُ اشتياقاً نحوها وصَبابةً
تقطّعُ نفسى إثرها حسَرات
فراجعتُ نفسى والحفيظة بعدما
بللتُ رداءَ العصْب بالعَبَراتِ

فقالت والله ما قلت إلاّ جميلا ولا ذكرت إلاّ كرما وطيبا ولا وصفت إلاّ دينا وتقى ـ وأمرت له بعطاء جزيل ـ وهذا يدل على حسن تقديرها للشعر الفنى العذب البعيد عن الإسفاف أو المجون وتوخى الشعراء القول العف فى حضرتها .

وقد وفدت على هشام بن عبد الملك إبان خلافته تطالب حقا . وبادرته بهذه الجملة التى تنطق بالعبرة وتعمق المعنى على قصر ألفاظها . « حبستْ السماءُ المطرَ ومنعَ السلطانُ الحق » . فقال فإنى أبُلُّ رَحِمك وأعرِفُ حقك : ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية : إن عائشة عندى فاسمروا عندى الليلة فحضروا . فما تذكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلاّ أفاضت معهم فيه . وما طلع نجم ولا غار إلاّ سمته : فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره . وأما النجوم فمن أين لك . قالت . أخذتها عن خالتى عائشة .

وهذا برهان آخر على سعة علمها وعميق ثقافتها ونضوج فكرها وقوة حافظتها وغزارة اطلاعها .

ويقول حمّاد الراوية فى وصفها « إنه لم يكن لها شبه فى زمانها حسنا ودماثةً وجمالا وهيبةً ومتانةً وعفةً » .

ولم يقصر الرواة فى إطراء جمالها وبهجة منظرها وتفاصيل كيانها الجسمانى ـ فقالوا على لسان عزّة الميلاء وقد كانت من أهل المدينة عذبة الصوت مشرقة الوجه جمة النشاط تتنقل بين بيوت الأشراف فتشجى أهلها بغنائها الجميل ووجهها الحلو

وسمرها الخلاب ـ وكانت نسوة هذه البيوت وفتيانها ورجالها يأنسون إليهـــا ويطربون لأغانيها ويجدون المتعة فى الجلوس إليها بما كانت تتحفهم به من الأغانى والأحاديث الرقيقة الشيقة فى خفة روح وطلاقة لسان .

فعزّة هـــذه برجوها مصعب بن الزبير بن العوام أن تذهب إلى دار عائشة لتراها متجردة من ثيابها لتعود فتصفها إليه وقد عزم على الزواج منها بعد أن مات زوجها الأول عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ـ فذهبت عزّة الميلاء إلى عائشة واحتالت عليها فتجردت من ثيابها ثم رجعت إلى مصعب قائلة : هى ممدودة المتنين ـ أى جنبتى الظهر ـ عظيمة العجيزة ممتلئة الترائب ـ أى موضع القلادة ـ نقية الثغر وصفحة الوجه ـ فرعاء الشعر ـ لفّاءُ الفخذين ممتلئة الصدر ـ خميصة البطن ـ أى ضامرتها ـ ذات عكن ـ أى لها طيات فى البطن ـ ضخمة السرة ـ مُسَرْوَلة الساق ـ يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها ـ وفيها عيبان هما عظم القدم والأذن .

وهـذا الوصف الشيق يطابق نزوع الرجال فى صدر الإسلام إلى الضخامة فى المرأة وكبر حجمها الـكيانى ـ فالجمال عندهؤلاء الأقدمين كان يتمثل فى امتلاء أجسام النساء باللحم والشحم ـ ونجد ذلك ماثلا فى وصف كثير من السيدات والفتيـات التى تغنى الشعراء بهن فى أحسن ما نظموا من قصائد غزلية ـ واستمر معيار الجمال النسائى على هذا الوصف عبر القرون اللاحقة ـ ومازال كذلك فى كثير من البيئات الحالية التى لاتجد فى رشاقة الأجسام وسمهرية القامة ما يسر الناظرين .

أما جمال وجـه عائشة فقـد أيدته أكثر من رواية ـ فصاحب الأغانى يقول إنها نازعت زوجها يوما إلى أبى هريرة الصحابى فوقع خمَارُها عن وجهها فقال أبو هريرة : سبحان الله ! ما أحسن ما غذّاك أهلك ! لـكأنما خرجت من الجنـة والله مارأيت شيئا أحسن منك إلاّ معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله ـ فقالت : واللّهِ لأنَا أحسنُ من النار فى الليلة القَرّة فى عين المقرور .

ويذكر صاحب الاغانى عن رواة آخرين أنهـا كانت برزة لاتستر وجهها من أحد فعاتبها زوجها مصعب فى ذلك فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم

جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم ـ فما كنت لأستره ـ ووالله ما فيّ وصمة يَقْدِرُ أن يذكرني بها أحد .

وكان مصعب يباهي بجمالها ويحب أن يسمع إطراءه على الألسن . وقد ذهب في ذلك إلى أبعد الحدود ـ فقد اصطحب المحدث الشهير الشعبي إلى دار موسى بن طلحة شقيق عائشة وأجلسه في قاعة الاستقبال ثم رفع السجف عنه وهو يجلس بجانب زوجته عائشة ـ ويقول الشعبي في هذا المنظر البهيج أنه لم ير زوجا قط أجمل منهما ـ وفي المساء لتي مصعب الشعبي في المسجد فقال له : أتدري لم أدخلناك لترى ما رأيت قال لا . قال : لتحدث بما رأيت .

وإن دل هذا الخبر على شيء فإنما يدل على عجب مصعب بجمال زوجته ورغبته في أن يتحدث الركبان بهذا الجمال البارع .

وما أظن الحارث بن خالد الشاعر الذى أحب عائشة ولم يحظ بزواجها . ما أظنه قد غالى في القول حين نظم فيها الأبيات الآتية عندما رحلت إلى العراق مع زوجها الأمير مصعب بن الزبير وكانت هذه الأبيات قد سبقتها إلى هناك فيغنيها الحجازيون والعراقيون جميعاً :

ظعَنَ الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ
وَغَدَا بِلُبِّكَ مَطْلَعَ الشَرْقِ
في البيتِ ذي الحسبِ الرفيعِ وفي
أهْلِ التُقَى والبرِّ والصِدْقِ
قرشيةٌ عَبْقُ العبيرِ بها
عَبْقُ الدهانِ بجانبِ الحُقِّ
بيضاء مِنْ تَيْمٍ كلِفْتُ بها
هذا الجنونُ وليسَ بالعشقِ

وتَنُوءُ تُثْقِلُها عَجيزَتُهــــا
نَهْضَ الضعيفِ يَنُوءُ بالوسقِ
ماصَبَّحَتْ أحداً برؤيتهـــا
إلاّ غدَا بكواكبِ الطَلْقِ

وفى هذه الأبيات مايوضح جمال محياها وعظم جسدها وعذوبة حديثها وبشر وجهها عند الصباح ـ وهى ملامح لم تغضب عائشة لسماعها تردد على ألسنة الناس عند وصولها إلى العراق ويتغنى بها المغنون ـ فقد قالت معقبة عليها: والله ماذكر الحارث إلا جميلا ـ ذكر أنى إذا صَبَّحْتُ زوجا بوجهى غدا بكواكب الطلق ـ وأنى غدوت مع أمير تزوجنى إلى الشرق ـ وأننى كالطيب فى عبيقه .

والحارث بن خالد هو أحد شعراء قريش المعدودين ـ كان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة فى الغزل ولا يتجاوزه إلى المديح أو الهجاء ـ وكان يهوى عائشة ويشبب بها ـ وقد ولاّه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان مكة وكان ذا قدر وخطر وحسن منظر فى قريش ـ فحجّت عائشة عام ولايته وانتهزت فرصة الليل فأقبلت تطوف وبينما هى تسعى حول البيت الحرام أخذ المؤذنون يقيمون الصلاة وأخذ الناس يستعدون لأداء الفريضة ـ وإذا إحدى جوارى عائشة تقبل على الحارث ـ وقد وقف يؤم المصلين ـ وتسرّ له أن سيدتها لم تتم الطواف وأنها ترجوه أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها ـ فلم يكن من الحارث إلا أن أمر المؤمنين بالكف عن إقامة الصلاة وأسرع إلى الجلوس حتى علم بأنها أتمت السعى حول البيت ـ وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله الخليفة عبدالملك وكتب إليه يؤنبه على هذه الفعلة المنكرة فقال : ماأهون والله غضبه إذا رضيت عائشة ـ والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الفجر لأخرت الصلاة طوال الليل ـ وفى ذلك يقول الحارث بن خالد :

لم أرحب بأن سخطت ، ولكن
مرحباً إنْ رَضيتَ عنّا وَسَهْلاَ

جَعَلَ اللهُ كلَّ أنثى فـداءً
لكِ ، بل خدَّها لرجلكِ نَعْلاَ
وَجْهُكِ البدرُ ، لو سألته به المز
ن ، من الحسنِ والجمالِ استَهَلاَّ
إنَّ عِنْدَ الطوافِ حينَ أتَتْهُ
لجـالاً فعْماً وخلقاً رِفَـلاَّ

والجمال الفعم هو الجمال الباهر الرائع والرِفَلُّ هو الفيَّاض الواسع .

وفى ثنايا المصنفات التى تعرضت لسيرتها عدد من العبارات التى تدل على أنها كانت متوقدة الذكاء سريعة البديهة ـ فقد لقيها عمر بن أبى ربيعة بمكة على بغلة فألقى عليها البيت التالى :

يا ربةَ البغلةِ الشهباء هل لكِ فى أن تنشرى ميتاً لاترهتى حرجا

فبادرته بقولها فى استخفاف ظاهر : « لا ورب الكعبة ماعنيتنا طرفة عين قط » ـ ثم صاحت فى بغلتها « عَدَس » وسارت دون أن تلتفت إليه .

وقد أكمل عمر قصيدته فى هذا الحادث فصارت كالآتى :

يارَبَّةَ البغلةِ الشهباء هل لكِ فى
أنْ تُنْشرى مَيِّتاً لاتَرهقى حَرَجَا
قالتْ بدائكَ مُتْ أو عِشْ نُعَالجهُ
فإن تُـقِدْنا فقد عَنَّيْتَنا حِجَجَا
حتى لو اسْطِيعُ مما قد فعلتَ بِنَا
أكلْتُ لحمكَ من غيظٍ وماتَضَجَا
فقلتُ لا والذى حجَّ الحجيجُ له
مامَجَّ حُبُّكِ من قلبى ولا نَهَجَا

ولا أرَى القلبَ مِنْ شيءٍ يُسَرُّ بِهِ
مُذْ بَانَ منزلُكمْ منّا ولا ثَلَجَا
ضَنَّتْ بِنَائِلِها عنهُ فقدْ تركتْ
في غيرِ ذَنْبٍ أبا الخطّابِ مُخْتَلَجَا

وحكايتها مع زوجها الثالث عمر بن عبيد الله بن معمر تدل على هـذا الذكاء السريع الخاطر ـ فقد تزوجت عمر هذا ومعه زوجته الأولى (رملة) بنت عبدالله ابن خلف التي كانت جهمة الوجه (أى غليظته فى سماجة) عظيمة الأنف ـ وفى ذات يوم أخذ عمر يصف لعائشة محاربته الخوارج وقتله أبى فُدَيْك زعيمهم ويقول أنه فعل كذا وكذا من الأعمال المجيدة فى الحرب ويذكر شجاعته وإقدامه فى إسهاب وكبرياء ـ فقالت عائشة : أنا أعلم أنك من أشجع الناس ـ وأعرف لك يوما هو أعظم من اليوم الذى ذكرته ـ قال : وماهو ؟ قالت يوم اجتليت رملة وأقدمت على وجهها وأنفها !! ـ فغضب عمر لهذه الإهانة وأغلظ لها القول وعاملها فى قسوة لم تعهدها من قبل .

ويجمع الرواة على أن هذه الفاتنة التى بهرت الشعراء وحتّى الفقهاء بجمالها وبهاء طلعتها وظرف حديثها كانت على شيء غير قليل من شراسة الأخلاق مثلها فى ذلك مثل نساء بنى تيم اللائى اشتهرن بأنهن من أشرس نساء العرب فى ذلك الزمان ومن أكثرهن حظا عند أزواجهن ـ ولقد كانت أختها أم إسحق بنت طلحة عند الحسين بن على فكان يقول : والله لربما حملت أم إسحق ووضعت وهى مصارمة لى لاتكلمنى .

وقبل أن نتعقب عائشة فى مراحل صباها وشبابها ونتعرف على قصص زواجها المتكرر يحسن التعرف على الحقبة الزمنية التى عاشتها هذه السيدة لنستخلص منها طريقة سلوكها فى الحياة تحت تأثير عوامل البيئة التى اكتنفتها طوال السنوات التى قطعتها فى قيد العالم الدنيوى وتفرغها للأدب والأدباء .

فالتاريخ يحدثنا عن تلك الحقبة فيصفها فى الحجاز بفترة لهو وعبث وترف ويرجع أسباب كل ذلك إلى أن الحجاز كان يضم فى ذلك الحين أرستقراطية العرب وهم العنصر الفاتح ـ وقد نال هؤلاء الأرستقراطيون المترفون أحسن الجوارى وأرفعهن نسبا وأكثرهم تأدبا ـ ومنهن من نشأن فى بيوت الأمراء والملوك وتأدبن بآداب الحضارة فنقلن ذلك إلى الحجاز وصبغته بالصبغة العربية ـ ومن ثمّ كان لهن أكبر الفضل فى تأسيس مدارس الغناء فى شبه الجزيرة العربية .

وذلك التغير الحضارى طبيعى فى الأمم التى تنتقل من البداوة إلى الحضارة ولاسيما إذا كان ذلك الانتقال فجأة بسبب الفتوح التى تعود على الفاتحين بالغنائم الكثيرة والسبايا الهائلة العدد ـ وكانت السبايا فى صدر الإسلام كثيرات وكان عدد كبير منهن روميات وفارسيات ـ فكان الفاتحون يبيعون بعضهن ويستخدمون معظمهن فى الشئون المنزلية ويستبقون الحسناوات منهن للتسرى ـ فتحركت إثر ذلك القلوب واستيقظت القرائح للمواضيع الغزليةوأخذ الشعراء يشببون بالنساء الجميلات .

وكان الخلفاء الراشدون الأربعة ـ أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ـ يعدون ذلك خروجا على حرمة الأدب فجعلوا التشبيب بالنساء ذنبا يستوجب القصاص ـ وكان عمر بن الخطاب لايسمع بشاعر يشبب بامرأة إلا جلده .

فلما تبوأ الأمويون عرش الخلافة وحصروها فيهم بل فى بيت من بيوتهم ونقلوا عاصمة ملكهم من المدينة إلى دمشق وكثر الاختلاط بالأعاجم وأخذ العرب بأسباب الحضارة وذهبت هيبة العفة من نفوسهم وانتهت شدة الخلفاء الراشدين فى المحافظة عليها هان عليهم التشبيب فأكثروا منه ولاسيما فى المدينة لأن أهلها من أسبق المسلمين إلى اللهو بسبب وجود أشراف القرشيين وأبناء الصحابة بينهم ـ وقد أغدق معاوية عليهم العطايا والرواتب ليشغلهم باللهو والترف والعبث عن التطلع للملك ـ فكانوا ينفقون الأموال الطائلة على مجالس الشراب والغناء ويمنحون المغنين أجزل المنح ويهبون أهل اللهو والشعراء الغزليين والماجنين العطايا الثمينة

ومن ثمّ شاعت مجالات اللهو والمرح والغناء البرئ والماجن بالمدينة ـ فكانت أسبق المدن الإسلامية فى هذه المجالات وانتشر القصف بين أهلها وتمادى الشعراء الغزليون فى التشبيب بأحبائهم وبالحرائر من السيدات فى غير حرج أو تحفظ .

وقد سن جميل بن معمر سنة التشبيب بالمرأة مع ذكر اسمها وسار على نهجه كثير من الشعراء وتمادوا فى ذلك لدرجة أنهم لم يتورعوا عن التشبيب بكريمات السيدات ولو كنّ من بيوت الأمراء والخلفاء ـ وكان أجرأ الشعراء فى هذا اللون من القريض شعراء قريش لما لهم من عصبية تحميهم من بطش هؤلاء الأمراء والخلفاء للتشبيب بنسائهم ـ ويدلنا تاريخ الأدب العربى على أن أول من تجرأ على التشبيب من شعراء قريش كان ابن عتيق أحد أحفاد أبى بكر الصديق ويقول الرواة إنه كان طاهر النفس يتشبب عن غير ريبة فلا يجرح شعور النساء ولا يخدش شرف رجالهن ـ ثم تبعه فى هذا المضمار عمر بن أبى ربيعة وتلميذه العرجى وغيرهما من الشعراء الغزليين ثم تجرأ الشعراء من غير القرشيين على الاقتداء بهم حتى شـــاع التشبيب وانتشر فى أرجاء العالم العربى القديم .

وذهب شعراء التشبيب إلى أبعد الحدود فيما كانوا ينظمون من شعر حتى أخذ بعضهم يشبب بالمرأة ليفضح زوجها أو ابنها أو أحد أفراد أسرتها فينال من شرفهم وسمعتهم بغية الحصول على المال أو بعامل الضغينة السافلة والانتقام الحقير .

ولقد ضيق خلفاء بنى أمية الخناق على من عداهم من بطون قريش وحجروا عليهم التفكير فى الشئون السياسية وأمور الدولة العـامة ـ وكان أهل الشام من أقوى المؤيدين الأمويين وأهل العراق من أشد المعارضين لسياستهم ـ فانصرف شباب الحجاز بما لديهم من المـال والجاه عن الإمارة والسياسة والخلافة إلى اللهو والمرح فكان الظرف وكان الغنـاء وكان الشراب وكان المجون وأنتج كل ذلك أثرا عميقا فى الأدب العربى الذى عاصر فجر الإسلام وضحاه .

وكان يسرّ المرأة العربية الحجازية فى ذلك العصر الماجن أن يشبب بهـا شاعر معروف مشهور ـ دون أن يكون لها أى ميل للتزوج منه ـ وإنما لتسرّ وتنتشى لما

فى تشبيبه من إطراء لجمالها وأوصاف بديعة لحسن وجهها ومفاتن جسمها ـ ويستوى فى هذه الرغبة عند النساء الأميرة منهن ومتواضعة الحال .

وقد أدى شيوع المجون والخلاعة فى العهد الأموى إلى زيادة عدد الشعراء الغزليين فارتفع إلى واحد وعشرين بعد أن كان ستة فقط فى العصر الجاهلى ووصل عدد الشعراء السكيرين (أى شعراء الخمَّارة) إلى ستة وكان عددهم لا يزيد على اثنين فى العصر الجاهلى .

والبراهين على صدق ما تقدم نستخلصها من نصوص تاريخية نجدها مفصلة فى المصنفات التى تناولت الحركة الاجتماعية فى العصر الأموى ـ ولاسيما إبان العشرات الأولى من قيام حكمه وتكوين دولته ـ ونجدها أكثر تفصيلا فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ـ ومن الخير أن يلمَّ المطلع على هذا البحث بموجز لبعض الأحداث المنهتكة التى وقعت فى تلك الحقبة من صدر الإسلام فى مكة وفى المدينة ليتبين مدى العبث والمجون والاستهتار بالقيم الاجتماعية فى العصر الذى عاشت فيه عائشة بنت طلحة والجو الذى كان يلفها فى غلالته ويتلمس الأثر الطيب الذى كان لهذه السيدة فى العمل جهد طاقتها على تنقية الأدب العربى من شوائب المجون التى كانت تستولى على كيانه فى ذلك الحين فصانت جوهره الأصيل من التدهور إلى هاوية الإسفاف الوضيع .

ولنبدأ فى هذا السبيل بتتبع حركات شيخ الغزليين فى العصر الأموى الأول ألا وهو عمر بن أبى ربيعة ـ لنرى بالبصيرة الواعية ومن خلال ما كتب عن مجونه ما كان يأتيه من مفاسد وما كان ينظم فيها من أشعار .

فهو يقول فى عصيانه والاسترسال فى شهواته الماجنة مخاطبا إحدى عشيقاته الكثيرات :

وأنُصُّ المطيَّ يَتْبَعْنَ بالرَّكـ ... ـبِ سِراعاً نَواعِمَ الأظْعانِ
فَنَصيدُ الغَريرَ مِنْ بَقَرِ الوَحْـ ... ـشِ ونَلْهُو بلَذَّةِ الفِتْيانِ

فى زَمانٍ لوْ كنتِ فيه ضَجيعى   غَيْرَ شك عَرَفْتِ لى عِصْيَانِ
وَتَقَلَّبْتِ فى الفراشِ وَلا تَدْ   رينَ إلاَّ الظنونَ أيْنَ مَكانى

ويقول فى ليلة حمراء قضاها فى الصحراء مع عشيقة أخرى قضى منها لبانته :

وَنَاهدَة الثديين قُلْتُ لهــا اتّكى
على الرملِ مِنْ جَنَّانَةٍ لمْ تُوَسَّدِ
فقــالتْ على اسمِ اللهِ أمْرُكَ طَاعَةٌ
وإنْ كنتُ قَدْ كُلِّفْتُ مالمْ أعَوَّدِ
فَلمَّا دَنَــا الإصْبَاحُ قالتْ فَضَحْتَنى
فقُمْ غَيْرَ مَطْرُودٍ وإنْ شِئْتَ فَازْدَدِ

ولم يتجنَّ التاريخ فى وصف هذا المجون العمرى فهو يثبت أن عبــد الله بن عبَّاس الهمدانى سأل عمر إذا كان قد فعل كل ما قال فيـه الشعر فأجاب بنعم واستغفر الله .

وبلغ من تطرف ابن أبى ربيعة فى الاستهتار واستمتاعه باللذات أنه لم يتورع عن أن ينظم الشعر التشبيبى فى «نُعْم» - التى كثيرا ما ذكرها فى قصائده - عندما تأتى إلى المسجد الحرام بمكة فتأخذ شيئا من الخلوق (أى الطيب الجيد) عندما رأته وتمسح به ثوبه ثم تمضى ضاحكة فيقول فى ذلك :

أدخَــلَ اللهُ ربُّ موسى وعيسى
جنةَ الخُلْدِ مَنْ مَلاَنى خَلُوقَا
مَسَحَتْهُ مِنْ كفها فى قميصى
حِينَ طَافَتْ بِالبَيْتِ مَسْحًا رَفِيقَا
غَضِبَتْ أنْ نَظَرْتُ نحوَ نِسَاء
ليسَ يَعْرِفْنَنى سَلَكْنَ طَرِيقَا

وأرى بينهـا وبينَ نِسَاءٍ
كنْتُ أهْذِي بِهِنَّ بَوْناً سَحِيقَا

وتبرز هـذه الأبيات صـورةً فاضحة من مجون شاعرنا حتى فى بيت الله المقدس كما تدل على أنه يباهى بعشق نساء أخريات له وإن كان جمالهن لايضـارع فى بهائه جمال « نُعم القرشية » حبيبته المفضلة ـ وتدل من ناحيـة أخرى على استهانة النساء بالقيم الأخلاقية والخروج على نواميس الحشمة المرعيـة فى ذلك العصر .

وذات يوم كانت عائشة بنت طلحة تطوف بالبيت الحرام وكان عمر يفعل مثلها ـ وعندما رآها وبهره جمالها بهت من فرط حسنها ـ إذ لم يكن قد رآها قبل ذلك ـ وعلمت عائشة أنه لحها وأنها قد وقعت فى نفسه فبعثت إليه بجارية أن اتق الله ولا تقل هجرا فإن المقام لابد فيه مما رأيت . فقال للجارية أخبريها أن عمر لايقول إلاَّ خيرا ـ ومع ذلك فقد شبب بها وذكر اسمها صراحة فى هذه الأبيات :

لعائشةَ ابنــةِ التَيْمِيِّ عِنْدِى
حِمىً فى القلبِ لايُرْعَى حِمَاهَا

يُذَكِّرُنِى ابنةَ التَيْمِىِّ ظَبْىٌ
يَرُودُ بِرَوْضَةٍ سَهْلٍ رُبَاهَا

فقلتُ لهُ وكادَ يُرَاعُ قَلْبِى
فلَمْ أرَ قَطُّ كاليَوْمِ اشْتِبَاهَا

سِوَى حَمْشٍ بِساقِكَ مُسْتَبِيْنٍ
وأنَّ شَوَاكَ لمْ يُشْبِهْ شَوَاهَا

وأنَّكَ عَاطِلٌ عارٍ وَلَيْسَتْ
بِعَارِيَةٍ ولا عُطُلٌ يَدَاهَا

وَأَنَّكَ غَيْرُ أَفْرَعَ وَهِيَ تُدْلِي
عَلَى المَتْنَيْنِ أَسْحَمَ قَدْ كَسَاهَا
أَظَلُّ إِذَا أُكَلِّمُهَا كَأَنِّي
أُكَلِّمُ حَيَّةً غَلَبَتْ رُقَاهَا
تَبِيتُ إِلَيَّ بَعْدَ النَّوْمِ تَسْرِي
وَقَدْ أَمْسَيْتُ لاأَخْشَى سُرَاهَا

وقد تلقف هذه الأبيات المغنون وعملوا فيها لحنـــا وأخذوا يترنمون بها فى مجالس الأنس والطرب ـ وممن غنى فيها مَعْبَدُ الملحن المشهور فى ذلك الحين .

ثم قال فيها قصائد أخرى كثيرة بلغ خبرها فتيان بنى تيم فقال لهم فتى منهم : يا بنى تيم بن مرة ـ والله ليقذفن بنو مخزوم بناتنـــا بالعظائم وتغفلون افشى وَلَدُ أبى بكر وَوَلَدُ طلحة بن عبد الله إلى عمر بن أبى ربيعه فأعلموه بذلك وأخبروه بما بلغهم ـ فقال لهم : والله لا أذكرها فى شعرى أبدا ـ ثم قال بعد ذلك الشعر الغزلى فيها ـ وكنى عن اسمها فى قصيدته التى أولها :

يَاأُمَّ طَلْحَةَ إِنَّ البَيْنَ قَدْ أَفِدَا
قَلَّ الثَّوَاءُ لَئِنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
أَمْسَى العِرَاقِيُّ لايَدْرِي إِذَا بَرَزَتْ
مَنْ ذَا تَطَوَّفَ بالأَرْكَانِ أَوْ سَجَدَا

وقد ذكرها فى هذه القصيدة باسم ابنهاطلحة من زوجها عبدالله بن عبد الرحمن ابن أبى بكر دون أن يذكر اسمها صراحة بعد أن أقسم لذويها أنه لن يفعل ذلك .

ولم يكف عمر بن أبى ربيعة عن التشبيب بعائشة أيام الحج فيطوف حولها ويتعرض لها وهى تكره أن يرى وجهها حتى وافقها وهى ترمى الجمـــار سافرة

فنظر إليها فقالت : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يافاسق فقال فيها القصيدة التالية :

إنىّ وأولَ ماكلِفتُ بحبّها
عجبٌ وهل فى الحب مِنْ متعجّبِ
نَعتَ النساءُ فقلتُ لستُ بمُبصرٍ
شبَهَا لها أبداً ولا بمُقرَّبِ
فسكتْنَ حيناً ثم قُلْنَ توجّهتْ
للحجّ ـ موعدُها لِقاءَ الأخشبِ
أقبلتُ أنظرُ مازعمنَ وقُلْنَ لى
والقلبُ بينَ مُصدّقٍ ومُكذّبِ
فلقيتُها تمشى تَهادَى موهناً
ترمى الجمارَ عشيّةً فى موكبِ
غرّاءَ يُعشى الناظرينَ بياضُها
حوراءَ فى غُلَواءِ عيشٍ مُعْجِبِ
إنّ التى مِنْ أرْضِها وسمائِها
جُلِبتْ لحَيْنِكَ ليتَها لم تُجْلَبِ

وقد تلقفها الغريض المغنى ووضع فيها لحنا وطاف يغنيه فى مجالس الوجهاء والأمراء بمكة والمدينة ويقص على سامعيه حكاية عمر ولقائه لعائشة وهى ترمى الجمار ـ وصنع فيه معبد شيخ المغنين لحنا طرب له الناس فى سهراتهم المرحة .

وهذه القصيدة توضح فى جلاء ما كانت عليه هذه السيدة العربية من جمال باهر ومكانة عظيمة وأبهة فخمة فى عيشة راضية تحفها النعماء والترف مما أوحى إلى ابن أبى ربيعة بهذه الأبيات التى تصفها فى دقة تصلح أن تصورها ريشة الفنان ثم توضع فى إطار جميل ـ وتدل القصيدة أيضا على أن الشعراء الغزليين كانوا ينتقرون

الشعر العذب الحلو الجرس النائى عن الإسفاف والمجون ليغنى فى مجالسها ومنتدياتها الأدبية التى كانت باكورة أدب الصالونات فى مستهل العصر الإسلامى

وكانت هذه الحقبة من تاريخ العرب الاجتماعى — أى فى صدر الإسلام — مليئة بألوان من الخلاعة وقلة الحرص على التقاليد الورعة التى سنها الدين الحنيف — فالسيرُ التى كتبت عن تلك الحقبة تخبرنا أن فتيات مكة والمدينة كن يتمالكن على الفتيان — وكانت كل واحدة منهن تتخذ لهـــا صديقاً تظهر له الحب وتفضله على غيره وتسرّ لقضاء أويقات شاعرية معه يناجيها وتناجيه وتجد فى حديثه الغرامى متعة ولذة — وكانت عائشة بنت طلحة تفعل مثلهن بعد أن انتهت مدة حزنهـا على والدتهـا أم كلثوم وقد توفيت وماتزال عائشة فى ميعة الصبى — فكانت تجلس إلى الفتيان وتتحدث إليهم وتأنس لهم — ولعل قلبها قـد مال إلى أحدهم ولم يسعدها الحظ بالزواج منه وعلى رأسهم الحارث بن خالد .

وما كان عمر بن أبى ربيعة إلاّ أحـــد هؤلاء الرجال الذين نعموا بصداقة فتيات مكة والمدينة واستمتعوا بحديثهن والجلوس إليهن لقضـــاء ساعات لهو ومرح على غرار تلك الساعة التى يطلبها جميل بن معمر من حبيبته بثينة إذ يقول لهـــا :

وساعةٍ منكِ ألْهوُهَا وإنْ قَصُرَتْ

أشْهى إلىَّ منَ الدُنْيَـــا ومَا فِيها

ويحدثنا ابن أبى ربيعـة فى زهو أنه التقى فى شبـابه الغض بفتاتين فقالت له إحداهما : ادْنُ منىّ ياأبا الخطّاب أسرُّ إليك شيئاً — فلما دنا منها دنت الأخرى وجعلت تعضّه فما شعر ببعضٍ هذه من لذة سِرار الأخرى !! وما كان ليلتذ من سرارها إلاّ إذا كان خليعاً فاجراً — وقد قص عمر هذه الحكاية الماجنة على الوليد بن عبد الملك عندما حرك رداءه عن كتفه ليصلحه فرأى الوليد على منكبه أثر العضة — واستغرق الوليد فى الضحك — ولما سئل عمر عما أضحك أمير المؤمنين قال : مازلنا فى حديث الزنا حتى رجعنا من رحلتنا سويا .

ويقول الرواة إن نسوة من المدينه اجتمعن فذكرن عمر وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه الشهى فتشوقن إليه وتمنينه ـ فقالت إحداهن أنا لكنّ به ـ فبعثت إليه رسولا أن يُوافى الصَّوْرَين ليلة سمتها فوافاهن على رواحله فحلتهن حتى طلع الفجر وحان انصرافهن فقال لهن . والله إنى لمحتاج إلى زيارة قبر النبى فى مسجده ولكنى لاأخلط بزيارتكنّ غيرها ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

وما من شك فى أن هذه الأمسيات الحمراء وغيرها من المغامرات الغرامية الصاخبة قد حدت بابن أبى ربيعه إلى قوله المأثور فى مطلع قصيدته الشهيرة :

إذَا أنتَ لم تَعْشَق ولم تَدرِ ما الهَوَى

فَكُنْ حجَراً من يَابِسِ الصَخْرِ جَلْمَدَا

ويبلغ الفجور بعمر أن يذهب إلى (الثريَّا) محبوبته المفضلة ومعه أحد أصدقائه فتخرج وترى هذا الصاحب وتبادر إلى ضرب عمر بأصابع يدها اليمنى وبها خواتم فاسودت ثنيتاه ـ أى السنين الأماميين ـ وكانت النساء فى ذلك العصر يضعن الخواتم فى أصابع أيديهن العشرة .

أما استهتار النساء بالقيم الاجتماعية ونزوعهن الجامح إلى العبث واللهو غير البرىء فى ذلك الوقت فيوضحه ماجاء بكتاب الأغانى من أن « الثريَّا » ذهبت إلى بيت عمر وكان أخوه راقداً مكانه فارتمت « الثريا » عليه تقبله فاستيقظ أخوه من نومه وأخذ يلعنها ويلعن أخاه الفاسق.

ومن دلائل تجاهل الناس لتعاليم الدين الإسلامى فى ذلك الحين ولمَّا يمض على ظهوره غير سنوات قلائل ـ أن سكان الجزيرة العربية كانوا لايجدون فى هذه الفترة حرجا ولاعيباً فى أن يخالط الفتى الفتاة ليلا فيتحدث إليها على انفراد أو يتحدث الفتيان إلى الفتيات على هذه الصورة ولايرون فى كل ذلك منكراً .

وتمادى الشعراء فى التشبيب بالحرائر وسيدات أشراف قريش لدرجة أن الشاعر الأحوص لم يتورع عن التشبيب بالسيدة سكينة بنت الحسين ويكنى لها

باسم مستعار هو «عقيلة» على الرغم من أن جدها هو رسول الله ـ ويقال إن هذا الأحوص نفسه كان متهما فى عرضه لشهرته بالشذوذ الجنسى وأنه كان يراود خبازى الوليد بن عبد الملك عن أنفسهم .

وفى هذا العصر المليء بالاستهتار والجموح فى التمتع بالشهوات كان للمخنثين شأن كبير إذ كانوا من الكثرة بحيث صاروا وباءً اجتماعيا كان لا بد من وضع حد لتفاقمه واستفحال شره المستطير البالغ الضرر والخطورة .

ومن الغريب أن معظم المغنين المكيين والمدنيين فى ذاك الوقت كانوا من هذا الصنف الوضيع من الرجال ـ ويقال إن الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك أمر وَاليَهُ على مكة أن يخصيهم ففعل ـ وذاك بعد أن بلغ أمرهم مبلغاً هائلا إذ أفسدوا أخلاق معظم نساء مكة بما كانوا يأتون من دعارة خليعة ماجنة .

ومن أمثلة فحش هؤلاء المخنثين وطغيانهم فى الفجور فى غير مبالاة أن الدلال (المغنى المخنث) كان يصلى خلف الإمام بمكة ـ فقرأ الإمام « وَمَالِى لا أعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ فقال الدلال ـ لاأدرى والله ـ فضحك أكثر الناس وقطعوا الصلاة ـ فدعاه الوالى وسأله عن مزاحه هذا ـ فقال : ظننت أنك قد تشككت فى ربك فَثَبَّتُّكَ ـ فضحك الوالى وَحَذَّرَه العودة إلى ذاك ـ وكان هذا الوالى هو الذى أمَّ الناس فى الصلاة ـ ولم يقم الحد على هذا العابث بفريضة الصلاة فى المسجد واكتفى بتحذيره وهذا أضعف الإيمان .

وهذا الدلال الوقح يتمادى فى استهزائه بالقيم الدينية وبفرائض الدين الإسلامى ومالها من حرمة وتقديس ـ فيخرج من سبيله الخلفى صوتاً قبيحاً وهو يسجد فيسمعه المصلون وهو يقول فى سخرية سمجة « سبحانك ياربى ـ سَبَّحَ لك أعلاى وأسفلى » فيضحك المصلون عوضا عن أن ينكلوا به أشد التنكيل لفعلته الشنعاء .

وكان المخنثون فى ذاك العصر الإسلامى الأول كثيرين فى مكة والمدينة بصفة خاصة ومنهم الغريض وطويس وابن عائشة والدلال الذى تقدم ذكره

وغيرهم - وكانت النساء لا يأنفن من مجالستهم وسماع المغنين منهم وقضاء الأمسيات الصاخبة معهم ولا سيما المتهتكات منهن - من ذلك أن الدلال كان يلازم أم سعيد وبنت يحيى بن الحكم بن أبى العاصى - وكانتا من أمجن النساء - فتركبان فرسين وتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما - فقال معاوية لمروان بن الحكم : أكفنى بنت أخيك - فحفر لها بئرا وغطاها بحصير - ولما مرت عليها وقعت بها فكانت لها قبراً - وهرب الدلال بعد ذلك من المدينة إلى مكة خشية العقاب . وهذا يدل على تهتك النساء حتى المنتميات منهن إلى أعرق الأسر العربية .

ويحدثنا صاحب الأغانى عن الغريض المغنى المخنث وقد أطرب بغنائه جماعة من الرجال والنساء فى ليلة ساهرة استمرت حتى الفجر وهذا يدل على أن حفلات الغناء الساهرة كانت تضم الرجال والنساء فى مجتمعات كلها المتعة واللذة وكان للشعراء الصدارة فيها يستمعون إلى قصائدهم تلحن وتغنى ويطرب لها النساء والفتيات فى جو كله المرح البرئ وغير البرئ وقد جاء الرجال إلى هذه الحفلات فى يوم السباسب وفى أيديهم باقات الأزهار والرياحين يقدمونها إلى النساء والفتيات على غرار عادتهم فى الجاهلية وعلى رءوس ساداتهم العمائم الصفر .

وكان للمغنين شأن عظيم فى ذلك العصر الذى عاشته عائشة بنت طلحة .

والواقع هو أن تلك الحقبة من تاريخ صدر الإسلام كانت حافلة بالمتناقضات وقد وصفها الأستاذ الكبير أحمد أمين فى كتابه (فجر الإسلام) قائلا : « إنه بجانب الحياة الجليلة الوقورة التى تصفها لنا كتب طبقات المحدثين والفقهاء والمفتين كانت تسود الحجاز حياة أخرى هى حياة فرح ومرح وطرب وشراب تصفها لنا كتب الأدب وخاصة كتاب الأغانى . . . فقد كان بالحجاز زهد وورع وتقوى وحديث وفقه وكان بالحجاز شراب وتشبيب بالنساء - حتى فى موسم الحج - ولهو ولعب كثير - وكما انتجت الحياة الأولى علماً كثيراً انتجت الحياة الثانية فنًّا بديعاً من غناء وتنادر وأدب - ومن العجيب أن يفوق هذا الفن فى الحجاز مثيله فى العراق والشام - وعلى ما يظهر لنا - فقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيها بالمغنين والمغنيات حتى يروى لنا أبو الفرج أن المغنين كانوا يخرجون

إلى الحج قوافل ـ واشتهر فى عصر واحد أربعة من كبار المغنين : ابن سُريج ـ والغريض ـ ومعبد وحنين » .

ويقول الأستاذ أحمد أمين فى موضع آخر من كتاب (فجر الإسلام) :
« وكان للفرس أثر كبير فى الغناء عند العرب فى صدر الإسلام . وفوق هذا فإن العرب نقلوا عن الفرس صورة مجالس الغناء والاجتماع لسماعه فكانت ـ عدا أنها مجالس للغناء ـ مجالس للأدب يُصَفَّى لها الشعر ويرقق حتى يتفق والذوق الموسيقى ـ أضف إلى هذا ما كانت تستتبعه هذه المجالس من محاضرات أدبية وقصص جميل وفكاهات رائعة وتنادر ممتع وتسابق بين الشعراء والأدباء للظهور فيها ، ونيل الحظوة ، وناهيك بما كان لهذه المنتديات من فضل على الأدب ، ومباراة فى تهذيبه وتجديده .

هذا هو مجمل وصف الزمن الذى عاشته السيدة عائشة بنت طلحة فاستمتعت بمرحه وعبثه فى صباها وشبابها وأسهمت فى تهذيب حركته الأدبية بنصيب مرموق فى نضوجها وكهولتها بما أقامته من ندوات ثقافية نافعة كان لها أثر عميق فى صون الأدب العربى الرفيع من عوامل الانحلال والضعة وكان للسيدة نفيسة بنت الحسين ـ ضرّة عائشة بنت طلحة ومنافستها فى الناحية الثقافية والاجتماعية ـ فضل جدير بالتقدير والثناء فى هذا الشأن .

وكما كان للشعراء ـ ولاسيما الغزليين منهم ـ شأن عظيم فى تطوير الحركة الأدبية فى العصر الذى نتحدث عنه ـ كان للمغنين شأن عظيم مثلهم فقد كانوا الواسطة المباشرة فى ذيوع قصائد هؤلاء الشعراء بوضعها فى ألحان وإلقائها بمصاحبة مزاهرهم على الناس رجالا ونساء فسهل عليهم حفظها وتذوق معانيها . وهكذا تناقلتها الألسن جيلا بعد جيل حتى دوّن أبو الفرج الأصفهانى معظمها فى كتابه الأغانى عندما أراد تسجيل المائة صوت المختارة ـ ومما يؤسف له أشد الأسف أن (النوتة) الموسيقية لم تكن قد عرفت وقت أن ألف الأصفهانى أغانيه وإلا كنا استطعنا معرفة إيقاعات هذه الألحان على حقيقتها كتراث موسيقى عربى .

ومن الشواهد على ما كان يتمتع به المغنون من التقدير والمكانة المرموقة ما يرويه صاحب الأغانى من أن : عمر أبى ربيعة وابن أبى عتيق والأحوص عزموا على زيارة (جميلة) المغنية ـ فسافروا من مكة إلى المدينة فغنتهم وطربوا حتى شقوا الثياب ـ وقد حجت جميلة فتبعها إلى مكة كثير من أشراف المدينة . فلما أتت مكة قابلها أشرافها ونساؤها وفتياتها ـ وعند عودتها سافر معها كثير من أشراف مكة ومعهم ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد والعرجى وطائفة من المغنين ـ فلما استقرت بالمدينة أقامت حفلات غناء ثلاثة أيام وغنى فى هذه الحفلات بعد أن غنت هى : ابن سريج ـ وابن مسجح ـ ومعبد ـ وابن محرز الذى كان أول من نقل غناء الفرس إلى أشعار العرب ـ والغريض ـ وابن عائشة ـ ونافع ـ وبديح ـ ومالك بن السمح ـ وطويس ـ والدلال ـ وبرد الفؤاد ـ ونومة الضحى ـ وفند ـ ورحمة ـ وهبة الله ـ وعزّة الميلاء ـ وحبابة ـ وسلاّمة القس ـ وخُليدة ـ وعقيلة ـ والشماس .

وفى هذه الحفلات الثلاث التى امتد صخبها وتبودلت كؤوسها على الشفاه وألقيت فيها القصائد الرصينة والماجنة كانت (جميلة) تلبس برنوسا وألبست جميع المغنين والمغنيات برانس مثلها ثم قامت ترقص وهى تعزف على عودها فقام المغنون والشعراء يشاركونها الرقصات على أنغام مزاهرهم .

وسلاّمة التى أحبها القس ـ وهو ذلك التقى الورع ـ سلاّمة هذه يصطحبها ابن عتيق الشاعر إلى عثمان بن حيّان المرّىّ عندما جاء والياً على المدينة وأراد أن يطهرها من المغنين والمفسدين وأهل الزنا والفسق ـ فما زال ابن عتيق بعثمان حتى أذن لسلاّمة أن تغنى فغنت وطلبت منه العفو عن أهل المجون فعفى عنهم إكراماً لسلاّمة وغناء سلاّمة ! ! ويقال إن الإمام مالك بن أنس أجاد الغناء وغنى فيه الأصوات ولولا نصيحة والدته بأن يترك الغناء إلى الفقه لكان مالك من المغنين وليس إماما من أئمة الفقه الإسلامى الأربعة .

ويقص الرواة حكاية تدل على كبر مقام المغنين حتى لدى الخلفاء ـ فقد طلب الوليد بن يزيد الخليفة الأموى أن يرسل إليه معبد المغنى بالبريد ـ ومعبد هو

شيخ المغنين فى ذلك العصر ـ وكان يمارس التجارة إلى جانب التلحين والغناء ـ فلما حضر من المدينة أمر الوليد بأن تملأ بركة بالخمر وكان كلما أتم معبد غناء لحن تجرد الوليد من ثيابه وألقى بنفسه فى البركة لينهل منها ـ ثم يمنح معبدا عطاء جزيلا ويعيده إلى المدينة مكرما فى موكب فخم .

وفى هذه الأمثلة مايكفى للدلالة على أن هؤلاء المغنين كان لهم مكانة مرموقة فى عصر عائشة بنت طلحة لايفوقها إلا مكانة شعراء الغزل .

ولنتطرق الآن إلى تناول حياة السيدة عائشة الخاصة بالشرح ولنبدأ بحياتها الزوجية وما اكتنف هذه الحياة من أحداث أليمة أبعدتها عن الاستقرار العائلى الذى تنشده كل امرأة ليحيطها بهالة من الرعاية والحب والحنان كزوجة وأم .

فعلى الرغم من جمالها الباهر وفتنتها الغامرة وعلمها الغزير وذكائها المتوقد لم تكن هذه الغادة الفاتنة موفقة كل التوفيق فى حياتها الزوجية ـ فقد تزوجت ثلاث مرات وفقدت أزواجها الثلاثة دون أن تذوق حلاوة الاستقرار الأسرى فى عيشة رغدة طويلة الأمد ـ وقصة زواجها المتكرر دونتها كتب تاريخ الأدب وفصلها صاحب الأغانى فى إسهاب .

وأول أزواجها وأبو عذرها هو ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ولم تكن تحبه ولم يكن فتى أحلامها الذى تطلب الحب والحنان فى كنفه ـ فكانت تلقاه متجهمة وتعرض عن التحدث إليه وترد عليه التحية فى فتور ظاهر ـ وكان يتحمل منها هذا الصدود فى صبر وأناة ويفاتحها بحبه الصادق لها فلا تخرج عن الصمت ولا تلفظ بالرفض أو القبول . واستمر الحال على هذا الجفاء الصامت بعض الوقت إلى أن قالت لها خالتها عائشة أم المؤمنين : إن ابن خالك عبد الله قد خطبك إلىّ ـ وإنى قد وافقت على هذه الخطبة ، ولم يبق إلاّ أن تهيئى لها نفسك وتأخذى فى أسبابها .

واستقبلت عائشة حياتها الزوجية مع عبدالله كارهة ولم تلد من أحد أزواجها سواه ـ ولدت له عمران وبه كانت تكنى ـ وعبد الرحمن ـ وأبا بكر ـ ونفيسة

وقــد تزوجها الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ـ وطلحة وكان من أجواد قريش ـ ولكل من هؤلاء عقب .

وقد صارمت عائشة هذا الزوج الرحيم الذى كان زينة قريش وعز البطحاء وكان يُلَقَّب بفتى تيم لما كان له من بشاشة وسماحة وجه وجاه عريض ونسب يصله برسول الله عن طريق المصاهرة ـ فعائشة أم المؤمنين عمته وأول الخلفاء الراشدين أبو بكر جده ـ صارمته زوجته عائشة فكانت تجد السعادة فى بعده عنها فتنصرف إلى لداتها مرحة تسمع منهن حديث فتيان البادية الذين كرسوا حياتهم للغزل العفيف البرئ وحديث فتيان مكة والمدينة الذين يحيــون للعبث الماجن والشعر الغزلى المكشوف .

وتخرج إلى الحج معللة للنفس بأن تلتقى بهذين النوعين من الشبان وكانت قد علمت وهى فى المدينة ـ بأمر عمر بن أبى ربيعة وبثروته الطائلة وتشبيبه بالنساء ورغبت فى لقائه لتتحدث إليه وتحرضه على قول الشعر فيها ـ فكانت تتمثل فى حجتها هذه بقول الشاعر العرجى :

مِنَ اللَّائى لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً
وَلكنْ لِيَقْتُلْنَ الغَرِيرَ المُغَفَّلا

وأقبلت على مكة فى موكبها الرائـــع الفخم يسبقها عبير المسك وتحيط بها الجوارى إحاطة الهالة بالقمر ويلقاها ابن أبى ربيعـــة ويبهره حسنها فيقول فيها الأبيات التى أولها :

إنى وأوَّلَ ما كلفتُ بحبِّهـــا
عَجَبٌ ، وهل فى الحبِّ مِنْ مُتَعَجَّبِ

وقد دوِّنتُ هذه الأبيات فيما تقدم من هذا البحث ـ وقد رآها ابن أبى ربيعة وهى ترمى الجمار .

وعادت عائشة إلى المدينة راضية عن رحلتها ومصرّة على مغاضبة زوجها ومصارمته فكانت تسيء معاملته وتنفر منه فى عنف وجموح حتى فكر فى طلاقها والخلاص منها على الرغم من حبه الغامر لها ـ واستمرت على قسوتها وألحّت فيها فاضطر إلى القسم بأنه لن يقربها ولن يمسها بعد اليوم فتغضب وتذهب إلى بيت خالتها أم المؤمنين فتبقى عندها أربعة أشهر .

وذهب إلى عمته لبثّ فى أمر هذه الزوجة النافرة فتسأله أم المؤمنين إذا كان يرغب حقاً فى طلاقها فيبتسم فى مرارة وينشد :

يَقُولونَ طَلِّقْهَا لأصْبِحَ ثاوِياً
مُقِيماً عَلَىَّ الهَمُّ ـ أحْلامُ نائِمِ
وَإنَّ فِراقى أهْلَ بَيْتٍ أُحِبُّهُمْ
لهُمْ زُلْفَةٌ عِنْدِى لإحْدَى العَظَائِمِ

وفى هذين البيتين دلالة واضحة على حب هذا الزوج التعس لزوجته الجميلة النافرة الشرسة الأخلاق نحوه ظلما والتى ترى فى الحرية والحياة الطلقة المفكرة كل المتعة والهناءة .

وعادت عائشة إلى بيت الزوجية ليستأنف الزوجان حياتهما الشاقة العسيرة المليئة بالمصادمات والمصارمات إذ لم تغير من سيرتها فتظل قاسية على زوجها نافرة منه زاهدة فيه ـ ولقد قالت أم المؤمنين فى بنت أختها وهى تكفكف دموعها عقب موت عبدالله بن عبد الرحمن : مارأيت كعائشة بنت طلحة غلاظة قلب وجفاء طبع ـ مات زوجها عبد الله وهى عنده فما دمعت عينها ولا فتحت فاها عليه ـ وكانت أم المؤمنين تلومها على ذلك وتعده ذنباً من ذنوبها .

ومرت أيام الحزن على الزوج الراحل ـ وسمع مصعب بن الزبير ابن العوام بجمالها وفتنتها وكان أميراً على العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير ـ وكان مصعب وسيما أنيقاً لاتنقصه الشجاعة والإقدام وكان قد تزوج السيدة سُكينة

بنت الحسين بعـــد موت زوجته فاطمة بنت عبد الله بن السائب أم ولديه عيسى وعكاشة ـ ويصف الرواة السيدة سُكينة بأنها كانت جميلة الوجه فصيحة اللسان حلوة الحديث تحب المرح والدعابة البريئة فى طهر وخفر ـ وكانت برزة تجالس الرجال وتتبادل معهم شتى الأحاديث وكان شعراء الغزل والمغنون يختلفون إلى مجالسها ويسمرون عندها جانبا من الليل وكانت من أجل علمها وثقافتها ومجالسها الأدبية حديث الناس فى الحجاز والعراق والشام . وكان زوجها مصعب يجد لذة فى سماع إعجاب الشعراء والمغنين بجمالها ونبلها وثقافتها ولكن أصدقاءه رسموا فى مخيلته صورة مغرية أخرى هى صورة الفاتنة عائشة بنت طلحة وماهى عليه من جمال رائع وبهاء باهر ودلوه على عزَّة الميلاء المغنية لتكون رسوله لدى عائشة ـ فذهبت إليها وعادت تصفها لمصعب على النحو الذى تقدم ذكره فى هذا البحث وقالت عن العيبين فيها وهما كبر الأذنين والقدمين إن أحدهما يواريه الخمار وأما الآخر فيواريه الخف .

وماهى إلا بضعة أيام حتى تزوج مصعب من عائشة وأمهرها ألف ألف درهم وارتحل بها إلى العراق ـ وهناك استقبل العراقيون الزوجين فى حفاوة بالغة كثر فيها الطعام والشراب وأطعم فى أثنائها الفقراء والمحتاجون .

ورأى عبد الله بن الزبير أن أخاه مصعب قد أسرف فى البذخ من أجل هذا الزواج فعزله عن ولاية العراق ولكن مصعب ظفر برضاء أخيه بعد أن ذهب إلى مكة واسترضاه .

وكان من الطبيعى أن تجتـــاح الغيرة قلب السيدة سُكينة من ضَرتها عائشة ولكن الصبر والزمن كانا كفيلين بأن يُخمدا لهب هذه الغيرة فى فؤادها فترجع إلى حياتها الوادعة الأولى .

ويصف لنا أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » كيف جاء مصعب بن الزبير بأم منظور الماشطة لتجلو له عائشة ليـــلة الزفاف كما جلت بثينة ففعلت ـ وكانت أن جلت بنت طلحة فألبستها قلادة بلح ومخنقة واسطتها تفاحة وضفَّرَت

شعرها وجعلت فى فرقها شيئاً من الخلوق (وهو الطيب الجيد) !!! فانظر كيف كانت زينة النساء يوم العرس أساسها البلح والتفاح ومن يدرى ماهى الأصناف الأخرى من الفاكهة التى كن يتجملن بها ليلة الزفاف !!!

وعادت عائشة إلى الحجاز حاجّة فى موكبها الفخم وجواريها العديدات فجاءتها الثريّا محبوبة ابن أبى ربيعة المفضلة وأخواتها ونساء من أهل مكة القرشيات وغيرهن ـ وكان الغريض المغنى فيمن جاء ـ فأمرت للنسوة بكسوة وألطاف فكانت تخرج كل منهن ومعها جاريتها محملة ـ فقال الغريض أين نصيبى ثم غنى فى شعر جميل بن معمر :

تَذَكَّرْتُ ليلى فالفؤادُ عَمِيدُ
وَشَطَّتْ نَوَاهَا فَالمَزَارُ بَعِيدُ

فأدخلته وطلبت منه أن يغنيها مافى نفسها فأنشدها قول كُثَيِّر فى عزّة :

وَمازِلْتُ مِنْ لَيْلَى لدُنْ طَرَّ شَارِبِى
إلى اليومِ أُخْفِى حُبَّهَا وَأُدَاجِنُ
وأَحْمِلُ فى لَيْلَى لِقَوْمٍ ضَغِينَةً
وَتُحْمَلُ فى لَيْلَى عَلَىَّ الضَغَائِنُ

فقالت ماعدوت مافى نفسى وأجزلت عطاءه .

وقال الشعبى المحدث إن سبب طلبها هذين البيتين هو حب مصعب العنيف لها وإسرافه فى إسعادها وتنفيذ رغباتها ونزواتها مما أغضب عليه أخوه عبدالله وأهل العراق ولكنه لم يأبه بالعاذلين واستمر على إرضائها والتلذذ من إطراء الناس لجمالها وفتنتها وذكائها وثقافتها .

وتنتهى عائشة من أداء المناسك فيرسل إليها الحارث بن خالد الغريضَ المغنى ليستأذنها فى أن تراه ولكنها تخرج عائدة إلى العراق دون أن تأذن له ـ فطلبت إلى الغريض أن يغنيها وهى فى المدينة فأنشدها شعر الحارث فى رفضها مقابلته :

زَعموا بأنَّ البَيْنَ بَعْدَ غَدٍ
فالقَلْبُ مِمَّا أحْدثوا يَجِفُ
والعَيْنُ مُنْذُ أجدَّ بَيْنُهُمُ
مِثْلُ الجُمَانِ دُمُوعُهَا تَكِفُ
وَمَقَالُهَا وَدُمُوعُهَا سُجُمٌ
أقْلِلْ حَنِينَكَ حِينَ تَنْصَرِفُ
تَشْكو وتَشْكُو مَاأشَتَّ بِنَا
كلٌ بِوَشْكِ البَيْنِ مُعْتَرِفُ

ثم طلبت من الغريض أن يغنيها فى شعر غير شعر الحارث بن خالد بمناسبة رحيلها عن مكة بعد الحج فغناها الأبيات التالية لعمر بن أبى ربيعة وقد قالها فيها تلميحا دون ذكر اسمها بعد أن غضب فتيان قبيلة تيم ولاموه على ذلك فوعد بألاَّ يذكر اسمها فى شعره :

أجْمَعَتْ خُلَّتِى مَعَ الفَجْرِ بَيْنَا
جَلَّلَ اللهُ ذَلِكَ الوَجْهَ زَيْنَا
أجْمَعَتْ بَيْنَهَا وَلَمْ نَكُ مِنْهَا
لَذَّةَ العَيْشِ وَالشَّبَابِ قَضَيْنَا
فَتَوَلَّتْ حُمُولُهَا وَاسْتَقَلَّتْ
لَمْ تَنَلْ طَائلاً وَلَمْ نَقْضِ دَيْنَا
وَلَقَدْ قُلْتُ يَومَ مَكَّةَ لَمَّا
أرْسَلَتْ تَقْرَأُ السَلَامَ عَلَيْنَا
أنْعَمَ اللهُ بِالرَسُولِ الَّذِى أرْ
سِلَ وَالمُرسِلِ الرِسَالةَ عَيْنَا

فأعجبت عائشة بهذا التلطف من عمر بن أبى ربيعة وبهذه اللباقة فى التشبيب بها دون ذكر اسمها .

وجاءها فى المدينة قادمٌ من مكة فقالت له : مافعل الأعرابى بعد أن رفضنا لقاءه . فلم يفهم الرجل ماأرادت ـ ولما عاد إلى مكة سأله الحارث بن خالد فقص عليه الخبر فأرسله مرة ثانية ينشدها :

مَنْ كانَ يَسْأَلُ عنَّا أيْنَ مَنْزِلُنَا
فالأقْحُوَانَةُ مِنَّا مَنْزِلٌ قمِنُ
إذْ نَلْبَسُ العَيْشَ صَفْواً ما يُكدِّرُهُ
طعْنُ الوُشَاةِ وَلاَ يَنْبُو بِنَا الزَمَنُ
ليتَ الهوى لم يقربنى إليكِ ، ولم
أعرفْكِ إذ كانَ حظى منكمُ الحزنُ

وكما عضت الغيرة قلب سُكينة بنت الحسين من ضَرَّتها عائشة أخذت هذه الغيرة تنفذ إلى قلب عائشة من سُكينة التى سكن ريح الغضب فى فؤادها الكسير واستسلمت إلى واقع أمرها وعادت إلى سيرتها الأولى تهتم بالشعراء والمغنين وتجتمع بهم فى ندواتها الأدبية على عادتها فترويهم وتأخذ منهم وتنافس فى كل ذلك ضَرَّتها الفاتنة عائشة دون أن تصل إلى أبهتها وماتضم مجالسها الأدبية ومنتدياتها الحافلة من بذخ وعظمة .

وتدفع الغيرة عائشة إلى مغاضبة زوجها مصعب لمجرد ذكره سُكينة أو كلما ذهب إليها ليعطيها حقها فى الزوجية ـ وتمادت عائشة فى مغاضبتها فركنت إلى حجرة نومها ومكثت فيها لاتبرحها وأقسمت ألاَّ تكلمه ـ فضاق بهذا الخصام ذرعا ولجأ إلى صديقه الحميم الشاعر ابن قيس الرقيات ليُصلح بينه وبينها فأقبل عليها ولم يكد يجلس إليها حتى أنشدها قوله :

إنَّ الخَلِيطَ قدْ أزْمَعُوا تَرْكِي
فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهِمْ أَبْكِي
جِنِّيَّةٌ بَرَزَتْ لِتَقْتُلَنِي
مَطْلِيَّةُ الأصْدَاغِ بِالمِسْكِ
عَجَبًا لِمِثْلِكِ لا يَكُونُ لَهُ
خَرْجُ العِرَاقِ وَمِنْبَرُ المُلْكِ

فضحكت ورضيت وعادت إلى مخاطبة زوجها بعد أن أحلها الشعبي فقيه أهل العراق من يمينها ـ وتدل هذه الأبيات على عظمتها بين أهل زمانها وأبهتها ومكانتها الرفيعة حتى أن هذا الشاعر يعجب كيف لاتكون ملكة متوجة بالفعل وهي على ماهي عليه من ثروة طائلة وسيادة وسلطان .

وبلغ من صلفها وعنجهيتها المتكبرة وترفها غير المحدود أن دخل عليهامصعب وهي نائمة فايقظها وألقى في حجرها ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار فغضبت وقالت : نومتي كانت أحب إليَّ من هذا اللؤلؤ ـــ وهذا هو منتهى الصلف والكبرياء .

ويدلنا تاريخ سيرتها على أن زوجهامصعب كان لاينال منها وطرا إلاَّ بتلاح ينالها منه وأنه كان يضطر إلى ضربها أحيانا ولذلك احتال كاتبه ابن أبي فرَّة وذهب إليها مع أسودين وأمرهما بحفر بئر قائلا لها إنه أتى لدفنها حية بأمر زوجها ـ فأخذت تبكي وتتوسل إلى الكاتب وتسأله عن سبب إصرار الأمير على قتلها فقال إنه يخشى أنها لاتحبه ـ فعدلت عن مجافاة مصعب بهذه الحيلة ـ وهذا يدل على أخلاقها النافرة وكبريائها المتمادية الحدود .

ومرت أربعة أعوام على هذا الزواج المتقلب بين الرضى والهجران والمصارمة والاسترضاء والغيرة والقناعة بالواقع ـ فكانت عائشة تطيِّب خاطر مصعب حينا وتغاضبه أحيانا ويرضى منها بالقليل إذا أحسنت إليه القول فيتهلل وجه بشراً لأنه كان من أشد الناس إعجاباً بها على الرغم من خلقها الميال إلى الشراسة والكيد ـ

من ذلك أنها كانت مجافية له فلما عاد من إحدى حروبه ضد الأمويين نصحت إليها خادمتها أن تخرج إليه لتسترضيه ـ فخرجت وهنأته بالعودة وجعلت تمسح التراب عن وجهه فقال لها : إنى أشفق عليك من رائحة الحديد ـ فقالت: لهو والله عندى أطيب من ريح المسك الأذفر ـ وهذه اللفتة الحلوة كانت من أسعد الأويقات غير الكثيرة التى تمتع بها هذا الزوج من محبوبة قلبه ومالكة نفسه وسيدة وجدانه.

وبدأ الدهر يقلب ظهر المجن لمصعب فخذله معظم أصحابه فى القتـــال ضد الأمويين فى مقابلة ماتلقوه منهم من الهدايا والمال ـ وقد رفض هو مهادنة أعدائه ولم يقبل منهم الأمان وولاية العراق طوال حياته وعطاءً من المال يقدر بعدة آلاف من الدنانير ـ وفضل مواصلة الحرب ضدهم فخرج إلى المعركة حيث تفرق عنه مناصروه وبقى فى الميدان هو وسبعة من أصحابه منهم ولداه من زوجته الأولى فاطمة بنت عبد الله بن السائب : عيسى وعكاشة . وقد أشار عليهما باعتزال المعركة فأبيا وتقدم عيسى فقتل وفرّ عكاشه ناجياً بحياته وظل مصعب يقاتل حتى أثخن بالجراح فضربه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقضى عليه وحمل رأسه إلى عبد الملك بن مروان الذى قال عن مصعب إنه كان من أشجع الناس .

وهكذا أسدل الستار على الفصل الثانى من قصة حياة عائشة بنت طلحة الزوجية وقد أشرفت على سن الكهولة ـ وقد تمتعت هذه السيدة الجميلة بأحسن ماتصبو إليه المرأة من العز والسؤدد طوال وجودها عند مصعب بن الزبير فكان من دلائل أبهتها الفائقة أن حجت السيدة عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان زوجة الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى قتل مصعب فى خلافته ـ فجهدت نفسها أن يكون موكبها إلى الحج ذا أبهة فخمة ـ ولكن حينما كانت بين المدينة ومكة إذ بموكب آخر قد جاء وضغطها وفرق جماعتها ـ فسألت فقيل لها إن الموكب لخازنة عائشة بنت طلحة ـ ثم جاء موكب آخر فسألت فقيل لها هذه ماشطة عائشة وبعد مواكب عدة أقبل موكب عائشه تحفهُ ثلثمائة راحلة عليها القباب والهوادج ـ فقالت عاتكة مبهورة : ماعند الله خير وأبقى .

فهل بعد هذه الفخامة والترف المحفوف بالإسراف شيء ترجوه امرأة حباها الله بالجمال والمال والعز الوارف المقيم ؟

وجاء الزوج الثالث ليلعب دوره فى قصة بنت طلحة الزوجية ـ فقد كان هذا الزوج الثالث والأخير من قبيلتها تيم وهو عمر بن عبد الله بن معمر ـ وكان عظيم القدر رفيع المنزلة يعتز بنفسه ويحافظ على كبريائه ـ وكان فارع القامة مهيب الطلعة تبدو عليه آثار النعمة واضحة ـ وكان مقداما وفارسا باسلا يهوى الحروب ويخوض غمارها غير هياب ولا وجل ـ وقد انتصر فى كثير من المعارك وهو أحد قواد مصعب بن الزبير الذى كلفه بقتال الخوارج الأزارقة فهزمهم شر هزيمة وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ـ وقد ولاه مصعب على بلاد الفرس فدبر شئونها فى حزم وحسن تصريف .

ولما قتل مصعب بن الزبير لم ير عمر بن معمر بداً من الانضمام إلى بنى أمية وأقبل على الخليفة عبد الملك بن مروان فأخلص له الطاعة ودان له بالولاء .

وكان عمر ممن فتنوا بجمال عائشة وكان يود أن تكون له زوجة ولذلك حزن أشد الحزن حين زفت إلى ابن خالتها عبد الله بن عبد الرحمن ولكنه أخفى حزنه وكتم غرامه فى قرارة نفسه .

وقد تزوج بعد ذلك من رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية وكانت ذات جسم رائع الحسن ووجه جهم وأنف كبير .

ويذهب عمر فى رحلة إلى العراق ويسمع فى الكوفة أن عائشة قد خطبت لبشر بن مروان وهو من ألد أعداء زوجها مصعب ومن الذين عملوا على قتله ـ فأسرع إلى عائشة وقد أشرف على الشيخوخة فرحبت به مشرقة الوجه باسمة الثغر ـ وكان هذا اللقاء سببا فى فسخ خطبتها من بشر بن مروان وقبولها الزواج من عمر .

وكان هذا الزواج من الترف والبذخ بحيث ظل حديث الناس فى الحجاز والعراق والشام ـ وقد وصفته جارية عائشة فى دقة وتفصيل يستحقان التدوين ـ

فهى تقول : « تزوج عمر بن عبد الله من عائشة بنت طلحة وبنى بها بالحيرة وَمُهِّدت له يوم عرسه فُرُشٌ لم يُرَ مثلها ، سبع أذرع فى عرض أربع ـ وحمل إليها ألف ألف درهم مهرا ، وخمسائة ألف درهم هدية ـ وقال لى : لك علىّ ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة ـ وأمر بالمال فحمل وأُلقِى فى الدار وغُطِّى بالثياب ـ وخرجت عائشة فقالت لى . أهذا فرش أم ثياب ـ قلت : انظرى إليه ـ فنظرت فإذا مال ـ فابتسمت ـ فقلت لها : أجزاء من حمل هذا أن يبيت عزباً ـ قالت : لا والله ـ ولكن لا يجوز دخوله إلاّ بعد أن أتزين له وأستعد . قلت : فيم ذا ؟ فوجهك والله أحسن من كل زينة ـ وما تمدين يدك إلى طيب أو ثوب أو مال إلا وهو عندك ـ وقد عزمت عليك أن تأذنى له ـ قالت : افعلى ـ وكان دخوله بها فى الليلة نفسها وحكايته الماجنة مفصلة فى كتاب الأغانى وليس من الملائم ذكرها فى هذا البحث .

وحزنت رملة على اتخاذ زوجها ضَرَّةً لها واشتعلت نار الغيرة فى قلبها كما اشتعلت فى قلب سُكينة بنت الحسين حين تزوجت عائشة من مصعب ـ ويحلو لعائشة المشاكسة أن تعرض برملة وأن تسخر من جهامة وجهها وكبر أنفها ويغضب عمر بن معمر لزوجته الأولى ويغلظ لعائشة القول على هذه الإهانة فتبكى وتنصرف عنه منكرة عليه هذه القسوة فى معاملتها ـ والعجيب فى هذه المرأة الفاتنة أنها لم تحد عن البحث عن الأسباب التى تغضب أزواجها وقد تعدت الأربعين من عمرها حينما أقدمت على الزواج للمرة الثالثة .

والواقع هو أن المؤرخين لم يتجنوا عليها حين وصفوها بأنها « كانت أكثر الناس مغايظة لأزوجها لتثير فيهم الغيرة عليها ـ فقد قالت لعمر بن عبد الله بن معمر يوما وقد أمرها أن تنفض التراب عن وجهه : ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب !! فكاد عمر يموت غيظا » ـ وقالوا فيها أيضا : إنها كانت تكلم من يجىء لحديثها فى رقيق الثياب فإذا أقبل أحد أزواجها ضمت مِطْرَفها وقطبت .

ولا يعرف من نساء القرن الأول الهجرى امرأة عربية أضنتها علة الغزل

واستأثرت بقلبها ووجدانها كعائشة بنت طلحة ـ فقد كانت لا ترى أنها جميلة وذات فتنة دافقة وإغراء جامح إلا عندما يشبب بها شعراء الغزل ولاسيا المشهورين منهم ـ وكثيرا ماتقول للداتها : ما أجدر هذا الجمال بأن يثير الأحاسيس فى أفئدة هؤلاء الشعراء أمثال ابن أبى ربيعة فيخلعوا علىّ من صور خيالهم مايصف هذا الجمال على حقيقته فى روعته وبهائه ـ وكانت لاتنفك عن قضاء النهار بين المغنين ينشدونها الأشعار الغزلية الملحنة فإذا أقبل الليل كانت تجلس إلى صديقاتهـــا ولاحديث لها ولاحديث لهن إلا ماقيل حديثا من الشعر الغزلى العذب الجرس وما اتصل من سيَر الشعراء الغزليين .

وكانت الأيام التى قضتها عائشة الحسناء عند زوجها عمر بن عبد الله حـــلوة لذيذة على ماخالطهـا من مصارمة فى بعض أوقاتها ـ فقد كانت تحب مصعب بن الزبير ويحبها ولكنه لم يستول على قلبها كما استولى عليه عمر بن عبد الله ـ فقد كانت فى كنف مصعب معشوقة مدللة ولكنها كانت فى كنف عمر عاشقة ولهة ترى فى شخصه قوة تسيطر عليها وتحركها كما تريد فأنفقت أيامها معه خاضعة لسلطانه مطيعة للأوامر التى يصدرها إليها .

ومات عمر فاستبد بها الحزن وجزعت لفقده أشد الجزع وناحت عليه وهى قائمة ولم تنح على واحد من زوجيها الآخرين على هذه الكيفية وكان من عادات العرب فى ذلك الحين أن المرأة إذا ناحت قائمة عُلم أنها لن تتزوج بعد ذلك ـ وكانت وفاة عمر خلال عام ٨٢هـ(٧٠١م)

ولم يكن عمر بن عبد الله زوجها فحسب وإنما كان عندها الزوج والحبيب والأخ الذى تحتاج إلى مودته والأب الذى تحتاج إلى حنانه وعطفه ـ وقد سئلت عن سبب نواحها عليه قائمة فقالت : إنه كان سيد بنى تيم وكان أكرم أزواجى علىّ وأمسهم رَحِماً بى وأردت ألاّ أتزوج بعده .

وقد طلب يدها غير واحد من أشراف قريش فردتهم جميعا ـ وأبى الحارث بن خالد أن يخطبها لئلا يقال إنه كان يحبها لريبة أو يقول رجال من قريش إن

تشبيبه بها كان لشيء من الباطل ـ وكان عمرها إذ ذاك حوالى خمسين عاما ومازال على جمالها وفتنتها الطافحة بالأنوثة الخلابة وبهائها الوضّاح.

ومرت الأيام وخمد حزنها وهدأ جزعها وفرغت للغزل والغنـــاء وعقد الندوات الأدبية فى دارها بمكة حيث كانت تقيم عاما وفى دارها بالمدينة حيث كانت تقيم عاما وعلى الأخص فى قصرها بالطائف حيث كانت تقضى أعذب أمسيات الصيف فى مجالات الأدب والشعر والغناء فى جو شاعرى جميل وسط منطقة تحيط بقصرها القائم فوق الربوة وقدار تفعت فى أرجائها هامات النخيل وانتشرت فى أنحائها الحدائق الغناء وبساتين الكروم .

فكان منتداها (صالونها) أشبه بخلية النحل التى ترشف رحيق الأزهار ثم تودعها الخلية شُهدا مصفى لتتـــذوقه شياطين الشعر العربى ثم تهديه للراغبين سكرة بسكرة .

ولقد استمر المنتدى العائشى يؤدى أجل خدمة للأدب العربى فى صدر الإسلام زهاء ثلاثين عاما بعد أن أدى له خدمات متقطعة خلال السنوات الثلاثين السابقة عندما كانت السيدة عائشة بنت طلحة تقطع مراحل صبـــاها وشبابها وكهولتها وهى تشقى أو تنعم بالحياة الزوجية ـ فكانت فى تلك المراحل الثلاث لاتنفك عن عقد الاجتماعات المتفرقة للشعراء ولاسيما شعراء الغزل كلما حجّت أو أقامت بعض الوقت فى مكة أو زارت المدينة ومكثت بها ردحا من الزمن أو استقرت فى العراق فى كنف زوجيها مصعب بن الزبير وعمر بن عبد الله بن معمر .

وفى كل فترات حياتها الثقافية وطوال الأعوام الستين التى استغرقتها تلك الفترات لم تقصر عائشة فى بذل رعايتها الحادية على أهل الشعر والأدب والغناء ولم تبخل عليهم بالعطاء السخى ليسمعوها ماجادت به قرائحهم من أدب وشعر قالوه فيها أو فى غيرها من النساء ومن غناء لحنوه أنغاما شجتها وطربت لها على ايقاع مزاهر المغنين البارزين فى ذلك العصر الأُموى الذى أغدق على الحجازيين النعم ليفرغوا لمرحهم وعبثهم ويبتعدوا عن شئون السياسة وإدارة الحكم .

فشيخ الغزليين عمر بن أبي ربيعة الذى لايتورع عن أن يَقُصَّ فى شعره حكاية الفتاة ناهدة الثديين التى أمرها بأن تنطرح على رمل الصحراء وأن تقول له بعد قضاء ليلة ماجنة معها ـ قم غير مطرود وإن شئت فازدد ـ وعمر الذى يقول :

لَيْتَ هِنْداً أَنْجَزَتْنَا مَاتَعِدْ
وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدْ
واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً
إِنَّمَا العَاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ
زَعَمُوهَا سألَتْ جَارَتَهَا
وَتَعَرَّتْ ذَاتَ يومٍ تَبْتَرِدْ
أكما يَنْعَتُنى تُبْصِرنَنى
عَمْرَكُنَّ اللهَ ! أَمْ لايَقْتَصِدْ

ثم يجعل هذه الفتاة المتهتكة ترد على سؤاله :

قُلْتُ : مَنْ أَنتِ ؟ فقالت : أَنا مَنْ
شَفَّهُ الوَجْدُ ، وَأَبْلاهُ الكَمَدْ

ويجعلها تضحك وتحدد له ميعاداً ليلتقى بها وهى ساخرة فيقول :

كُلَّمَا قُلْتُ : مَتَى مِيعَادُنَا
ضَحِكَتْ هِنْدٌ ، وَقالتَ : بَعْدَ غَدْ

عمر بن أبى ربيعة هذا لايقول فى حضرة عائشة وفى إحدى ندواتها إلاَّ مثل الأبيات الآتية التى تفيض عفة ونبلا فى مقصدها وعذوبة فى جلالها وحكمتها المتينة وتنم عن غزل نقى ليس فيه شائبة من المجون أو الإسفاف :

بِرَبِّكَ هَلْ أتَاكَ لهـا رَسولٌ
فشَاقَكَ أمْ لقيتَ لهـا خدينا

فقلتُ شَـكا إليَّ أخٌ مُحِبٌّ
كبَعْضِ زَمانِنـا إذْ تعلمينا

فقَصَّ عـليَّ ما يَلْقَى بِهِنْـدٍ
فذكَّرَ بعْضَ ماكُنَّـا نسينـا

وذو الشَوْقِ القَدِيمِ وإنْ تعَزَّى
مَشُوقٌ حِينَ يلْقَى العاشِقِينَـا

وكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أعْرَضتُ عنْهـا
لِغَيْرِ قِلًى وكُنْتُ بِهـا ضَنينا

أرَدْتُ بِعادَها فصَدَدْتُ عنْهـا
ولَوْ جُنَّ الفُؤادُ بِهـا جُنونـا

فأين هذا القول العف البرئ فى الغزل النقى الراقى من قوله حين لقى السيدة ليلى بنت الحارث بن عمرو البكرية وهى تسير على بغلة وكان قد شبب بها فيوقفهـا ليسمعها أبياتا فتقول هات فينشدها هذين البيتين من البحر الوافر نفسه ومن القافية نفسها فى الأبيات السابقة :

ألا يالَيْـلُ إنَّ شِفاءَ نفسى
نوالك إنْ بخلْتِ فنوِّلينا

وقَدْ حضَرَ الرحيلُ وحانَ مِنَّا
فراقُـكِ فانظرى ماتأمُرينـا

فتأمره السيدة ليلى بطاعة الله وترك ماهو فيـه من فجور وتواصل سيرها معرضة عنه .

ويصطحب الغريض المغنى الحارث بن خالد وعمر بن أبى ربيعة إلى منتدى عائشة بالطائف ويغنى لها الغريض هذه الأبيات الغزلية الحلوة الجرس الشيقة المعـــانى :

أمْسَى بِأسماءَ هذَا القلبُ مَعمُودَا
إذا أقُولُ صَحَا يَعتَــادُهُ عِيدَا

كأنَّ أحْورَ مِنْ غُزْلانِ ذى نفرٍ
أهْدَى لهـــا شَبهَ العَيْنَيْنِ والجِيدَا

قامتْ تَراءَى وَقدْ جدَّ الرحيلُ بِنَا
لِتَنْكأ القَرْحَ منْ قلبٍ قدِ اصْطِيدَا

كأنَّنى يَـومَ أمسى لا تُكلِّمُنى
ذو بُغْيةٍ يَبْتَغى ماليْسَ مَوجُودا

ولم يقل عمر بن أبى ربيعة فى هذه السيدة إلاَّ الغزل الراقى الذى لا يخدش شعورها الرفيع أو يسىء إلى سمعتها العالية المقام بين أهل زمانها فهو يقول فى سفرها مرة إلى المدينة بعد أن قضت عامها بمكة :

مَنْ لِقَلْبٍ أمسى رَهيناً مُعَنَّى
مُسْتَـكِيناً قدْ شَفَّهُ ماأجَنَّا

إثر شخصٍ نفْسى فَدَتْ ذاكَ شخْصاً
نازحِ الدارِ بالمـدِينَةِ عَنَّا

ليتَ حظِّى كطَرْفَةِ العين مِنْها
وكثيرٌ مِنْهـــا القليلُ المُهَنَّـــا

وقد غنى فى هذه الأبيات إبراهيم الموصلى وابنه إسحق .

وقضت عائشة حجها ذات عام ورحلت إلى المدينة مع الفجر حتى لايتعرض لها ابن أبى ربيعة فأرسل إليها الأبيات الآتية التى تلقفها المغنون ووضعوا لها ألحانا وترنموا بها فى مجالسها الأدبية :

إنَّ مَنْ تَهْوَى مَعَ الفجرِ ظَعنْ
للهوى والقلبُ متباع الوطنْ
بانتِ الشمسُ وكانت كلّمَا
ذُكِرتْ للقلبِ عاوَدَهُ الدَّرَنْ
يَاأَبَا الحرثِ قلبى طائرٌ
فأتمرْ أمرَ رَشيدٍ مُؤتمَنْ
نظَرَتْ عينى إليها نظرةً
تركَتْ قلبى إليها مُرْتَهن
ليْسَ حُبٌ فوقَ ماأحبَبْتُها
غيْرَ أنْ أقتلَ نفسى أوْ أجنْ

فقالت عائشة حين سمعتها والله إنه يغالى فيما قصد ولكنه لم يقل إلا طيبا ولم يذكر إلا نسيبا رقيقاً ـ وهذا يدل على تقديرها الصائب لألوان الشعر ولاسيما الشعر الغزلى الرفيع .

وبقيت قصائد بن أبى ربيعة يضوع عبيقها فى جو منتدى عائشة لا يشوبها من مجونه وتهتكه شائبة إلى أن وافته المنيه عام ٩٣ هـ (٧١١ م) ـ وبقيت قصائده الوصفية العذبة تردد فى مجالس عائشة إلى أن وافاها الأجل المحتوم عام ١١٠ هـ (٧٢٨ م) وقد أشرفت على الثمانين من عمرها بالتقويم الهجرى ونحو ٧٨ عاما بالتقويم الميلادى وذلك بفرض أنها ولدت عام ٣٠ هـ (٦٥٠ م) .

وقد وصف حمّاد الراوية منتداها ومجتمعاتها الفخمة فقال إن منتداها كان سلسلة من حلقات البحث ورواية الأشعار والحكم على مستواها وتقييم مقدار نضوجها

ومناقشة مغزاها ومعانيها ـ وكانت مجتمعاتها النسائية غاية فى الأبهة والترف والكرم فقد دعت يوما نسوة من قريش فلما جئنها أجلستهن فى مجلس قد نضد فيه الريحان والفاكهة والطيب والجمر وخلعت على كل منهن خلعة تامة من الوشى والخز ونحوهما ودعت عزة الميلاء وخلعت عليها بالمثل وجعلتها تغنى لهن ـ وفى هذا الوصف الدقيق الباهر ما يؤكد أن عائشة بنت طلحة قد أسهمت بالفعل فى نضوج الأدب العربى فى فجر الإسلام .

وأما الحارث بن خالد بن العاص بن هشام فقد هام بها منذ صباه وقال فيها الكثير من قصائده الغزلية ـ فكان ينظم الأبيات التى تنم عن حبه العميق الصادق لها ويدفعها إلى المغنين لتغنى فى مجالسها كلما ودت سماعها .

فقد قال فيها الأبيات المدوّنة بعد ودفعها إلى المغنى ابن محرز فصنع فيها لحنا غناه فى ندوة من ندواتها الزاهرة ـ وهو يقول فى هذه الأبيات :

فَوَدِدْتُ إذْ شَحَطُوا وَشَطَّتْ دَارُهُمْ
وَعَدَتْهُمُ عَنَّا عَوادٍ تَشْغَلُ
أنَّا نُطَاعُ وَإنْ تُنَقَّل أرْضُنَا
أوْ أنَّ أرضَهُمُ إلينَا تُنْقَلُ
لِتُرَدَّ مِنْ كَثَبٍ إلَيْكِ رَسائِلى
بِجَوابِهَا وَيَعُودُ ذَاكَ المُرْسَلُ

وعندما حجت ذات عام أرسل إليها يستعطفها قائلا : يا ابنة عمى ألمّ بنا أوعدينا مجلسا نراك فيه فقالت : فى غد أفعل ذلك ثم رحلت عن مكة من ليلتها فقال الحارث فى ذلك الأبيات التالية :

مَاضَرَّكُمْ لَوْ قُلْتُمُ سَدَداً ... إنَّ المَطَايَا عَاجِلٌ غَدُهَا
وَلَهَا عَلَيْنَا نِعْمَةٌ سَلَفَتْ ... لَسْنَا عَلى الأيَّامِ نَجْحَدُهَا

لَوْ تَمَّمَتْ أسْبَابَ نِعْمَتِنَا   تَمَّتْ بِذَلِكَ عِنْدَنَا يَدُهَا

فذهب معبد – وابن محرز – والغريض المغنون إلى منتداها بقصرها الفخم فى الطائف وغنى كل منهم هذه الأبيات فى لحن صنعه فطرب لها الحاضرون وقالت عائشة باسمة إنه والله ما يقول إلاّ الطيب الرصين – وكان حكمها على أشعار الحارث بن خالد يثلج صدره ويكبر قدرها فى عينه وينمى حبها فى قلبه المعمود – فيغشى مجالسها ليسرّى عن نفسه ويزود عينيه من سحرها وعذوبة حديثها وقوة علمها واتساع أفق ثقافتها .

وكان الشاعر النميرى من المترددين على ندواتها ولا سيما تلك التى كانت تعقدها فى قصرها بالطائف وقد أقسمت عليه أن ينشدها قوله فى حبيبته زينب بنت يوسف فأنشدها قصيدته التى أولها :

تَزَلْنَ بِفَخٍّ ثُمَّ رُحْنَ عَشِيَّةً
يُلَبِّينَ للرحمنِ مُعْتَمِرَاتِ
يُخَبِّئْنَ أطرافَ الأكُفِّ مِنَ التُّقَى
وَيَخْرُجْنَ شَطْرَ اللَّيلِ مُعْتَجِرَاتِ
وَلمَّا رَأتْ رَكْبَ النُّمَيْرِى أعْرضَتْ
وَكُنَّ مِنَ أنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ
تَضُوعُ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمانَ إذْ مَشتْ
بِهِ زَيْنَبٌ فى نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ

ثم يكمل بالأبيات التى ذكرتها فى الصحائف الأولى من هذا البحث فتقول عائشة إنه لم يقل إلاّ جميلا ولم يذكر إلا كرما وطيباً ولم يصف إلا دينا وتقى – وهذا يوضح ما كان يقال فى منتدى هذه السيدة الفاضلة من الشعر البعيد عن كل ما يشوبه من عوامل الضعف أو الركاكة أو الخلاعة الماجنة – وهكذا سلمتْ ندوات عائشة

بنت طلحة من الانحدار بالشعر العربي والغناء العربي فى صدر الإسلام إلى عوامل الانحلال الهدامة فخلد فى تاريخ أدب العرب على نقائه وصفائه بفضل صاحبة أول (صالون أدبى) فى الإسلام عائشة بنت طلحة التى خلد التاريخ اسمها لما بذلته من جهود مثمرة موفقة فى هذا السبيل .

وكان كبار شعراء عصرها يحجون إلى بيتها فى مكة والمدينة وإلى قصرها بالطائف فينشدون أحسن ما قالوا من قصائد فتطرى الجيد منها وتنقد الضعيف الغث أو الركيك وتطرب للمغنين كلما غنوا فى الأشعار القوية العذبة الجرس المتينة المعانى والتركيب – وكان يختلف إلى منتداها الأدبى – إلى جانب عمر بن أبى ربيعة – والحارث بن خالد – والنميرى – والأحوص – وابن قيس الرقيات – جرير – والفرزدق وكثيّر – ونصيب – وجميل بن معمر – وغيرهم من الشعراء يتطارحون الشعر ويسمرون فى أمسيات بهيجة أدبية .

وكانت السيدة سُكينة بنت الحسين تنافسها فى ذلك أشد المنافسة – وكان من نتائج هذه المنافسة المفيدة أن ارتقى الأدب العربى وهذبت حواشيه وصفيت معانيه وألفاظه فى كنف هاتين السيدتين وتحت رعايتهما الحادبة الرفيقة .

ويحسن هنا أن يلمّ المطلع على هذا البحث بنبذة مركزة عن تاريخ حياة السيدة سُكينة – فهى بنت الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم – وأم الحسين هى فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصى .

وقد تزوج الحسين « الرباب » بنت امرىء القيس بن عدى الكلبية وهى أم سكينة وكانت شاعرة مجيدة وهى التى أطلقت على ابنتها اسم سُكينة واسمها الحقيقى آمنة أو أميمة .

ويصف الرواة السيدة سُكينة بأنها كانت جميلة فصيحة اللسان عذبة الحديث عفيفة سليمة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش وكانت عالمة أديبة يجتمع إليها الشعراء فتسمع كلامهم وتفاضل بينهم وتناقشهم وكانت ظريفة مزّاحة

خفيفة الروح تحب المرح والدعابة ـ وكانت أحسن الناس شعراً تصفف جمتها تصفيفاً بديعاً حتى عرف ذلك ـ وكانت تلك الجمة تسمى السُكينية .

وقالت يوماً لعائشة بنت طلحة ضرَّتها : أنا أجمل منك ـ وقالت عائشة : بل أنا : فاختصمتا إلى عمر بن أبى ربيعة . فقال لأقضينَّ بينكما ـ أما سُكينة فأملح ـ وأما أنت يا عائشة فأجمل منها ـ فقالت سُكينة قضيت والله لى .

وكانت سُكينة من أقوى الناقدين للشعراء تنظر فى نقدها إلى نبل الغرض وشرف اللفظ وجلال المعنى ومن ثمَّ كانت حكما بين الشعراء لايرد لها حكم على غرار ضرَّتها عائشة ـ وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب .

وقد اجتمع عندها ذات يوم : جرير ـ والفرزق ـ وكثيِّر ـ وجميل بن معمر ـ ونصيب ـ فنقدت لكلٍّ شعره ـ وآخذت عليه مأخذه ـ وكذلك كان بصرها بمذاهب الغناء وضروب الإيقاع كبصرها بأعطاف الشعر وقطاف الأدب .

ويصفها المستشرق (ماسيه H. Massé) فى دائرة المعـــارف الإسلامية : « بأنها كانت إحدى سيدات عصرها المشهورات وأنها كانت شديدة التأنق ذات هيبة ووقار لم يكن يحول بينها وبين المزاح والتبسط فى الحديث ـ أما جمال شعرها فكان أمراً معروفاً ـ وكانت لها طريقة خاصة فى تصفيفه ـ وقد حرم عمر بن العزيز فيما بعد الأخذ بهذه الطريقة خاصة فى تصفيفه ـ وكانت سُكينة فخورة بجمالها وبنسبها وقد بدا منها ما يدل على شجاعتها ـ فقد تجلدت واستسلمت لجراحة أجريت لهـا فى عينها ـ وكانت فطنة حصيفة تهوى الشعر والغناء وأمضت عمرها فى رحاب المدن المقدسة وتوفيت بالمدينة فى يوم الثلاثاء الخامس من شهر ربيع الأول عام ١١٧ هـ (٧ من أبريل عام ٧٣٥ م) ـ ولا يعرف تاريخ مولدها بالضبط ولكنها كانت فتاة صغيرة عندما قتل أبوها الحسين فى كربلاء »

« وتختلف المصنفات التاريخية فى ترتيب زيجاتها المتعاقبة ـ ويدل الترتيب

الأقدم لهذه الزيجات الذى يتفق عليه ابن قتيبة وابن سعد وأخذ به ابن خلكان على أن أول أزواجها كان مصعب بن الزبير بن العوام ـ وقد أمهرها مهراً كبيراً وانجبت من هذا الزواج ابنتها (سُكينة) ـ والظاهر أن زواجها الثانى كان من عبدالله بن عثمان بن أخى مصعب بن الزبير وقد ولدت له عثمان ولم يكن هذا الزواج موفقاً فى جميع أيامه ـ ثم تزوجت بعد ذلك من زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان بخيلا دائم المشاحنة معها وبعد طلاقها منه تزوجها الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عمر بن عبد العزيز ولم يدخل بها ـ ويقول ابن قتيبة إنها تزوجت فيما بعد من عمرو بن الحاكم بن حزام ـ ويذكر صاحب الأغانى أن أول أزواجها هو ابن عمها عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو قول يصح إنكاره »

ولقد كان منتدى السيدة سُكينة (صالونها) ينافس فيما يضم من أدباء وشعراء ومغنين منتدى ضرتها السيدة عائشة بنت طلحة ـ فقد روى أنه اجتمع عندها الشعراء والمغنون وطلبوا أن تستقدم المغنى (حُنين) من العراق فلما حضر وانضم إلى المغنين : ابن سريج والغريض ـ ومعبد ذهبوا إلى منزل سُكينة بمكة فأذنت للناس إذنا عاما فغصت الدار بهم وازدحم خلق كثير على السطح فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم .

ويروى المؤرخون قصصا تدل على حصافتها الدقيقة فى نقد الشعر نقدا يوضح تعمقها فى الحكم على الغث منه وإطراء الجيد الرصين . فقد أنشدت قول الحارث بن خالد :

فَفَرَغْنَ مِنْ سَبْعٍ وَقَدْ جُهِدَتْ
أَحْشَاؤُهُنَّ مَوَائِلَ الخُمُرِ

فقالت : أَحَسَنٌ عندكم ماقال؟ قال الحاضرون لديها من الشعراء والمغنين نعم ! فقالت : وما حُسنُه ! فوالله لو طافت الأبل سبعا لجُهِدَت أحشاؤها

وأنشدها أحد الرواة في ندوة حافلة بدارها قول عروة بن أُذَيْنَة في رثاء أخيه بكر :

سَرَى هَمِّي وَهَمُّ المرءِ يَسْرِي
وَغَارَ النَّجْمُ إلاَّ قِيدَ فِتْرِ
أُرَاقِبُ في المجرَّةِ كُلَّ نَجْمٍ
تَعَرَّضَ في المجرَّةِ كَيْفَ يَجْرِي
بِحُزْنٍ مَا أَزَالُ لَهُ مُدِيمًا
كَأَنَّ القَلْبَ أُسْعِرَ حَرَّ جَمْرِ
عَلَى بَكْرٍ أَخِي وَلَّى حَمِيدًا
وَأَيَّ العَيْشِ يَحْسُنُ بَعْدَ بَكْرِ

فقالت سُكينة ومن هو بكر ؟ أليس الدَّحْداحَ (أى القصير الغليظ) الأسيدَ القصير الذى كان يمر بنا صباحا ومساءً ؟ قالوا نعم - قالت : كل العيش والله يصلح ويحسن بعد بكر حتى الخبز والزيت ! - وفى هذا النقد اللاذع الممزوج بالنكتة الباسمة برهان آخر على رجاحة عقلها وسلامة الذوق الشعرى فى وجدانها .

ولم تسلم السيدة سُكينة من تشبيب عمر بن أبى ربيعة - فقد وافاها بالمدينة وتحدث لها حتى الفجر ثم قال فيها :

قَالَتْ سُكَيْنَةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ
مِنْهَا عَلَى الخَدَّيْنِ والجِلْبَابِ
لَيْتَ المُغِيرِيَّ الذى لَمْ أَجْزِهِ
فيما أطالَ تَصَيُّدِى وَطِلابِى

كَانَتْ تَرُدُّ لَنَا المُنَى أَيَّامُنَا
إِذْ لاَ نُلامُ عَلَى هَوًى وتصابى
خُبِّرْتُ مَا قَالَتْ فَبِتُّ كَأَنَّمَا
رُمِيَ الحَشَا بِنَوَافِذِ النُشَّابِ
أَسُكَيْنُ مَا مَاءُ الفراتِ وَطِيبه
مِنِّى عَلَى ظَمَإٍ وَفَقْدِ شَرَابِ
بِأَلَذَّ مِنْكِ وَإِنْ نَأَيتِ وَقَلَّمَا
تَرْعَى النِسَاءُ أَمَانَةَ الغُيَّابِ

فقال عندما بلغتها هذه القصيدة كذب والله وما أكثر كذب الشعراء – فلم أبك ولم أبل الخدين والجلباب من أجل هذا الفاسق .

ويقول بعض الرواة إن الأحوص الشاعر كان مغرما بها وقد شبب بها تحت اسم عتيلة فقال :

يَا لِلرِجَالِ لِوَجْدِكَ المُتَجَدِّدِ
وَلِمَا تُؤَمِّلُ مِنْ عَتِيْلَةَ فى غَدِ
تَرْجُو مَوَاعِدَ بَعْث آدَمَ دُونَهَا
كَانَتْ خَبَالاً للفُؤَادِ المُقْصَدِ
هَلْ تَذْكُرِينَ عَتِيلُ أَوْ أَنسَاكِه
بَعْدِى تَقَلُّبُ ذَا الزَمَانِ المُفْسِدِ
يَوْمِى وَيَومَكِ بِالعَقِيق إِذِ الهَوى
مِنَّا جَمِيعُ الشَمْلِ لَمْ يَتَبَدَّدِ
لِى لَيْلَتَانِ فَلَيْلَةٌ مَعْسُولَةٌ
أَلْقَى الحبيبَ بِهَا بِنَجْمِ الأَسْعَدِ

وَمريحة همّى عَلىّ كأنّنى
حتّى الصباحِ مُعلّقٌ بالفرْقدِ

وما أن سمعت بهذه الأبيات حتى بادرت سامعيها بقولها : غفـــر الله للأحوص فهو لايعى مايقول ـ وأردفت مرددةً الآية القرآنية الشريفة: الشعراءُ يتّبعهم الغاوون ـ ألم ترأنهم فى كلّ وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون؟ »

ومن كل ماتقدم يتضح أنه كان للسيدة سُكينة بنت الحسين نصيب مرموق فى تنقية الأدب العربى والشعر الغزلى على الأخص من شوائب الإسفاف والمجون وأنها أسهمت فى هذا المجال المفيد بما بذلت من جهود مثمـــرة خلال الندوات الكثيرة التى عقدت فى منازلها بمكة والمدينة والعراق منافسة بذلك ضرّتها عائشة بنت طلحة منافسة عادت على اللغة العربية بالفائدة الجزيلة إذ كان منتداها (صالونها) ثانى (صالون) أدبى فى تاريخ أدب الصالونات التى عاصرت الأجيال الإسلامية .

وأعتقد أنى قد وفيت موضوع ندوات هاتين السيدتين حقه من البحث والاستقصاء وَبَيَّنْتُ بما فيه الكفاية أثر هذه الندوات فى كيان الأدب العربى فى صدر الإسلام وأثر عائشة بنت طلحة وَضرّتها ومنافستها سُكينة بنت الحسين فى هذا الكيان ـ وأظن أنه قد حان الوقت لإبراز المقارنة بين (صالون) السيدة عائشة بنت طلحة (وصالون) السيدة (كترين دى رامبوييه Catherine de Rambouillet،

فقد ولدت هذه السيدة الفرنسية بباريس عام ١٥٨٨م (٩٩٧ ﻫ) وتوفيت فى مسقط رأسها عام ١٦٦٥ م (١٠٧٦ م) بالغة من العمر ٧٨ عاما.

ولم تكن موفقة فى حياتها الزوجية مثلها فى ذلك مثل عائشة بنت طلحة من حيث الاستقرار والحنان المستمر — ولم تكن ممن تغريهن المظاهر الخادعة المتكلفة إذ كانت من النساء المحافظات على التقاليد الفاضلة فملّت حياة البلاط

الملكى فى عهد هنرى الرابع وماتستلزمه هذه الحياة من قيود اجتماعية وماتضيعه من أوقات لايستفيد الفكر الراجح خلالها بما يطمح إليه من رقى ثقافى واتساع فى المدارك وإلمام بما يرتفع بالنفس إلى درجة تقرب من الكمال الروحانى ـ وقد اقترن اسمها بتاريخ أدب اللغة الفرنسية طوال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى .

ففى عام ١٦١٨ م (١٠٣٨ هـ) أعدت قصرها الفخم الذى خلده التاريخ على مر القرون ـ حاملا اسمها كالشعلة المنيرة ـ ليكون محط أنظار الكتاب والشعراء والعلماء واستمر مركزا لاجتماعاتهم الثقافية المثمرة مدة طولة .

وخدور حجره التى أعدت لاستقبال المترددين عليها من مشاهير قادة الفكر فى جماعات صغيرة كانت تغمر نفوس تلك الجماعات المتجانسة المشارب بفيض من البهجة والارتياح لما ضمت من رياش جميل التنسيق وما حوت من ألوان زاهية ورسوم بديعة .

وفى ذلك الجو الفنى الجميل الرائع كانت القرائح الجبارة تعمل جاهدة على تنقية اللغة الفرنسية من جميع الشوائب والارتفاع بألفاظها وجملها إلى أسمى درجات التعبير بعيدة عن الغث المبتذل مما يتبادله الناس فى أحاديثهم دون تحفظ أو حيطة لما قد يخدش الذوق السليم ويؤذى السمع. وفى ذلك الجو الفنى الرائع كان يُلقى قبل النشر والإذاعة خير ماأخرج الأدب الفرنسى من نثر وشعر ـ فيصقل جماله النقد النزيه ثم يتناوله القراء وقد اجتاز كل عائق يحول دون اقترابه من أعلى مراتب الإجادة والإتقان .

وعلى الرغم من أن التزمت والاندفاع فى التزامه إلى الحد غير المألوف قد أثار نقد بعض كبار المفكرين فى ذلك العصر للمترددين والمترددات على قصر (مدام دى رامبوييه) لدرجه دفعت بالشاعر الكبير (موليير) إلى الحط من قدرهم فى مسرحيته المرحة الساخرة « المتحذلقات المثيرات للضحك » فان ذلك

التمصر وأهله ومن خالطهم من المفكرين قد خصهم تاريخ الأدب العالمي بحكمه العادل وذلك في الجمل المدونة بعد التي يتجلى في ثناياها الإنصاف والتقدير فقال : « إن الاجتماعات الأدبية التي كانت تعقد في قصر مدام دى رامبوييه قد أدت للأدب أجل الخدمات وأنبلها منصدا ـ وأن أثره سيبقى عنصرا من عناصر المجد الفرنسي على مر الأيام ».

والواقع هو أن خدور قصر « دى رامبوييه بباريس » قد كانت فصولا لأكادمية أو على الأصح لجامعة عالية للأدب الفرنسي الراقي . وأن فضلها كان عظيما في تخريج الكثير من الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين ساروا على نهج زعماء الفكر في تلك الحقبة من تاريخ الإنسانية أمثال : كورني Corneille - وبوسيه Bossuet - ولاروشفوكو La Rochefoucould - ومدام دى لافاييت Mme de LaFayette ومدام دى سفيني Mme de Sevigné وغيرهم .

وما من شك في أن أدب « الصالونات » قد أخذ بيد الثقافة الفرنسية إلى المستوى التي كانت تتطلع إليه بعد تكوينها بما نهلت من الثقافتين اليونانية واللاتينية .

وقد كان لقصر « مدام دى رامبوييه » أثر عميق في اللغة الفرنسية وفي الأدب الفرنسي ـ **فأثره في اللغة أدى الى :**

١ ـ تنقية اللغة الفرنسية وتخليصها من بعض التعبيرات النابية أو السخيفة .

٢ ـ تزويدها بكثير من الألفاظ والتعبيرات الجديدة .

٣ ـ الارتفاع بها إلى المستوى الراقي إلى أبعد مدى مع وضع فاصل بين لغة العوام ولغة المثقفين .

وأثره فى الأدب الفرنسى أدى الى :

١ ـ أن الكتاب والشعراء والمفكرين اكتسبوا ـ بفضل اختلاطهم بعناصر البيئة الراقية ـ عونا وتشجيعا قيمين .

٢ ـ أن الأدب اتخذ طابعا من التنميق الشيق احتفظ به طوال ذلك القرن من الزمن .

وهكذا كان لمنتدى عائشة بنت طلحة ومنتدى منافستها سُكينة بنت الحسين أثر قويم فى الأدب العربى وكان لمنتدى السيدة « كترين دى رامبوييه » أثر مماثل فى الأدب الفرنسى . وهذا ما أردت أن أثبته من هـــذا البحث اعترافا بفضل هؤلاء السيدات الثلاث على الحركة الفكرية العالمية فى صدر الإسلام وفى القرون الوسطى ـ وقد استحقت هذا الفضل فى العصر الحديث السيدة نازلى فاضل وكان منتداها (صالونها) ناديا أدبيا يختلف إليه الإمام محمد عبده ـ وسعد زغلول ـ وإبراهيم اللقانى ـ وقاسم أمين ـ كما استحقته الآنسة مى زيادة وكان يتردد على منتداها (صالونها) : أحمد لطفى السيد ـ وعبد العزيز البشرى . والدكتور على إبراهيم . وأحمد شوقى . وحافظ إبراهيم . وخليل مطران . وإسماعيل صبرى . وكان هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء يتبادلون فى اجتماعاتهم الأسبوعية الأحاديث الأدبية والنوادر الطريفة والقصائد الرصينة والروايات الشعرية المستملحة .

وكان منتدى الآنسة « مى زيادة » يعقد بمسكنها كل يوم ثلاثاء وأثر هذا الصالون أعمق تأثير فى الأدب العربى الحديث ـ وقد نوه الشاعر خليل مطران بهذا المنتدى الثقافى فى رثائه للآنسة مى فقال :

قَدْ تَوَلَّى رِفَاقُنَا وَبَقِينَا ... يَعْلَمُ اللهُ بَعْدَهُمْ مَا لَقِينَا

أَقْفَرَ البيتُ أَيْنَ نَادِيكِ يَا مَىُّ ... إليهِ الوفودُ يختلفونَا

صَفْوَةُ المشرقينَ نُبْلاً وفضلاً ... فى ذَرَاكِ الرحيبِ يَعْتَمِرُونَا

فتُسَاقُ البحوثُ فيهِ ضُروباً وَيُدَارُ الحديثُ فيهِ شجُوناً
وتُصِيبُ القلوبُ وَهي غِراثٌ مِنْ ثِمَارِ القَولِ مَا يَشْتَهِينَا

وأنشد فيه الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى قصيدة جاء فيها :

رُوحِى عَلَى بَعْضِ دُورِ الحيِّ حائمة
كظامئ الطيرِ إذْ يَهْفُو عَلَى الماءِ
إنْ لَمْ أمتَّعْ بِمَىٍّ ناظِرىَّ غَداً
أَنكَرْتُ صُبحَكَ يا يَومَ الثُّلاثاءِ

أثاب الله صاحبات (الصالونات) وجزاهن ثواب ما قدمن من خير للأدب العالمى على مر الأجيال.

٤ ـ الوصف والتصوير فى شعر

البارودى ـ وألفريد دى فينى Alfred de Vigny

كان الشاعر محمود سامى البارودى مرهف الحس يصدر شعره عن وجدان ووعى يدرك فى دقة تامة كيف يتطلع إلى الأشيـــاء فيحسن وصفها . ويجيد الإمعان فى الروحانيات فيسطر عنها ما يجعل قارئه يشعر بالانفعالات النفسية التى تعتمل فى فؤاده نابعة من قرارة إحساسه .

وموهبة الوصف الرائع ودقته لا نجدها فى جميع الكتاب والشعراء لأن شرائطها العقلية والوجدانية لا تتوفر لكل فكر أو مخيـــلة . فهى تتطلب قوة الحافظة والقدرة على ترتيب المرئيات والحوادث والانفعالات النفسية التى يراها أو يشعر بها الإنسان فى الماضى لينفثها منظمة فى قالب بديع السياق كلما عرضت أمثالها على بصيرته الواعية أو حان الوقت الملائم لعرضها فى المستقبل .

ويذهب بعض علماء النفس إلى أن مبدعى الوصف يكونون فى الغالب ممن تتوافر فى حياتهم العقلية الشرائط الآنفـــة الذكر ويميلون فى الوقت نفسه إلى التقليد . وقالوا أيضا إن أدق الكتاب فى الوصف من كانت دائرة ثقافتهم محدودة لأنهم يعتمدون فيما ينتجون من محصول عقلى على ذكرياتهم الماضية دون التوسع فى الخيال الشخصى .

ونحن إذا ألقينا نظرة على تاريخ حياة شاعرنا وجدنا أن ما ذهب إليه هذا البعض من علماء النفس قد يستطاع تطبيقه عليه . فحيـــاته المليئة بالأسفار وشعوره المرهف الدقيق وحبه الخلال الكريمة ووطنيته الصادقة وثقافته التى لم تتعد دائرة اتساعها المجال المحدود والتى لم يترام نطاقها إلا فى حيز المرئيات .

كل هذه الاعتبارات مجتمعة . تجعلنا نميل إلى القول بأن قوة الحافظة والقدرة على الترتيب والميل إلى التقليد هي من أولى العوامل التى أقامت من البارودى وصّافاً مبدع العرض فى الصور التى يضعها نصب أعين القراء فى قريضة السلس الجزل العبارة .

ولا يتم الوصف الرائع إلاّ إذا أحاط به إطار ذهنى من التصوير الجميل . والواقع هو أن البارودى كان مصورا بارعا كأن قلمه ريشة رسام تتفنن التعبير عما يراه صاحبها وتمزج الألوان مزجا يضفى على الصورة حياة تنبض بكل ما يخالج وجدان الرسام من مشاعر وأحاسيس . ويتضح هذا التصوير المتقن لما يتعرض له البارودى بالوصف من تحايل النماذج الشعرية التى تركها . ولعل أبرع تصوير نلمسه فى هذه النماذج ذلك الذى يتجلى فى قصيدته التى نظمها فى حرب جزيرة إقريطش (كريت) وقد نظمها ولمّا يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ويقول فى طالعها :

أخذَ الكَرى بمعاقدِ الأجفانِ
وَهفَا السّرَى بأعنّةِ الفرسانِ

والليلُ منشورُ الذوائبِ ضاربٌ
فوقَ المتالِع والربى بجرانِ

لا تستبينُ العينُ فى ظلمائه
إلاّ اشتعالَ أسنّةِ المران

تسرى به ما بينَ لجّةِ فتنةٍ
تسمُو غواربُها على الطُوفانِ

فى كلّ مُرْبأةٍ وكلّ ثنيّةٍ
تهْدارُ سامرةٍ وعزْفُ قيانِ

تَسْتَنُّ عَادِيَةٌ وَيَصْهَلُ أجردٌ
وَتَصِيحُ أَجْرَاسٌ وَيَهْتِفُ عَانِ

وفى هذه القصيدة التصويرية عرض لحالات شاعرنا النفسية ودقة فائقة فى وصف المشاهد التى خبرها فى ساحة القتال وحنين صادق إلى وطنه وإبراز خبايا نفسه إزاء الحوادث ونكايات خصومه وبذلك جمعت القصيدة بين التصويرين الحسى والنفسى.

وأجد من الملائم هنا أن يعرف القـــارىء نبذة عن حياة شاعرنا قبل أن أسترسل فى تبيان الوصف والتصوير فى شعره .

فهو محمود سامى البـــارودى . ولد فى ٢٧ من شهر رجب عام ١٢٥٥ ه (٧ من أكتوبر عام ١٨٣٩ م) من أسرة تنتمى إلى إحدى العائلات الشركسية المملوكية ذات الشأن فى البلاد . وحملت أسرته لقب « البارودى » منذ كان أحد أجداده . وهو مراد يوسف شاويش (أو جاويش) ملتزما خلال الحكم العثمانى لبلدة إيتاى البارود بمديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليا) . فنسب إليها ولقب بالبارودى . وكان والده حسن حسنى البارودى أميرا من أمراء المدفعية ثم عين مديراً لمديرية دنقلة بالسودان وتوفى إثر ذلك تاركا ولده « محمود سامى » فى السابعة من عمره . وفى أوائل عهد سعيد الأول تخرَّج محمود من المدرسة الحربية خلال عام ١٢٧١ ه (١٨٥٤ م) . ولما كان الجيش المصرى فى ذلك الحين أشبه بمتحف للأسلحة والآدميين منذ شد وثاقه فى مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ ه) فقد وجد البارودى أن هذا الجيش أضيق من أن يجعـــله يؤدى الواجب نحو وطنه . فسافر إلى الأستانة وعمل فى وزارة الخارجية العثمانية ثم عاد إلى مصر عام ١٢٧٩ ه (١٨٦٢ م) مع الخديوى إسماعيل ليتقلب فى المناصب العسكرية والإدارية حتى وصل إلى رتبة فريق فى الجيش ومنصب رئيس الوزراء ومن ثمَّ شارك فى الأعمال السياسية الهامة والحركات الثورية التى شبت

فى عصره وفى مقدمتها الثورة العرابيـــة التى نفى إثر اخفاقها إلى جزيرة سيلان وظل يعانى ألم النفى والحرمان سبعة عشر عاما حتى فقد بصره حزنا وأسفا على زوجته وابنته . وعفى عنه فى عهد الخديوى عباس الثانى فعاد إلى مصر عام ١٩٠٠ م (١٢١٨ هـ) . وكانت وفاته فى عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) بالغاً من العمر حوالى ٧٦ عاما .

هذه إلمامة قصيرة بحياة هذا الشاعر الفحل . ولنعد الآن إلى تناول الوصف والتصوير فى شعره

فالباحث عن الموضوعات التى تعرض لوصفها وتصويرها فى ديوانه يجد أنها قسمان مميزان : الأول يعرض علينا صورا لأشياء مادية تكاد تتجسم أمامنا لما فى وصفه وتصويره لأجزائها من إتقان . والثانى يجعلنا نشاركه فى أحاسيسه المنوعة من حب وحنين وتوجع وحقد لا نكاد نتألم تحت تأثيره لأن البارودى لم تعرف البغضاء الجامحة الطريق إلى قلبه العامر بالصفح عن المسىء والوقوف إزاء لؤم الوغـــد أو دناءة الوضيع موقف الشمم وعلو النفس فيزدريهما دون الإيقاع بهما ويستخف بحقارتهما دون السعى إلى إيذائهما .

ومن شعره فى القسم الأول المتعلق بالأشياء المادية نجده ماثلا فى عدد من قصائده فهو إذا أراد وصف ضيعته التى لجأ إليها ليستريح من عناء الأعمال بعد استقالته من وزارتى الحربية والأوقاف فإنما يصور لنا جنة فيحاء وارفة الأشجار غزيرة المياه عليلة النسيم طيبة النفحة بها شجيرات القطن مثقلة بلوزها أو زهرها فيقول :

حتى وصلتُ إلى جنابٍ أفيح

زاهى النباتِ بعيد أعماقِ الثرى

تستنّ فيه العينُ بينَ منابتٍ

طابَتْ مغارِسُها وجنّاتٍ رُوا

مُلْتَفَّ أفنانِ الحدائقِ لَوْ سَرَتْ
فيها السمومُ لشابَهتْ رِيحَ الصَّبا
فتراُبه نَفَسُ العبيرِ ونَبْتُهُ
سرَقُ الحرير وماُؤه فَلَقُ الضُّحَى
فإذا شممتَ وَجدْتَ أطيبَ نفحةٍ
وإذا التفتَّ رأيتَ أحسنَ ما يُرى
والقطنُ بينَ مُلَوَّزٍ وَمُنَوِّرٍ
كالغادةِ ازدانَتْ بأنواعِ الحُلَى
فكأنَّ عاقِدَهُ كراتُ زمردٍ
وكأنَّ زاهِرَهُ كواكبُ فى الرُّبَا
دَبَّتْ بهِ روحُ الحياةِ فلو وَهتْ
عنه القيودُ منَ الجداول قدْ مشَى
فأصوُله الدكناءُ تسبحُ فى الثرى
وفروُعهُ الخضراءُ تلْعَبُ فى الهوى
لمْ يسْرِ فيهِ الطرفُ مذهب فكرةٍ
محدودةٍ إلاَّ تراجعَ بالمُنَى

فهو بهذا الوصف والتصوير الدقيق يجعلك تسير فى صحبته بين أشجار ضيعته تستنشق هواءها وتمتع النظر ببهيج تنسيقها وتفرح بتطنها اليانع فكأنك فى حلم تمر أمام بصيرتك الواعية مناظر هذه الضيعة كالشريط السينمائى الذى يستولى على إدراكك حتى ينتهى .

ويغلب على الظن أن شاعرنا متأثر فى هذه القصيدة ـ بالأدبين الفارسى والتركى اللذين اتقنهما ونظم فى ثانيهما الشعر الجيد ـ فالعبارة فيها لينة رائعة فى حسنها

مفعمة بالكلمات الدالة على الترف - ولقد كان الأدبان الفارسى والتركى للبارودى منهلا من المناهل الأدبية التى اغترف من عذب منابعها فجاء شعره متينا يمتاز بسطوة القول وجزالة اللفظ وبراعة الاستهلال وحلاوة الديباجة ورصانة القافية مما جعل بعض المؤرخين يقول عنه بحق إنه « لم يجىء بعد العصر العباسى من يبرع البارودى فى كل هذه الصفات التى يمتاز بها - ومن يدانيه فيها ».

والبارودى إذا جلس للهو والترويح عن النفس حاك من كل المناظر التى تحيط به نسيجا لقصيدة ممتعة يتحفك بأبياتها لتشاركه لهوه ومرحه وتتذوق معه لذة الخمر على بساط النبات النضير وقت السحر بين سجع الطيور وتغريدها - وكل هذا يجعلك تحس به فى عبارات غاية فى اللطف فيتمدد قلبك فرحا وينشرح صدرك طربا إذ يقول :

أدِرِ الكأسَ يا نديم وهات
واسْتَبِنْهَا على جبينِ الغداةِ

شاقَ سمعى الغناءَ فى رونقِ الفجـ
ـرِ وسجعَ الطيورِ فى العذَباتِ

أىُّ شىءٍ أشهى إلى النفسِ من كأ
سٍ مُدارٍ على بساطِ نباتِ

هو يومٌ تعطَّرتْ طرفاهُ
بشمالٍ مسكيَّةِ النفحاتِ

باسمَ الزهرِ عاطرَ النشْرِ هامىَ الـ
قطْرِ وانِىَ الصبَا عليلَ المهَاةِ

مسرحٌ للعيونِ يمتَدُّ فيهِ
نفَسُ الريحِ بينَ ماضٍ وآتِ

فامْتَثِلْ دَعْوَةَ الصَّبُوحِ وَبَادِرْ
فُرصةَ الدَّهرِ قبلَ وَشْكِ الفَوَاتِ

وَتَدَرَّجْ معى إلى (رَوْضَةِ المَنْ
يَلِ) ذاتِ النخيلِ والثمرات

فهىَ مَرْعَى الهوى وَمَغْنَى التَّصَابِى
وَمُرَاحُ المُنَى وَمَسْرَى الحَيَاةِ

إلى أن يقول عن زملائه :

يَتَسَاقُونَ بالكؤوسِ مُدَامًا
هىَ كالشمسِ فى قميصِ إِيَاةِ

فى أباريقَ كالطيورِ اشْرَأَبَّتْ
حَذَرَ الفتكِ من صِيَاحِ البُزَاةِ

حانياتٍ على الكؤوسِ من الرَّأ
فةِ يُرْضِعْنَهُنَّ كالأمهاتِ

ومما يلفت النظر أن القارىء لهذه القصيدة يخال أنها من خمريات أبى نواس إذا كان يجهل اسم ناظمها واذا حذف منها البيت الذى يدل على أن البارودى يصف مكانا بروضة المنيل بالقاهرة .

والواقع هو أن خمريات البارودى التى تذكرنا بعهد أبى نواس بل بالعهد العباسى بأسره ليست بالنادرة. نوردمنهاعلىسبيل المثل الأبيات الآتيةالتىيصف بها ليلة دارتفىأثنائها كؤوس الراح المعتقة التى يشبهها بعذراء شابت وهى رهن الدن:

وليلةِ أنسٍ قصَّرَ اللهوُ طولَها
بعَذْرَاءَ شَابَتْ وهى دونَ حِجَابِ

صَدَعْنَا بها الظلماءَ حتى تَبَلَّجت
ضَبَابَتُها مِنْ ضَوْئها بِشِهَابِ
مُعَتَّقَةً كانت ذخيرةَ مَعْشَرٍ
لأبنائهم فى جَوْفِ أقتمَ كابِ
أتتْ دونَها الأيامُ حتى تخلصتْ
فلم يَبْقَ منها اليومَ غيرُ لُبابِ
إذا اتقدتْ فى الكأسِ خلتَ مُديرَها
تخضَّبَ منها كَفُّهُ بِخُضابِ
كأنَّ سَنَا الكاساتِ والندِّ ساطعٌ
نجومٌ تراءت مِنْ خلالِ ضَبابِ
فيَاحُسْنَها مِنْ ليلةٍ غيرَ أنها
تولَّتْ ولم نَشْعُرْ لها بِذهابِ
وقد لاح بالظلماءِ فجرٌ كأنَّهُ
بياضُ مَشيبٍ فى سوادِ شبَابِ

فقليل من الشعراء من جادت قريحته بمثل هذا الوصف التصويرى لبنت الحان لأن القارىء لهذه الأبيات يكاد يحس بطعم الخمر التى يصفها البارودى على لسانه ـ إذا كان ممن يشربون الخمر ـ ويشعر بكأسها تلمس شفتيه فى تلك الليلة المؤنسة ـ وهذه قدرة على الوصف التعبيرى صعد بها رب السيف والقلم إلى مافوق السمت العادى.

ولن يكون من المغالاة فى شيء القول بأن المرثيات التى كان البارودى يتوخى الدقة فى وصفها وتصويرها كانت تحدو به إلى انتقاء قافية معينة لينظم عليها بعض قصائده . ومثل ذلك يتجلى فى قصيدته التى قالها فى وصف ليلة لهو

بجزيرة إقريطش (كريت) فى صحبة صديق عزيز عليه .

فصوت النواقيس عند الفجر وصدى هذه الأصوات فى الفضاء الساكن هيج كامن الشوق فى قلبه فعز عليه أن يصف ليلة مرحه وعبثه دون أن يكون لرنين هذه النواقيس الشجى أثر فى القصيدة فذكره فى الموضع الملائم منها فجاءت آية من آيات الشعر التعبيرى الصادق إذ يقول :

وَذِى نخوةٍ نازعتُه الكأسَ مَوْهِناً
على غِرَّةِ الأحْرَاسِ والليلُ دَامِسُ
فما زلتُ أسقيهِ وأشربُ مثلَهُ
إلى أنْ هفَا سكرًا وإنى لجالسُ
فبتُ أقيهِ السوءَ إذْ كانَ صاحبى
وأحْرُسُهُ إنِّى لَدَى الخوفِ حارِسُ
لَدَى مَوْطِنٍ لا يَصْحبُ المرءَ قَلْبُهُ
حَذَارًا ولا يَسْرِى إليه الهَوَاجِسُ
عَدُوٌّ وَليلٌ مظلمٌ وصواهلٌ
تجاذبُ فى أرسانِها وتمارسُ
فلمَّا استهلَّ النورُ وانحسرَ الدُجَى
قليلاً وَحَنَّتْ للصباحِ النَوَاقِسُ
دَنوْتُ أُفدِّيهِ وَأَغْمِزُ كَفَّهُ
بِرِفْقٍ وَأدْعُو باسمه وهو نَاعِسُ
فجاوبنى والسكرُ فى لحظاتِهِ
يُسائلُ ماذَا تبتَغِى وَهْوَ عابِسُ

فقلتُ أفِقْ هـذا هو الصبحُ مقبلٌ
علينـا وهذى فى الذهابِ الحنَادسُ
وَناولتُهُ كأساً فمـــدَّ بنانَهُ
إليهـا على كرهٍ بِهِ وهو يس
فماذاقهـا حتى تهلَّلَ ضـاحكا
وأقبلَ مسروراً بمـا هو آنسُ
وَمِنْ شيمى بَذْلُ الودا د لأهلهِ
كذلك إنىّ فى الودادِ أنافِسُ

ونلاحظ فى سياق هذه القصيدة أن البارودى لجأ فيها الى قليل من الكلمات المتكلفة بحكم التزامه للقافية غير أن هذا الالـــتزام لم يؤثر على جمال الوصف والتصوير الذى ينبعث من أبياتها فجاءت منمقة التعبير مما يجعلنا نشعر بوجودنا معه فى تلك الليلة نشاهد بالبصيرة حركات صديقه حين غلب عليه النعاس وهو ثمل وحين مد يده إلى الكأس متثاقلا وحين تناولها وشرب خمرها فتهلل وجهه فرحا واستولى السرور على سريرته ـ ونشاهد فى إطار هذا التصوير المتمن الحراس فى بلاد الغربة والأعداء على مقربة من الصديقين فى ليل مظلم والخيـــل تصهل بجوارهما ـ ثم نشاهد طلوع الفجر وأصوات نواقس الكنائس تدق للصلاة مما يشعرنا فوراً بأننا فى بلد يدين أهله بالمسيحية ـ وكل هـــذا الوصف التصويرى الرائع يجعل المصور لا يجد أى عناء فى رسم لوحة تضم جميع هذه المشاهد الحية فى لوحة توحى ألوانها بكافة ما أراد البارودى عرضه على قارىء أبياته من صور .

وإذا تصدى شاعرنا إلى وصف الطبيعة وتقلبات الفصول وضعـــك أمام منظر متكامل المشاهد تستطيع ريشة الرسام التعبير عنه فى يسر دون الحـــاجة إلى رؤيته على الطبيعة ـ فهو إذا وصف الخريف يقول :

تَوازنَ الصيفُ والشتاءْ
واعتدلَ الصُبحُ والمسَاءُ
واصطلحتْ بعدَ طولِ عتْبٍ
بينهما الأرضُ والسماءُ
فلا اصْطِحَارٌ ولا اكتنانٌ
ولا ابترادٌ ولا اصطلاءُ
تبتهجُ العينُ فى رياضٍ
أنضرَها الماءُ والهواءُ
للطيرِ فى أيكها هديلٌ
وللصَبا بينهَا مُكَاءُ
توارتْ الشمس عَنْ ذُراها
وَشبَّ مِنْ زَهرِها سناءُ
فالصبحُ والظهرُ والعشايَا
والوهنُ من ليلها سَرَاءُ
فلا ضبابٌ ولا غمامٌ
ولا ظلامٌ ولا ضياءُ

فالصورة التى يتبينها الإنسان من وراء هذا القريض واضحة جلية فيها كل عناصر الحياة التى يتطلبها تغيير الفصول — ولا سيما حلول فصل الخريف — من اعتدال فى الجو وتساو فى مدة النهار والليل ونضارة فى النبت وصداح للطير فوق أفنان الشجر وبين أغصان الخمائل الملتفة — وهذه الأبيات تصلح هى الأخرى ومن كل الوجوه أن تكون لوحة زيتية تحلى بها جدران المائدة فى كل بيت يحب صاحبه الفن ويتذوق معانيه فيما تنتج ريشة الرسام الماهر .

والبارودى لا يعرف فقط كيف يعطيك صورة صادقة عن الماديات الثابتة بل يعرف فى مهارة كيف يصور لك الماديات المتحركة - أى التى تتمثل أمام حاسة بصره ثم تختفى لتعود فى فترات أخرى متقطعة أو لتبقى عالقة بذهنه إلى أن يحين وقت عرضها فيصوغ شكلها فى عبارات محكمة الصياغة .

فعندما يراسل بعض أخصائه يتذكر أهل جزيرة سرنديب (سيلان) الذين أجبره النفى ونكد الطالع على معاشرتهم فيقول فى وصفهم :

ولكنَّنى أصبحتُ فى دارِ غُربةٍ
مقيما لدى قومٍ على البدِّ عُكَّفِ
زَعانِفُ هدَّاجونَ فى عَرَصاتِهم
كَخيطِ نَعامٍ بين جَرْداءَ صَفْصفَ
حفاةٌ عراةٌ غيرَ أخلاقِ صُدْرَةٍ
تطيرُ كنسجِ العنكبوتِ المُسَدَّفِ
يَمُجُّونَ من أفواههم رشحَ مُضْغَةٍ
كَنَتْضحِ دمٍ يُنْهَلُّ من أنفِ مُرْعَفِ
إذا رَطَنُوا بَعْضًا سمعتَ لصوتِهم
عَزِيفًا كَجِنٍّ فى المَغَاوِرِ هُتَّفِ

فالدقة فى الوصف والتصوير هنا تقترب من الذروة فى الإجادة لأنها تضعنا إزاء هؤلاء القوم فنرى من خلال الوصف ملابسهم الغريبة الحقيرة ونلمس بؤسهم وفقرهم تحت وطأة الاستعمار الإنجليزى الذى كان يستغلهم ويستعبدهم فى ذلك الحين ونسمع غوغاءهم المزعجة ونعرف أنهم يمضغون التبغ أو ما شابهه ويلقون من أفوههم نفاية ما يمضغون .

وفى البيت الذى يصف به البارودى ملابسهم صورة كاملة لمجموعة من الأفراد

حفاة الأقدام عراة الأجسام إلاّ من صدرة خفيفة أكل عليها الدهر وشرب ـ وفى ذلك دلالة كافية على رغبة شاعرنا الملحة فى جعل وصفه وتصويره فى غاية الروعة مع مراعاة الاختصار فى الجمل ـ وهو فى هذا الإيجاز المحكم يضارع أحد فحول الشعراء الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الميلادى وأحد المعاصرين للبارودى هو « الفريد دى فيـنى Alfred de Vigny » الذى يقول فى بيت واحد ما ترجمته :

أحِبُّ صوتَ البُوقِ فى المساءِ فى عمقِ الغابَةِ

إذ فى ذلك البيت الفرد وصف دقيق كامل التصوير لرنين صوت بوق الصيد عند مستهل الليل الساكن فى غابة نائية يتذوق الشاعر فى عمقها أنغام موسيقى الصيد ـ والبيت الذى نظمه دى فينى باللغة الفرنسية هو :

J aime le son du cor, le soir au fond du bois

وقد ولد الشاعر الفرنسى « دى فيـنى » عام ١٧٩٦ م ـ ومات بباريس عام ١٨٦٢ م. وانتظم فى مستهل حياته العملية ضابطا فى الجيش ثم تزعم حركة الأدب الرومانتيكى فى بلاده وصار بعد ذلك عضواً بالأكاديمية الفرنسية تقديراً لجهوده الأدبية العظيمة ـ وكانت أهم صفات شعره المميزة روعة الوصف والتصوير على غرار مميزات شعر البارودى ـ فهو يستوى معه فى هاتين الناحيتين ـ ويدل على ذلك المثل المتقدم الذكر مقارنا بالأمثلة التى توضحها النماذج الشعرية المدوّنة قبل من قصائد البارودى ـ والشاعر «دى فينى» هو مؤلف مسرحية «عطيل» التى اقتبس موضوعها من الشاعر الإنجليزى « شاكسبير » فجاءت المسرحية بالشعر الفرنسى رائعة السياق متقنة الشاعرية بديعة تصوير الأحداث على مر فصولها ومشاهدها مركزة الصياغة وفاقا للصفة المميزة لناظم أشعارها .

وإذا تطرق البارودى فى الوصف إلى رسم صورة لشخص بذل غاية الجهد فى أن يجعلك تتعرف عليه فى سهولة وأن تتوجع لحاله من وصفه الصادق البعيد

عن المغالاة أو الزيف ـ فاسمعه فى هذه الأبيات التى يرسم لك فيها صورة لنفسه. وهى من القصيدة التى رثى بها صديقيه الشيخ حسين المرصفى وعبد الله باشا فكرى.

كيْفَ لا أنْدُبُ الشَّبابَ وَقَدْ أصْ
بَحْتُ كهلاً فى محنةٍ واغترابِ
أخلَقَ الشيبُ جِدَّتى وكسانى
خلعةً منهُ رَثَّةَ الجِلْبَابِ
ولَوَى شَعْرَ حَاجِبى عَلَى عَيْ
نَى حتى أظَلَّ كالهُدَّابِ
لا أرَى الشىءَ حينَ يَسْنَحُ إلاَّ
كخيالٍ كأنَّنى فى ضَبَاب
وإذَا مَا دُعِيتُ حِرتُ كأنى
أسمعُ الصوتَ من وراءِ حِجَابِ
كلَّما رُمْتُ نهضةً أقْعَدَتْنى
ونْيَةٌ لا تَقِلُّها أعصابى
لم تَدَعْ صَوْلةُ الحوادِث منى
غيرَ أشلاءَ هِمَّةٍ فى ثيابِ

فالبارودى فى هذا الوصف ماثل أمام عينى قارئه وقد وهنت قواه وطال شعر حاجبيه وضعف بصره وسمعه ولكنه ظلّ هذا الشهم العالى النفس على الرغم من أن صروف الدهر القاسية التى جعلت من جزيرة سرنديب سجناً له ولم تدع منه إلاّ بقايا همة رفيعة القدر فى أطمار شيخوخة ذهب بفتوتها وعنفوانها تعاقب السنين ومرير الألم والحسرة .

وليس شعر البارودى فى وصف الماديات وتصويرها كله ألم وحسرة وتوجع. فقد نظم قلمه الفياض قصائد كثيرة فى مختلف ألوان الشعر العربى فأجاد وأحسن. وإليك - على سبيل المثال - هذه الأبيات التى يصف بها حبيبة حز فى نفسه فراقها لما فى حسنها من بهاء وما فى سجاياها وخلالها من ظرف فيقول :

ويارُبَّ ليلٍ لَفَّنَا بردائه
عِناقاً كما لَفَّ الصَّبَا البانَ والرندا
ولثمٌ توالى إثرِ لثمٍ بثغرِها
كما شافه البازى على ظمأ وِرْدَا
فتاة كأنَّ اللهَ صوَّرَ لحظَها
ليهتكَ أسْرارَ القلوبِ بهِ عَمْدَا
لها عبثاتٌ عندَ كلِّ تحيَّةٍ
تسُوقُ إليها عن فرائسها الأُسْدَا
إذا انفلتت بالكأسِ خلتَ بنانَها
يُديرُ علينا منْ جنَى خدِّها وَرْدَا
فلم أرَ لحظاً كانَ أقتلَ باكياً
وأمضى الظبى فى الفتك ما سالَ إفرنْدَا
حرَامٌ على العينين إنْ لم تسِلْ دَماً
على بينِهَا والقلبِ إنْ لمْ يذُبْ وَقْدَا

فأى وصف وأية صورة يحببان هذه الفتاة إلى الوجدان من وصف وتصوير البارودى لها فى هذا الإطار البديع ؟ وأية عبارات عذبة يستطيع القلم أن يعبر بها عن هذه الحسناء أبهى من هذه الأبيات التى تجعلك تتحسس جمال الفتاة بيدى الخيال كأنك تراها وتدنو منها وتلمسها فى حلم لذيذ !

وليس الوصف المعنوى فى شعر البارودى بأقل روعة من الوصف المادى - فشاعرنا يتقن كل الاتقان تصوير ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس وعواطف فى عبارات عذبة الجرس تفيض بسحر البيان .

فإذا تصدى إلى وصف وتصوير ما يستولى على نفسه من عظمة وما تتطلبه هذه النفس القوية الطامحة إلى المعالى دائما من مجد هو حق لها مكتسب وما يحف هذا الطالب العادل من عفة وقناعة حميدة وعزة ووفاء قال فى قصيدته التى بعث بها إلى صديقه الشيخ حسين المرصفى وهو فى حرب بنى الأصفر مع تركيـــا عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) :

وبى ظمأ لم يبلغ الماءُ رَيَّهُ
وفى النفس أمرٌ ليس يُدرِكُهُ الجَهْدُ

أودُّ ومَا وُدُّ امرىءٍ نافعاً له
وإنْ كانَ ذَا عقل إذا لم يكنْ جَدُّ

وَمَا بِىَ مِنْ فقرٍ لدينا وإنَّمَا
طِلابُ العُلَى مجْدٌ وإنْ كان لى مجْدُ

وكمْ منْ يدٍ لله عنْدى ونعمةٍ
يَعَضُّ عليها كَفَّهُ الحاسدُ الوَغْدُ

أنَا المرءُ لا يُطْغيهِ عزٌ لثروةٍ
أصابَ ولا يَلْوى بأخلاقِهِ الكَدُّ

أصُدُّ عن الموفورِ يُدْرِكُهُ الخَنَى
وأقْنَعُ بالميسورِ يَعْقُبُهُ الحَمْدُ

ومنْ كانَ ذا نفْسٍ كنفسى تصَدَّعتْ
لِعِزَّتِهِ الدنيا وذلَّتْ لهُ الأُسْدُ

وَمِنْ شيمى حُبُّ الوفاءِ سجية
وَما خيرُ قلبٍ لايَدُومُ له عهدُ ؟

فهل هذا الوصف النفسانى العميق الغور لايسمو بك أيها القارىء إلى محيط أعلى من المحيط الدنيوى الوضيع فتجد أنك بين صفوة من الرجال الذين يفضلون المناقب على كل جاه مادى ؟ وتجد نفسك إزاء رجل فاضل يسير مرفوع الرأس فتتحطم تحت أقدامه متع الدنيا الدنيئة والمشوبة بالرذيلة الحقيرة ؟ نعم إنك تشعر بكل ذلك من خلال أسطر هذه الأبيات لأن البارودى إذا مدح نفسه وتفاخر برفعتها فإنما يقول الصدق البحت الخالص من كل غرض . وإنما يصف ويصور نفسيته وصفا حقيقيا ليس للغلو فيه نصيب .

ولم يثنه الاغتراب والوحدة وذل المنفى عن هذه العزة القوية فى نفسه ولا عن هذا السمو فى الأخلاق الذى كان يقوده دائما فى طريق الفضيلة ـ فإذا خلا لنفسه فى منفاه دفعته عظمته الثائرة إلى القول :

إذا المرءُ لم يَدفَعْ يدَ الجورِ إنْ سطَتْ
عليهِ فلا يأسَفْ إذا ضاعَ مجدُهُ
ومَنْ ذلَّ خوفَ الموتِ كانت حياتُهُ
أضرَّ عليهِ مِنْ حِمامٍ يُؤدُّهُ
وأقتلُ داءٍ رؤيةُ العينِ ظالمًا
يُسيءُ ويُتلَى فى المحافلِ حمدُهُ
علامَ يعيشُ المرءُ فى الدهرِ خاملاً
أيفرَحُ فى الدنيا بيومٍ يعدُّهُ ؟
يرى الضيمَ يغشاهُ فيلتذَّ وقعَهُ
كذى جرَبٍ يلتذُّ بالحكِّ جلدُهُ

إذا المرءُ لاقى السيلَ ثمّتَ لَمْ يَعُجْ
إلى وَزَرٍ يحميهِ أرْدَاهُ مَدُّهُ
عفَاءٌ على الدنيا إذَا المرءُ لم يعشْ
بها بَطَلاً يحمى الحقيقةَ شَدُّهُ

فالحض على الإقدام والمطالبة بالحقوق فى غير هوادة - وملاقاة الموت عند الضيم والحث على الابتعاد عن التملق ومدح المسىء - كل هذا ماثل فى الأبيات المدونة قبل التى تزيدها الحكمة الرصينة تأثيرا على النفس - فقوله :

واقتلُ داءٍ رؤيةُ العين ظالما يُسىءُ وَيُتْلَى فى المحافلِ حَمْدُهُ

إلى قوله : كذى جرب يلتذ بالحك جلده - يتكون منه مثل من أمثال الحكمة لا يقل سمو معناه عن حكم العصور الماضية الشائعة .

فإذا أفجعه الموت فى عزيز فإنما يصف ويصور لوعته وحزنه العميق فى أبيات تطفح بالأسى فتحمل القارىء على مشاركته فى حزنه الصادق وتوجعه - وأى قلب مهما غلظت قسوته لا يشاطره الألم عندما تنفذ إلى أعماقه هذه الأبيات التى رثى بها ولده :

كيفَ طوتكَ المنونُ يا ولدى
وكيفَ أودَعتُكَ الثّرَى بِيَدِى ؟
وا كبدِى « يا عَلِىُّ » بعدَكَ لَوْ
كانتْ تبُلُّ الغَليلَ وا كبدِى !
فقدُكَ سَلَّ العظامَ مِنِّى ورَ
دَّ الصَّبْرَ عَنِّى وفتَّ فى عَضُدِى
كمْ ليلة فيكَ لا صَبَاحَ لها
سهرتُها باكيًا بِلاَ مَدَدِ

دَمعٌ وسُهدٌ وأىُّ ناظِرةٍ
تُبقِى على المدمعينِ والسهدِ

أو أى نفس لا تهتز هلعا عندما تحس بالأنين الذى تخبر عنه تلك الزفرة المنبعثة من صدر البارودى فى حرارة تكاد تودى بما أبقت أيام الشؤم فى جنانه من ثبات ـ تلك الزفرة التى نفثها فى منفاه عندما علم بفقد شريكة حياته فى أبيات هى أ نموذج الحزن العميق المتفجر من فؤاد عامر بالشمم وعلو النفس:

أيدُ المنونِ قدحتِ أىَّ زنادِ
وأطرتِ أيَّةَ شعلةٍ بفؤادى

أوهنتِ عزمى وهو حملةُ فيلقٍ
وحطمتِ عودى وهو رُمحُ طرادِ

لم أدرِ هل خطبٌ ألمَّ بساحتى
فأناخ أم سهمٌ أصابَ سوادى

أقذى العيون فأسبلت بمدامعٍ
تجرى على الخدَّينِ كالفرصادِ

ما كنتُ أحسبنى أراعُ لحادثٍ
حتى مُنيتُ بهِ فأوهنَ آدى

أبلتنىَ الحسراتُ حتى لم يكدْ
جسمى يلوحُ لأعينِ العُوَّادِ

استنجدُ الزفراتِ وهى لوافحٌ
وأسفهُ العبراتِ وهى بوادِ

لا لوعتى تدعُ الفؤادَ ولا يدى
تقوَى على ردِّ الحبيبِ الغادى

يَا دَهْرُ فيمَ فجعتنى بِحَلِيلَةٍ
كانتْ خُلاصَةَ عُدَّتى وَعتادِى
إنْ كنتَ لم ترحمْ ضنَاى لبعدِهَا
أفلاَ رَحِمْتَ مِنَ الأسى أوْلادِى ؟

وفى هاتين القصيدتين أنموذجان لأنات وجدانه كلما مسه المكروه وجارت عليه صروف الدهر بغدرها ونكباتها المفجعة ـ أما إذا تركت له هذه النكبات متنفسا وتذكر مغامراته الحربية أخذ يفخر بثبات عزيمته ويحدثك فى صدق عن شتى الشيم التى تتجاذب نفسه وهو يخوض غمار المعارك فى غير وجل فتأتى الأحداث مصدقة لما قاله فى هذا الصدد إذ تسجل له فى سفر التاريخ العام صفحة خالدة من صفحات البطولة النادرة ـ وإليك الشاهد على ذلك فى الأبيات التالية :

سِوَاى بِتَحْنَانِ الأغَارِيدِ يَطْرَبُ
وغيرى باللذاتِ يَلْهُو ويعجبُ
وما أنَا ممن تأسرُ الخمرُ لُبَّهُ
ويملكُ سمعيهِ اليَرَاعُ المُثَقَّبُ
ولكن أخُوهَمٍّ إذا ما تَرَجَّحَتْ
بهِ سورةٌ نحو العُلى رَاحَ يَدْأبُ
نَفَى النومَ عَنْ عينيهِ نَفْسٌ أبِيَّةٌ
لها بينَ أطرافِ الأسِنَّةِ مطلبُ
بعيدُ مناطِ الهَمِّ فالغربُ مشرقٌ
إذا مَا رَمَى عينيهِ والشرقُ مغربُ

لَه غَدَوَاتٌ يَتبعُ الوحشُ ظِلَّها
وَتَغْدُو على آثارِها الطيرُ تنعبُ
همامةُ نفسٍ أصغَرتْ كلَّ مأربٍ
فكلفتْ الأيامَ ما ليسَ يُوهَبُ
وَمَنْ تكنِ العَلْياءُ هِمةَ نفسه
فكلُّ الذي يَلْقَاهُ فيها محببُ
إذا أنا لم أُعطِ المكارمَ حقَّها
فلا عزَّني خالٌ ولا ضمَّني أبُ

إلى أن يقول :

خُلقتُ عَيُوفاً لا أرى لابن حرةٍ
لَدَيَّ يداً أُغضي لها حينَ يَغْضَبُ
فلستُ لأمرٍ لم يَحِنْ مُتَوَقِعاً
ولستُ على شيءٍ مضى أتعَتَّبُ

وفى هذه الأبيات وصف وتصوير روحانى بليغ يزينه عدد من الحكم القمينة بأن تضرب بها الأمثال ـ منها قوله « ومن تكن العلياء همة نفسه ـ فكل الذى يلقاه فيها محبب ـ ومنها تعاليه فى كبرياء نبيلة : خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة ـ لدى يدا أغضى لها حين يغضب ـ ومنها البيت الأخير الذى يدل على تمسكه بالواقعية دون التعلق بالأوهام والتمنيات والرضى بما وقع دون الأسف على ما فات .

وعندما ينتهى من شرح نفسيته على النحو المدون قبل يعرض عليك صورة رائعة للموقعة ويصف لك موقفه منها فيقول :

وَبَحْرٌ مِن الهَيْجَاءِ خُضْتُ عُبَابَهُ
ولا عَاصِمٌ إلاّ الصَفِيحُ المُشَطَّبُ

تظلّ به حمرُ المنايا وسُودُهــا
حَوَاسِــرَ فى ألوانِهــا تتقلبُ

تَوَسَّطْتَهُ والخيلُ بالخيـــلِ تلتقى
وبيضُ الظُبَــا فى الهامِ تَبدُو وتغربُ

ولم يستعص على البارودى وصف عاطفة الحب وما يلابسها من الانفعالات النفسية المعقدة فراح يشرحها فى مناسبات متعـددة شرحا سلسا واضحا فجـاء الشرح ملما بجميع النواحى التى تتدخل من هذه العاطفة فى مظاهر الشعور الثلاثة: الوجدان والإدراك والنزوع - فهو إذا اشتكى الهجر ولوعته أخذ يصف ويصور مايقاسيه من ألم البعد فى أبيات تمت فى مبناها إلى علم النفس بصلة وثيقة فيقول:

صلةُ الخيـالِ على البعادِ لقـاءُ
لو كانَ يملكُ عَيْنِىَ الإغفَاءُ

يا هاجرى منْ غيرِ ذنبٍ فى الهوى
مهلاً فهجـرُكَ والمنـــونُ سواءُ

أغرَيْتَ لحظَـكَ بالفـؤادِ فشفَّهُ
ومنَ العيونِ على النفوسِ بَلاَءُ

هى نظرةٌ فامْنُنْ عَلَىَّ بأختِها
فالخمرُ من ألمِ الخمَارِ شِفَاءُ

أنـا منك مطوىُّ الفؤادِ على جوى
لولا الدموع ذكتْ به الحَوْبَـاء

لا أنتَ ترحمني ولا نارُ الهوى
تخبو ولا للنفسِ عنكَ عزاءُ
فانظرْ إليَّ تجد خيالةَ صورةٍ
لم يبقَ فيها للحياةِ ذماءُ
رَقَّت لىَ الورقاءُ فى عذباتِها
وبكت علىَّ بدمعِها الأنداءُ
وتحدثت رسلُ النسيم بلوعتى
فلكلِّ غصنٍ نحوها إصغاءَ
كَلَفٌ تناقلهُ الحمامُ عن الصبَا
فَصَبَتْ إليهِ الغيدُ والشعراءُ
فبقلبِ كلِّ فتىً غرامٌ كامنٌ
وبعطفِ كلِّ مليحةٍ خيلاءُ
فدعِ التكهّنَ يا طبيبُ فإنما
دائى الهوى ولكلِّ نفسٍ داءُ
ألمُ الصبابةِ لذةٌ تحيَا بها
نفسى ودائى لو علمتَ دواءُ

ففى مستهل هذه الأبيات يوضح البارودى الصلة النفسية التى تربط البصيرة الواعية فى وجدان الإنسان بالمخيلة التى تستطيع بعث المرئيات الماضية فتتمثل أمام الذى يستوحيها صوراً كاملة حتى ولو أغمض عينيه - ويبين البارودى فى البيت الثالث أن ماتراه العيون يؤثر على النفس تأثيرا روحيا فيفرحها إذا كان مفرحا ويحزنها ويؤلمها إذا كان ضاراً حتى ولو مضى على وقوعه وقت غير قصير. فيثير فى العقل الباطن الأسى والشجون كلما إسترجعته المفكرة فى منطقة الحس

العقلية التى يصدر عنها التأثير إلى المجموعة العصبية وسرعان ماتستيقظ بواطنها فى أعماق الوجدان النفسى ويظهر انفعالها فى كيان الإنسان العام . وفى البيت الأخير يشير البارودى موضوع ظاهرة نفسية أخرى هى أن الإنسان يتعود على الألم إذا استمر هذا الألم مدة طويلة وقد ينسى وقعه تماما إذا ألهته عنه ظاهرة نفسية أخرى تتغلب عليه — فالمريض بداء المفاصل مثلا ينسى ألمه إذا شده الانتباه الكلى للعبة الشطرنج التى تلذه ممارستها — وكذلك الصبابة إذا غمرت القلب بفيضها واستمرت قوية تصبح لذة يتذوقها العاشق ويستعيض بلذتها عن وصال من يحب — وهكذا يعرض البارودى عليك ظاهرات من علم النفس الروحانى فى سياق أشعاره علاوة على الحكم التى تتخلل هذه الأشعار الوصفية التصويرية الممتعة .

وجاء البارودى فى النسيب بالطريف العذب ويظهر ذلك فى قوله :

مَا لِقَلْبِي مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ يَهْدَا
أَوَ لَمْ يَكْفِ أَنَّهُ ذَابَ وَجْدَا ؟
وَرَمَتْنِى بِنَارِهَا الغِيدُ حتى
تركتنى فى عالِم الحبّ فَرْدَا
فَضُلُوعِى مِنْ قَدْحَةِ الزِنْدِ أَوْرَى
وَدُمُوعِى مِنْ صَفْحَةِ الغَيْمِ أَنْدَى

إلى أن يقول :

آهِ مِنْ لَوعَةٍ أَطَارَتْ بقلبى
شُعْلَةً شفت الجوانحَ وَقْدا
كلّما قلتُ قد تناهى غرامى
عَادَ مِنْهُ ما كانَ أَضْمَى وَأَرْدَى

فهو فى هذه الأبيات يبدو وله قلب تحرقه الصبابة بنارها ويغالى الحب فى تعذيبه ـ وكلما ظن أن الغرام قد خبا فى فؤاده يجده تأجج أكثر من ذى قبل ـ وإذا كان فى هذا الشعر بعض المغالاة اللفظية فإن تماسكه الفنى الأصيل يجعل هذه المغالاة ضعيفة الأثر فى الموسيقى الغزلية التى تنبعث من سياقه الذى يعبر فى دقة متناهية عن وصف حالته النفسية فى وضوح جلى .

وأظن أن أبلغ شعراء النسيب لم يتفوقوا عليه فى شىء إذا قارنا شعرهم فى هذا اللون من الشعر بسحر البيان وعذوبة اللفظ والجرس ومتانة المعانى فى أبياته التى يقول فيها :

يَا غَزَالاً نَصَبَتْ أَهْدَابُهُ
بِيَدِ السحرِ لِقَلْبِى شَبَكَا
قَدْ مَلَكْتَ القلبَ فاستوحِ بِهِ
أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى مَنْ مَلَكَا
لا تُعَذِّبْهُ عَلَى طَاعَتِهِ
بَعْدَ مَا تَيَّمْتَهُ فَهُوَ لَكَا
غَلَبَ اليأسُ على حُسْنِ المُنَى
فيكَ واستولى على الضَحِكِ البُكَا
فإلى مَنْ أشْتَكِى مَا شَفَّنِى
مِنْ غرامٍ وَإليكَ المُشْتَكَى؟
سَلَكَتْ نفسى سَبِيلا فى الهوى
لَمْ تَدَعْ فيهِ لغيرى مَسْلَكَا

فهذه الأبيات تعبر فى صدق عن الغزل الراقى وهى قمينة بأن يضع الملحنون لها لحنا يناسبها لتغنى فتطرب السامعين بمعانيها الرقيقة وموسيقاها إذا

أتى اللحن موافقا لهذه المعانى التى لها رنين فى الأذن يطرب السمع والحجا والفؤاد.

هذا هو البارودى الوصاف المصـــور الذى يزين وصفه وتصويره الصدق فيما يقول عن المرئيات المادية التى تعرض لعينيه ويجمّل وصفه وتصـــويره للأحاسيس التى تخالج نفسه التعبيرات ذات المعانى المنتقاة — فهو إذا وصف الحرب فلأنه خاض غمارها وأسهم فى انتصارات الجيوش المصرية بنصيب مرموق — وهو إذا فاخر فلأنه جدير بالفخر لمعرفته الحقة لقدر نفسه — وهو إذا رثى فلأنه فقد الأعزة وتوجع وتألم لفقدهم — وهو إذا تغزل فلأنه أحب فعبر عما يعتمل بقلبه من هوى وصبابة وهيام :

ولم يعد جادة الصواب النقـاد القائلون بأن البارودى كان نجما طارقـا جديدا له هالة من الضياء المشرق أرسلها فبددت ظلمات التخلف والجمود التى رانت على الشعر العربى فكادت تخمد أنفاسه — ومن ثمّ كان البارودى أبا للشعر العـربى الحديث لأنه يتمتع بخصائص هذه الأبوة الحـادبة دون مدافع — فقد كان فى عصره جديدا فى شعره وشخصيته وصفاته الذاتية والاجتماعية والسياسية والفنية حتى حينما يكون متأثرا بالأقدمين فى الفروسية والشهامة والإقـــدام والكرم والنزعات العربية الأصيلة أو فى السير على عمود الشعر والوقوف على الأطلال ومناجاة الرسوم والآثار — وإنك لتلمس ذلك كلـه حينما تتعرف على تفاصيل حياته وتستقصى جوانب فنه فى مختلف ألوان شعـره فقد كان فى عصره ظاهرة فنية لم تخضع لقوانين التطـور — فكانت شاعريته متدفقة فى غزارة — وكان إذا تغزل لا يبتذل وإذا أحب فإن حبه ينساب وفى انسيابه العفة — وهو لا يحب فتاة واحدة معينة وإنما يحب فى المرأة صفات ترفعها فى عينيه وتجلسها فى فؤاده — فأحب جمالها كما يحبه الفنـان الملهم — وتأجج لهيب الحب فى قلبـه الكبير إبان سنوات النفى بجزيرة سيلان حيث فاضت أشعاره بالحب الكبير : حب ذكرياته وأهله وولده ووطنه وتراب هذا الوطن — وحبه للناس والخير والجمال ومباهج الطبيعة — وقد وصف وصور جميع هذه الأحاسيس الوجدانية أبرع وأدق وصف وتصوير.

وقد صدق شاعر النيل ـ حافظ إبراهيم ـ فى رثاء محمود سامى البارودى إذ قال فى قصيدته التى نشرت فى ٢٢ من يناير عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) :

لبَّيْكَ يامُؤْنِسَ المَوْتَى ومُوحِشَنَا
يَافَارِسَ الشِّعْرِ والهَيْجَاءِ والجُودِ

مُلْك القلوب ـ وأنْتَ المُسْتَقِلُّ بِهِ
أبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مِنْ مُلْكِ (ابن داود)

لَقَدْ نَزَحْتَ عَنِ الدُّنْيَا كما نَزَحَتْ
عَنْهَا لَيَالِيكَ من بِيضٍ ومِنْ سُودِ

أغْمضتَ عينَيْكَ عَنْهَا وازْدَرَيْتَ بِهَا
قَبْلَ المماتِ ولَمْ تحفلْ بِمَوْجُودِ

لَبَّيْكَ يا شاعِراً ضَنَّ الزَّمَانُ بِهِ
عَلَى النُّهَى والقَوافِى والأناشيدِ

تَجْرى السلاسةُ فى أثنَاءِ مَنْطِقِهِ
تحتَ الفصَاحَةِ جَرْىَ المَاءِ فى العُودِ

فى كلِّ بَيْتٍ لَهُ مَاءٌ يَرِفُّ بِهِ
يَغَارُ مِنْ ذِكْرِهِ ماءُ العَنَاقِيدِ

لو حَنَّطُوكَ بِشِعْرٍ أنْتَ قَائِلُهُ
غَنِيتَ عَنْ نَفَحَاتِ المِسْكِ والعُودِ

حَلَّيْتَهُ بَعْدَ أن هَذَّبْتَهُ بِسَنَا
عِقْدٍ بمَدْحِ رَسُولِ اللهِ مَنْضُودِ

كَفَاكَ زاداً وَزَيْنَاً أنْ تَسِيرَ إلى
يَوْمِ الحِسَابِ وَذَاكَ العِقْدُ فى الجِيدِ

لَبَّيْكَ يَاخَيْرَ مَنْ هَزَّ اليَرَاعَ وَمَنْ
هَزَّ الحُسامَ وَمَنْ لَبَّى وَمَنْ نُودِى

إنْ هُدَّ رُكْنُكَ مَنْكُوبًا فَقَدْ رَفَعَتْ
لكَ الفَضِيلَةُ رُكْنًا غيرَ مَهْدُودِ

واختتم هذا البحث بثلاثة أبيات قالها البارودى وهو فى ميعة الشباب يسجل لهوه وتمتعه بالجمال فى مداعبته للحسان ـ وفى هذه الأبيات الثلاثة صورة كاملة تستحق عن جدارة أن تعبر عنها ريشة المصور برسم يوضع فى إطـــار مذهب ويحلى به أحد جدران منازل عشاق الأدب والفن التشكيلى البديع فهو يقول :

سَرَتْ على التهادى مثْلَ المهـاةِ بِشُبْرَهْ
فقلتُ هَلْ مِنْ وِصَالٍ يَكُونُ للحبِ أجْرَهْ ؟
فاستضحكتْ ثم قالتْ عَلَّى الخديعةِ بُكْرَهْ !

٥ ـ الشاعر إسماعيل صبرى

وتأثره بالشاعرين

الشريف الرضى ـ ولامرتين Lamartine

ولد إسماعيل صبرى بالقاهرة فى ١٦ فبراير عام ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) وتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة المبتديان ودروسه الثانوية فى المدرسة التجهيزية وأتم دراسته فى الإدارة والألسن عام ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) . وكان فى هذه الأثناء قد نبغ فى فنين كان لهما أعمق الأثر فى مجرى حياته وهما : فن الشعر وفن تحسين الخط . وكان نبوغه فى كل منهما نبوغا قويا يتعدى حدود المألوف .

فنبوغه فى الخط كاد أن يجعل منه مدرسا لهذا الفن كما كان يريد له بعض أولى أمره لولا أن ناظر المعارف فى ذلك الحين على باشا مبارك رأى فى نجابته غير ذلك وقال له : « أنا ضنين بذكائك وعلمك أن تنقطع السبيل بهما فيقفا عند غاية لا تخلق لمثلك ـ وإنى أعدُّك لما هو أسمى رتبة لك وأجدى على الأمة من حيث الانتفاع بفضلك وكفاءتك » ـ وظل على باشا مبارك يتعهده برعايته حتى أتم دراسته ثم سافر فى بعثة إلى مدينة « إكس » بفرنسا ونال من كليتها إجازة (الليسانس) فى الحقوق خلال شهر أبريل عام ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) .

أما عن نبوغه فى الشعر فقد ظهر فى حرص « مجلة الروضة » على نشر قصائده وتقريظ أسلوبه وخياله الشعرى ـ ولم يكن فى ذلك الحين قد جاوز السادسة عشرة من عمره ـ وكانت مجلة الروضة تضم ما يدبجه أقلام العلماء وكبار الأساتذة وفحول الشعراء والنابغين من الطلاب ـ وظل إسماعيل صبرى يبعث بقصائده وهو فى فرنسا إلى مجلة الروضة للنشر وكانت تصفه بأنه أحد نجباء الإرسالية المصرية فى فرنسا وأنه المتفنن فى فنون الأدب كما كانت تضفى عليه غير ذلك من الألقاب التى تبرز قدره وعبقريته المبكرة .

ويمثل هذا التقريظ التيم ما كانت صحيفة « الوقائع المصرية» فى تلك الأيام تنشر إلى جانب الأخبار الداخلية والخارجية مقالات تتناول شتى الموضوعات وكانت تقدم لقصائده التى تنشرها بقولها : « من أبدع ما ورد من كلام الأفندية التلامذة · المنتظم ولا جرم فى سالك كلام الأساتذة ، ما جادت به قريحة الذكى النجيب ، الذى تحسن رواية كلامه وتطيب · إسماعيل أفندى أحد نجباء الفرقة الأولى بمدرسة الألسن ، وهو أقوى دليل على استعداده فى المعارف وزيادة اجتهاده ، مع مبالغة معلميه فى الثناء عليه» ـ وكان هذا الثناء بمناسبة القصيدة التى نظمها فى ٢ سبتمبر عام ١٨٧٣ م (١٢٩٠هـ) ونشرت فى ذلك التاريخ ويقول فيها :

أَطْلِعِ الكأسَ كوكباً فى ازدهاءِ
وأَدِرْهَا فى هالةِ النُّدَمَاءِ
عَاطِنِيهَا صِرْفاً ولا تُطْفِىءْ النُّو
رَ الذى زانَ حُسْنَهَا بالماءِ
مجلس فيه ماجلا صدأ السَّمْ
ع وَقَرَّتْ بهِ عُيُونُ الرائى
مِنْ مُغَنٍّ يَغزُو الهمومَ بِأَوتَا
رٍ فَتَنْجَوى أَعِنَّةُ الأهوَاءِ
وغزالٍ أحلَّنِى مِنَ الأمنِ يَسعى
بكئوس الغَرامِ والصَهْبَاءِ

والواقع هو أن هذه الروح الغزلية العذبة وهذا الجرس الحلو يعبران عن صفاء نفسه ورقة طبعه وخفة ظله وملاحة مجالسته وأناقة مظهره ومخبره .

فقد كان شاعراً قاهرى المولد والتعليم مدنى النشأة والتكوين فرنسى الدراسة والتثقيف .

وظلت الصحف والمجلات فى عصره ومن بينها مجلة الروضة والوقائع المصرية وجريدة المؤيد ترحب بنشر قصائده بعد عودته من فرنسا .

كانت القـــاهرة فى تلك الفترة تعج بكثير من الأدباء والشعراء والكتاب والصحفيين والمنتمين لكل هؤلاء من أصحاب المهن الأخرى من مصريين وعرب ـ فكانت عاصمة مصر كخلية النحل حافلة بالحركات الأدبية على الرغم من ظروف الاحتلال الإنجليزى وحكم الاستعمار الغاشم ـ وكانت الحلقات الأدبية والندوات الثقافية تجمع هؤلاء فينبعث فى أرجائها الحديث الطلى والفكاهة العذبة وتلقى فى أثنائها الدروس المفيدة الممتعة ـ ولم تكن المنازل والقصور هى وحدها التى تجمع هؤلاء الأدباء والشعراء بل كان اجتماعهم يتم فى المقاهى مثل « قهوة المضحكخانة الكبرى » فى شارع الخليفة بمنطقة السيدة زينب ـ وهى فرع من «المضحكخانة العلية» التى كانت تعقد بمنزل الحاج حسن الآلاتى وكان يختلف إليها عدد كبير من الأدباء والعلماء مثل عبد الله باشا فكرى ـ وأحمد باشا طلعت الكبير ـ وأحمد باشا راشد ـ وحسن بك الشمسى ـ والشيخ أبو النصر المنفلوطى ـ وأحمد سمير ـ وأمين باشا فكرى ثم كثرت هذه المنتـــديات وتنوعت فصار الأديب يجد فيها ما يوائم ذوقه الأدبى ويرقى مداركه الثقافية والاجتماعية .

واشتهرت منازل طائفة من الوجهاء بندواتها الأدبية والعلمية مثل ندوة السيد توفيق البكرى ومحمود سامى البارودى ومحمد عبده وصالون السيدة نازلى فاضل وصالون الآنسة مىّ زيادة وكرمة ابن هانىء فى دار أحمد شوقى ونادى القلم وعيادة الدكتور محجوب ثابت .

وكانت دار إسماعيل صبرى من أهم هذه المنتديات الثقافيـــة التى تضم عشاق الأدب والفن والموسيقى ـ غير أن صاحب هذه الدار كان يأوى إلى مجالس الأدب

الأخرى فكان يتردد على صالون الآنسة مىّ زيادة أيام الثلاثاء فى مثابرة دائمة لدرجة أنه اضطر إلى السفر مرة فى يوم انعقاد الصالون فكتب إلى مىّ يعتذر:

رُوحى عَلَى دُورِ بَعْضِ الحَىّ حَائمة
كَظَامِىءِ الطَيرِ تَوَّاقًا إلى المَاءِ
إنْ لَمْ أمتّعِ بمىٍّ نَاظرىَّ غَداً
أنكرتُ صُبْحَكَ يَا يَوْمَ الثُلاثَاءِ

وما تزال نشأة إسماعيل صبرى الأولى وثقافته فى طفولته وسنى نبوغه فى مرحلة صباه الغض مجهولة غير أن الأخبار القليلة عن هذه الفترة تقول إنه قرأ ديوان عمر بن الفارض وهو صغير ومن ثمّ اكتسب المحسنات البديعية التى ظهرت فى بواكير قصائده ـ وإلى جانب تأثره بابن الفارض فإن الشاعر البحترى كان من الشعراء المفضلين عنده وكان مدمنا لقراءته مفضلا له على غيره من الشعراء ولذا نجد فى شعره نواحٍ عديدة يستطاع الاستشهاد بها فى مجال المقارنة بينه وبين البحترى وإن كنا نجد فى قصائده ما يصلح للمقارنة كذلك بينه وبين البهاء زهير من حيث خفة الروح والسهولة وبينه وبين الشريف الرضى من حيث العفة والسماحة ـ غير أن كل هذه الشواهد فى المقارنة لا تعنى أن شاعرية إسماعيل صبرى قد أخذت منابعها من نظم هؤلاء الشعراء أو من بعض الشعراء الفرنسيين ولا سيما الشاعر (لامرتين) وإنما تعنى أنها قد عززت اتجاهاته النفسية وساعدت على إنماء فطرته الميالة بطبيعتها إلى الشعر الحىّ المليء بالعذوبة فى السياق وفى المعانى والجرس .

ولنرجع الآن إلى تقصى أطوار حياته العملية بعد عودته من فرنسا ـ فقد عمل فى السلك القضائى بالقاهرة والأسكندرية وعواصم الأقاليم حتى وصل إلى وظيفة النائب العام وكانت هذه أول مرة تسند فيها هذه الوظيفة إلى مواطن

مصرى فى عهد المرحلة الأولى من الاحتـــلال البريطانى لمصر . وكان توليه هذا المنصب فى عام ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ). وقد اشتهر طوال مدة خدمتـــه فى القضاء بالنزاهة وحب العدل فى جميع مامارس من أعمال فى غير تحيز أو محاباة - واشتهر فى حياته الاجتماعية بالظرف والتواضع فى غير استكانة وحب الحرية - فقد أثر عنه أنه قال : « أحب الحرية فى ثلاث - فى المرأة تحت ظل زوجها - وفى الرجل تحت ظل شريعته - وفى الوطن تحت ظل الله » .

وعين فى أول مارس عام ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ) محافظا للأسكندرية وبقى يشغل هذا المنصب إلى ٥ من نوفمبر عام ١٨٩٩م (١٣١٧ هـ). وكانت دار المحافظة فى المكان الواقع عند تقاطع الشارع الذى أطلق عليه اسمه وشارع السيد محمد كريم. وكانت مياه البحر فى الميناء الشرقى تصل إلى جدران هذه الدار قبل تشييد رصيف الميناء الذى استغرق المدة الواقعة بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٢م (١٣٢٧ - ١٣٣٠ هـ) إذ لم يكن لجميع المبـــانى الكائنة على يمين المتجه نحو مسجدى البوصيرى، وأبى العباس وجود - وكنت فى عهد الطفولة أمتع النظر (بجلوة ليلة رؤية شهر رمضان) فكان الناس يقفون على جانبى الطريق بين محكمة قسم الجمرك الشرعية الحالية وبين دار المحافظة. وعندما تثبت الرؤية يتحرك الموكب تتقدمه موسيقى الجيش والمشاعل الموقدة بالحطب وأولاد سيدى عبد السلام الأسمر وسيدى ابن عيسى. ويسير الموكب إلى باب المحافظة فيطل المحافظ على الناس محييا ثم يواصل الموكب سيره إلى قصر رأس التين - وما زلت أتمثل صورة الشاعر إسماعيل صبرى وهو يحيى الموكب وأسمع من الناس الثناء على أخلاقه وسجاياه الكريمة وحبه للخير .

وقد أحسنت البلدية إذ أطلقت اسمه الكريم على الشارع الذى يبدأ من الميناء الشرقى (شارع ٢٦ يوليو حاليا) ويتجه نحو ضريح سيدى العدوى متقاطعا مع شارع السيد محمد كريم - وكانت دار المحافظة التى عمل إسماعيل صبرى فيها محافظا عند هذا التقاطع وتمتد فى اتساع رقعتها حتى تقاطع الشارع بشارع قصر

رأس التين بالقرب من مسجد سيدى تمراز . ثم يواصل امتداده فيتقاطع مع شارعى الميدان (محمود فهمى النقراشى حاليا) وصفر باشا . وقد أنشىء شارع إسماعيل صبرى فى حوالى عام ١٩٣٠ م (١٣٤٩ هـ) وهدمت فى سبيل استقامته بعض المنازل القديمة .

ولقد حدث لشاعرنا وهو محافظ لمدينة الأسكندرية حادث كاد يودى بحياته — فبينما كان يستقل قطار الرمل عائدا إلى منزله من زيارة الخديوى عباس الثانى اصطدم القطار بقطار آخر فأصيب كثيرون من الركاب وتوفى بعضهم . وقد أغمى على إسماعيل إغماء طويلا وأصيب بارتجاج فى المخ — فكان بعد ذلك كثير النسيان من أثر ذلك كما أصيب برضوض فى كتفه الأيسر — وكان يقول لجاسائه أنه ذاق الموت فى هذا الحادث فوجده لذيذ المـــذاق وتمنى ألاَّ يعود إلى الحياة بعده .

ووصف صديقه عثمان باشا مرتضى أخلاقه فقـــال «كان له عقل راجح متألق وعزيمة تجنح إلى الخير وتستنكر الشر . وشعور فى منتهى الرقة والظرف وميول شريفة راقية جمعت بين الثبات واللين والرقة والتواضع والكرم فى الأخلاق والذوق السليم . وكان كل مظهر من مظاهر روحه أنموذجا صادقا للكمال الإنسانى يبعث فى النفس السمو إلى أسمى معانى الجمال الخلقى الباهر » .

وما من شك فى أن الشاعر إسماعيل صبرى كان أستاذا لشعراء الجيل الحاضر الذائعى الصيت . فقد تتلمذ عليه أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم . ولم ينكر هؤلاء الشعراء فضله عليهم فقال شوقى فى رثائه :

أيَّامَ أمرحُ فى غُبارِكَ نَاشِئاً
نَهْجَ المِهَارِ عَلَى غُبارِ خِصَافِ

أتعلمُ الغنيــاتِ كيفَ تُرامُ فى
مِضمَارِ فضلٍ أو مجالِ قوافِ

ويعترف حافظ بهذا الفضل فيقول فى مرثيته :

لَقَدْ كنتُ أغْشَاهُ فى دَارِهِ
وَنَادِيهِ فيهـا زَهَـا وَازْدَهَرْ
وَأعرِضُ شعْرِى علَى مَسْمَعٍ
لطيفٍ يُحِسُّ نُبُوَّ الوَتَـرْ

ويصرح خليل مطران فى مرثيته بأنه تتلمذ على إسماعيل صبرى وأنه كان أستاذه فيقول:

أىْ صَاحِبَىَّ لَقَـدْ قَضَى
أسْتَاذُنَـا البَـرُّ الحَبِيبْ
فَعَـرَا قِلادتَنَـا - وكَا
نَتْ زِينَةَ الدُّنيَا - شُحُوبْ

وهذه القلادة التى يذكرها خليل مطران هى تلك المجالس الأدبية التى كانت تضم الأستاذ وتلاميذه فى داره وفى غير داره يستمعون إليه فى إجلال وإكبار ويجدون فى حديثه الشاعر والأديب الذواقة والحكيم الناقد .

وكل من يتتبع شعر إسماعيل صبرى ويستوعبه يحس على الفور بأنه يمتاز بفصاحة اللفظ وجزالته ورونق المعانى وجدتها وقوة الخيال ودقته . ولكل هذه الميزات اعترف له جميع شعراء عصره بالإمامة فكانوا يلقبونه « بأستــاذنا » «وشيخ شعرائنا» لأنه كان مثلا يحتذى وعلما به يهتدى - ومن جهة أخرى يمتاز شعره بثلاث وجدانيات تسيطر على نفسيته هى : الحس أو الشعور - والحكمة -

والحماسة ـ وقد تجلت الظاهرة الأولى فى قصائده الغرامية ـ وبرزت الثانية فى مانظمه فى الموت ـ وبدت الثالثة فى مانظمه فى الوطن ـ وقد كانت هذه العوامل الثلاثة المحرك الأساسى لشعوره الفياض فأنطقته بالحكمة الرائعة وأثارت فى صدره الحماسة الشريفة .

أما قصائده فى الحب فهى مقطوعات رشيقة تمثل صورا بهية رائعة من الشعر الغنائى الراقى ـ فهو إذا عمد إلى وصف حبيبته يقول :

إنَّ هذَا الحسَن كالماءِ الذى
فيهِ للأنفسِ رِىٌ وشِفَاء
لا تذُودِى بَعْضَنَا عَنْ وِرْدِهِ
دُونَ بعضٍ واعْدِلى بينَ الظمَاء
أنْتِ يَمٌّ الحسنِ فيهِ ازْدَحَمَتْ
سُفُنُ الآمالِ يُزْجِيهَا الرَّجَاء

* * *

أنْتِ رُوحَانِيَّةٌ لاَ تَدَّعِى
أنَّ هذا الشَكلَ مِنْ طِيْنٍ وَمَاء
وانْزَعِى عَنْ جِسْمِكِ الثَّوْبَ يَبنْ
لِلمَلاَ تكْوِينُ سُكَّانِ السَمَاء
وَأرى الدُنُيَا جَنَاحَىْ مَلَكٍ
خَلْفَ تمثَالٍ مَصُوغٍ مِنْ ضِيَاء

وقد نشرت هذه القصيدة فى سنة ١٩٠١ وترجمت إلى اللغة الفرنسية ضمن مجموعة مختارة من الشعر العربى .

وكان شاعرنا يجد السرور والاستمتاع الحلو خلال المجالس التى كانت تعقد فى دار الآنسة مىّ زيادة ـ ويظن بعض عارفيها أنه قال فيها الأبيات الآتية :

يَارَاحة القلبِ يَا شغلَ الفؤادِ صِلِى
مُتَيَّمًا أنتِ فى الحالين دُنْيَاه
زِينى النَّدِىّ وَسِيلى فى جَوَانِبِه
لُطْفًا يَعُمُّ رعَايَا اللطفِ رِيَّاه
رَيْحَانَةٌ أنتِ فى صحراء مُجْدِبَةٍ
مِنَ الرياحين حَيَّانَا بِهَا اللهُ
إنْ غَابَ سَاقِى الطِلا أوصَدَّ لاحَرَجٌ
هذَا جَمَالكِ يُغْنِينَا مُحيَّاه

وليس أبدع فى الشعر الغزلى من هذه الصورة البهية التى يرسمها بشعره فى الابيات الآتية وكأنها رسمت بريشة رسام بارع إذ يصف حسناء تعرض دائما لذاكرته وقد عرفها فى أيام الشباب فيقول :

تَمْشِى تُذَكِّرُنَا الشبابَ وعَهْدَهُ
حَسْنَاءُ مُرْهَفَةُ القَوَامِ فَنَذْكُرُ
هيفاءُ أسكَرَهَا الجمالُ وبَعْضُ ما
أوْفَى على قدْرِ الكِفَايَةِ يُسْكِرُ
تَثِبُ القلوبُ إلى الرءوسِ إذَا بَدَتْ
وَتُطِلُّ مِنْ حَدَقِ العيونِ وتَنْظُرُ
وَتَبِيتُ تَكْثُرُ بالنُحُورِ قَلائِدٌ
فإذَا دَنَتْ مِنْ نحرها تَسْتَغْفِرُ
وتَزِيدُ فى فمِهَا اللآلىءُ قِيْمَةً
حَتَّى يَسُودُ كبيرهُنَّ الأصغرُ

ومن شعره الغزلى الرقيق تلك الشكوى التى كانت تصدر عن قلب عامر بالحب النقى والعاطفة الصادقة الإحساس فيناجى هذا القلب ويلومه فى أبيات هى آية من آيات الشعر العربى :

أقصِرْ فؤادى فما الذكرى بنافعةٍ
ولا بشافعةٍ فى ردِّ ما كانا

سلاَ الفؤادُ الذى شاطرتَهُ زمنا
حملَ الصبابةِ فاخفقْ وحدَكَ الآنا

ما كانَ ضرّكَ إذْ علّقتَ شمسَ ضحى
لو ادّكرتَ ضحايا العشقِ أحيانا

هلاّ أخذتَ لهذا اليوم أهبتَهُ
مِنْ قبلِ أنْ تُصبحَ الأشواقُ أشجانا

لهفى عليكَ قضيْتَ العمرَ مقتحما
فى الوصلِ ناراً وفى الهجرانِ نيرانا

وإذا توجع فإنما ينفث ألم الحب وحرارة الشوق فى أبيات هى من عيون ما قيل فى التوجع والشوق التوى فيقول :

يا آسى الحىِّ هلْ فتّشتَ فى كبدى
وهلْ تبيّنْتَ داءً فى زواياها

أوّاهُ من حرقٍ أودتْ بمعظمِها
ولمْ تزلْ تتمشّى فى بقاياها

ياشوقُ رفقاً بأضلاعٍ عصفْتَ بها
فالقلبُ يخفقُ ذعراً فى حناياها

وتكاد الأبيات الآتية تؤكد أنه كان يكن للآنسة مي عطفاً وحناناً لا يتلان عن الهيام والوله ـ فاسمعه يقول فى هذا الصدد دون أن يفصح عن حبيبة قلبه ولكنه يريك صورة ترسم هذه الحبيبة الجميلة فى قصرها الذى جعلت منه منتدى الأدب وقد أخذت تنثر درر القول من فمها ـ فيقول :

يا ظَبْيَةً من ظِبَاءِ الأنْسِ رائعةً
بَيْنَ القُصورِ تَعَالى اللهُ بَارِيكِ

هل النعيمُ يساوى يومَ أراكِ بِهِ
أوْ ساعةٍ بِتُّ أقضيها بِنَادِيكِ ؟

وَهَلْ يَعيدُ عَلَيَّ العمرَ واهبُهُ
إنْ لم يجمِّلْهُ نَظْمُ الدُّرِ مِنْ فِيكِ ؟

إنْ قَابَلَتْكِ الصَّبَا فى مِصْرَ عَاطِرَةً
فَأَيْقِنِى أنها عَنِّى تُنَاجِيكِ

وأنها حملتْ فى طىِّ بُرْدَتِها
قلباً بَعَثتُ به كيما يحييك

وفى هذه الأبيات نلمس التقارب بينه وبين جميل بن معمر إذ يقول لبثينة :

وسَاعةٍ مِنك ألهُوهَا وإنْ قصرت
أشهَى إلىَّ من الُدنيَا وما فيهَا

وهذه الصورة البديعة تكاد تكون واحدة لهذه الفتاة التى يعشقها فهى ربيبة القصور مترفة وهو يشتاق إليها كلما ابتعد عنها وعن مجلسها الأنيس وهو لا يبغى منها سوى أن يكون بقربها وفى حمى رضاها وفى كنف ناديها . ومن خلال تصويره لها نستبين أنها فتاة حضرية بل قاهرية ومن ثمَّ نستدل على أن شاعرنا ناعم مترف

حتى فى حبه وفى عشقه ولا يريد إلاّ أن تكون معشوقته منعمة مترفة مثله — وهو يستنشق النسيم فى شذاها ويلمس الكأس فى لماهـــا ويبلغ الغاية فى رضاها فيناجيها قائلا :

أصبو إليك إذا النسيم سرى يُمثِّلُ لى شذاك
أو دارت الكاسات بالصهباء تخبر عن لماك
وأعدّ قربك مشتهاى وغايتى القصوى رضاك

أما فى الحكمة فلشاعرنا أبيات تخبر عن فلسفته فى الحياة وزهده فيها — فعندما يبسط هذه الفلسفة يفعل ذلك فى صوفية عميقة الدلالة تنم عن نفس مؤمنة بالله وبقوته وبعفوه ورحمته فينشد فى سنة ١٩١٣ بعنوان « إلى الله »:

يا ربّ ! أين ترى تقام جهنّم
للظــالمين غــداً وللأشرار؟

لم يُبقِ عفوك فى السموات العُلى
والأرض شبراً خاليـًا للنار

يا ربّ ! أهلنى لفضلك واكفنى
شطط العقول وفتنة الأفكار

ومُرِ الوجود يَشفّ عنك لكى أرى
غضب اللطيف ورحمة الجبّار

يا عالم الأسرار حسبى محنة
علمى بأنك عالم الأسرار

أخلِق برحمتك التى تسع الورى
ألاّ تضيق بأعظم الأوزار

وكان قد قال فى سنة ١٩١١ بعنوان «الأمل فى الله» :

أنـا يا إلهى عند بابك واقفٌ
لا أبْتَغى عنـه الزَّمانَ عُدُولا
ما جئتُ أطلب أجرَ ما قدمتـه
حاشا لجودِكَ أنْ يكون قليلا
عَظُمَتْ آمـالى وَصَغُرَتْ الورَى
مَنْ ذا الهَا إنْ لم تكُ المـأمولا
إنى ليعجبنى وقـوفى سائلا
إنْ كنتَ أنتَ السَّيدَ المسئولا

وفى عبارات هذه الأبيات مناجاة صوفية خالصة لخالق السموات والأرض يستطيع أى إنسان أن يناجى بها ربه أيا كان دينه .

ومن فلسفته الزاهدة حكمته فى الموت الذى يرى فيه خلاصا من عذاب الدنيا ومن ثمَّ فهو لايخشـاه وينصح بنى الإنسان بألاَّ يستولى الخوف على أفئدتهم من استقباله :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فارْجعْ إلى الأرْ
ضِ تَنَمْ آمِناً مِنَ الأوْصَابِ
تِلكَ أمٌّ أحْنَى عَليكَ مِنَ الأ
مِّ التى خلَّقَتكَ للأتعَابِ
لا تخَفْ فالمماتُ لَيْسَ بِماحٍ
مِنكَ إلاَّ ما تَشْتَكى من عذابِ
وَحياةُ المَرْءِ اغترابٌ فإنْ ما
تَ فقَدْ عادَ سَالِمًا للترابِ

وفى هذه الأبيات الحزينة ترتسم العاطفة بتلك الابتسامة المرة التى تبدو على محياه فتنم عن زفرة مكبوتة وقفت عند شفتيه ودمعة جمدت فى عينيه - ويقول من فلسفته فى الموت :

مقابرُ من ماتوا مواطنُ راحة   فلا تكُ إثْر الهالكين جزوعا
وإنْ تبك مَيْتاً ضمَّه القبر فادخره   لميْتٍ على قيد الحياة دموعا

وإذا خاطب دواته أشاد بخدام العلم والمرشدين الصالحين وندد بالظلم والظالمين فيخاطبها بهذه الأبيات :

يَا دَوَاةُ اجْعَلى مِدَادَكِ وِرْدًا
لوفودِ الأقْلامِ حِينًا فَحِينَا
ولْيَكُنْ كالزمَانِ حَالاً وَحَالاً
تَارَةً آسِنًا وأخْرَى مَعِينَا
أكْرِمى العِلْمَ وامْنَحِى خَادِمِيه
مَاءَكِ الغَالِىَ النَّفِيْسَ الثَّمِينَا
وابْذُلِى الصَّافى المُطَهَّرَ مِنْه
لِهُـــدَاةِ السَّرَائِرِ المُرْشِدِينَا
وإذَا الظَّالِمُ والظَّلامُ استَعانَا
يَوْمَ نَحْسٍ بأجهلِ الجاهلينَا
وَاسْتمدا من الشُّرُورِ مِدَاداً
فاجعليه منْ قِسْمَةِ الظَّالِمِينَا
واقْذفى النُّقْطَةَ التى بَاتَ فيها
غَضَبُ القاهرِ المُذِلِّ كَمِينَا

لِيراعِ امرىءٍ إذا خطَّ سَطْراً
نَبذَ الحقَّ وارْتضى المَيْنَ دِينا

ويعود شاعرنا إلى تلك السويداء التي تستولى على وجدانه فتجعله يرى الدنيا بمنظار قاتم ويرى فى ساعاتها المتتالية سلسلة من العذاب والشقاء ويرى فى الموت الخلاص الوحيد من ظلمها وقسوتها فيشكو منها بهذه الأبيات:

كمْ ساعــةٍ آلمَنِى مَسُّها
وأزْعجتْنى يدُهَا القاسيهْ
فَتَّشْتُ فيها جاهداً لم أجِدْ
هُنيهــةً واحِــدةً صافِيهْ
وكمْ سَقتْنى المُرَّ أختْتُ لها
فرُحْتُ أشكُوهَا إلى التاليهْ
فأسلمتْنى هــذه عُنْــوةً
لساعةٍ أخرى وبِى ما بِيهْ
ويحكَ يا مِسكينُ هَلْ تشتكى
جارحةَ الظفْرِ إلى ضاريهْ؟
حاذِرْ مِن الساعاتِ ويْلٌ لِمنْ
يأمنَ تلكَ الفِئةَ الطاغيهْ؟
هَذا هُوَ العيْشُ فذُلْ للذى
تجرْعُهُ الساعــةُ والثانيــهْ
يا شاكِىَ الساعاتِ أسمعْ عَسى
تُنْجِيكَ مِنها الساعةُ القاضِيهْ

وما من شك فى أن هذه السويداء التى تجيش فى فؤاد إسماعيل صبرى ترجع إلى ما قاساه من ألم المرض ولاسيما بعد حادث القطار الذى تقدم ذكره والذى نتج عنه إصابته بارتجاج فى المخ ورضوض فى الجسم. ولقد عبّر أبلغ التعبير عن آلامه المبرحة فى هذين البيتين وقد قالهما قبل أن يودع الحياة بقليل ويرحب فيهما بالموت ليفرج كربته ويقضى على عذابه :

يا مَوْتُ هأنَذا فَخُذْ ما أبْقَت الإيَّامُ منِّى
بَيْنى وَبيْنكَ خُطْوَةٌ إنْ تخْطُها فَرَّجْتَ عَنِّى

وعلاوة على ما كان إسماعيل صبرى يتصف به من خلق كريم وذوق فى الأدب والشعر رفيع وأنس ودعابة وصفاء نفس وأناقة فى الملبس ورقة فى الحاشية فقد كان شاعرنا وطنيا مخلصا يعتز بوطنيته فى صدق وحرارة. واشتهر عنه أنه لم يزر إنجليزيا واحدا على الرغم مما كان للإنجليز من سيطرة وسلطة فى عهده. وقد استماله اللورد كرومر لزيارته فلم يفعل. وحينما قيل له إن زيارة هذا اللورد قد ترفعه إلى رياسة الوزارة أجاب قائلا : وماذا تفيدنى رياسة الوزارة غير اغتصاب ضميرى وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه ! !

وحينما كان محافظا للأسكندرية أرادت الحكومة منع الزعيم مصطفى كامل من إلقاء خطبة فى الشعب الأسكندرى بزعم الخوف على الأمن العام وانتهاك القانون فرد على الحكومة رسميا « بأنه المسئول عن الأمن والنظام فى محافظته وأنه يتحمل كل ما يترتب على إلقاء الخطبة من تبعات ». وقد لقى الزعيم مصطفى كامل من الجمهور الأسكندرى ما يستحق من احتفاء وتكريم فى رعاية المحافظ الشاعر الوطنى الغيور .

وتظهر وطنية إسماعيل صبرى وضّاحة فى الأبيات التى نظمها فى وصف أهرام مصر وهى تفيض بالحماسة الوطنية المتأججة . فاستمع له وهو ينشد:

لا القومُ قَومى ولا الأعوانُ أعوانى
إذا وَنَى يَومَ تحصيلِ العُلا وَانِ
ولستُ ـ إنْ لمْ تؤيِّدْنى فَرَاعِنَةٌ
مِنْكُم ـ بفرعون عالى العرش والشانِ
ولستُ جبَّارَ ذا الوادِى إذا سَلِمَتْ
جِبَالُهُ تلكَ منْ غَاراتِ أعوانِى
لاتقرَبُوا النيلَ إنْ لم تعملوا عَمَلاً
فماؤهُ العَذْبُ لم يُخلَقْ لكَسْلانِ
رِدُوا المجَرةَ كدًا دونَ مَوْرِدِهِ
أوْ فاطلُبُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَمْآنِ
وَابْنُوا كما بَنَتِ الأجيالُ قَبْلَكُمُ
لا تتركوا بَعْدَكُمْ فخراً لإنسانِ
أمرتكمْ فأطيعُوا أمرَ رَبِّكُمُ
لا يَثنِ مُسْتَمِعاً عنْ طاعةٍ ثانِ
فالملكُ أمرٌ وَطاعاتٌ تُسابِقُهُ
جَنْباً لجنبٍ إلى غَايَاتِ إحْسانِ
لا تتركوا مستحيلاً فى استحالتِهِ
حتَّى يُميطَ لكمْ عنْ وَجهِ إمْكانِ

وكل هذه النماذج من شعره تدل على أنه صار شاعرا بأدق معانى الكلمة . فقد كان لايحتفل لقرض الشعر إلاّ إذا جاشت فى نفسه العاطفة القوية وسنح لذهنه الخاطر البديع فيختار له الألفاظ الجميلة يُنضِّدُها صيغا رائعة مصقولة ثم يخرجها وكأنها من صائغ الحلى لا من نظم شاعر .

وكان صادق الوجدان يحتفل للموسيقى الشعرية ويهتز لها - فإذا قرأت شعره شعرت بالحاجة إلى الاستماع إلى الغناء - ولقد تغنى حُذّاقُ المغنين في شعره فزادوا بحسن الكلام إطراباً على إطراب.

والذى يقرأ ديوانه كله يحس في قوة أن الإيقاع الغنائى هو النغمة الجميلة العذبة التى يعزفها على قيثارة فنه التى ترقص الناس لأن أنغامها تنسكب في آذانهم وأفئدتهم سهلة الطرب سائغة اللفظ الرشيق .

ويعزو بعض مؤرخى سيرته هذه الموسيقية التى تشع في شعره إلى تأثره بأدب الصالونات حينما كان يتلقى العلم بفرنسا - غير أن هذا التأثر في عقيدتى لم يكن قويا إذ أنه خالط الصالونات المصرية في معظم أوقات حياته الأدبية فتردد على صالون ولىّ الدين يكن والسيدة نازلى فاضل والآنسة مىّ - وكانت داره صالونا أدبيا يحفل بالأدباء والشعراء والكتاب .

ويعد شعر إسماعيل صبرى الغنائى (أو الزجل الراقى) من البوادر الأولى للمدرسة الحديثة في هذا اللون من القريض ومن ثمّ كان شاعرنا رائدها الأول كما كان رائد الشعر الغنائى الفصيح - وإنك لتلمس الموسيقى اللحنية العذبة الجرس في هذه الأبيات :

إرْحمْ يا سيدَ المـلاحْ
مُغْـرَمْ ضَنَـاهُ البِعَـادْ
دمعُهْ على الخـدّ سَاحْ
مِنْ حَرّ نَارِ الفـؤادْ
يَا للّى ابْتَلِيتْ بِالهَـوَى
وِصِرْتْ مُغْـرَمْ أسِـيرْ

خلّى اصطبارك دوا
حتى يهون العسير
الحب حاله عجب
يلذ فيه العذاب
ذكر الحبيب فيه طرب
ودمع عينه شراب

ولقد سمعت هذه الأبيات تغنى من أحد المطربين القدامى المشهورين وتخوننى الذاكرة فى تذكر اسمه واسم ملحنها – غير أن معانيها السامية البديعة السياق تجعلنى أتمنى أن يعدل مؤلفو الأغانى فى الوقت الراهن عن تفتيت ما ينظمون من أزجال وأن يعودوا إلى مثل الزجل المدوّن قبل الذى تستسيغه الآذان ويطرب له السامعون مع الابتعاد عن القصائد المليئة بالحزن والتوجع القاتم المجلل بالسواد.

وسمعت فى عهد الشباب المرحوم محمد عثمان يغنى من تلحينه المقطوعة الغنائية الآتية – وجاء فى ديوان شاعرنا أنه كان يستمع فى ليلة طرب إلى الملحن محمد عثمان وهو يغنى مقطوعة لم ترقه ألفاظها لما تضمه من بعض التعبيرات السخيفة – فطلب بعض الجلساء من إسماعيل صبرى نظم مقطوعة يستغنى بها عن المقطوعة التى تغنى – فاشترط أن تغنى مقطوعته فى الليلة نفسها وقبل محمد عثمان فقام بتلحينها على الفور وأجاد غناءها – وفيما يلى أبياتها العذاب:

أدّك أمير الأغصان ... مِن غير مكابر
وورد خدك سلطان ... على الأزاهر
والحب كله أشجان ... يا ألب حاذر
والصد ويا الهجران ... جزا المخاطر

٭ ٭ ٭

يَا ألْب أدانْت حَبيّْت   وَرْجَعْتْ تِتْنْدَم
صَبَحْت تشْكى مَالإِيْت   لكْ حد يِرْحَم
صَدّأتْ أوْلى وَرَايْت   ذلّ المُتَيّـم
يَامَا نَصَحْتَكْ ونَهيْت   لَوْ كُنْتْ تِفهَم

* * *

أعْرِضْ لحُسْنَكْ أوْرَاءْ   وَاكْتِبْ وَادونْ
وابَات صَرِيعْ الأشْوَاءْ   وَاحْسِبْ وَاخَمِنْ
داهَجْر وصَبابَهْ وِفْرَاءْ   يَا رَبْ هَوِّنْ
وارْحَمْ ألُوبْ العُشّاءْ   داشىء يِجَنِّن

وعندما كان طالبا ألف أغنية لحنها وغناها المرحوم عبده الحولى ومن أبياتها الحلوة الجرس الرقيقة المعانى قوله :

خَلّى صُدُودَكْ وهجـرَكْ
واطْفِى لَهيبى وِوَجْدِى
سَاعَهْ وِصَالكْ وأرْبَكْ
أغْلَى مِنْ العُمْرُ عنْدَى

* * *

يَا نَرْجِسْ الرُوضْ مَالَكْ
سَلّطْتْ لحْظَكْ عَلىّ
إلّى كَوانى جمـالكْ
لكنْ سبَبْهـا عنـىّ

فهلْ بعد هذه العذوبة اللفظية ما يدع المجال للقول بأن الأغانى القديمة كانت

مُسفّة ولا روح فيها تنبض بالحياة ؟ إن فى الأغانى القديمة كلمات وألحانا مازالت ترن فى أذن الزمان فيطرب لها على الرغم من أقوال الشانئين .

وبعد أن شغل إسماعيل صبرى منصب وكيل نظارة الحقانية (وزارة العدل حاليا) طلب اعتزال الخدمة سنة ١٩٠٧ م (١٣٢٥ هـ) وتفرغ للأدب والشعر حتى أعجزته الشيخوخة ـ ووافته المنية فى ٣١ من مارس عام ١٩٢٣م (١٣٤٢ هـ) بداره فى شارع قصر العينى بالغامن العمر حوالى ٧٠ عاما ـ ودفن بالإمام الشافعى بالقاهرة ـ وكانت وفاته بالذبحة الصدرية .

ولم يقصر تلاميذه الشعراء فى رثائه ـ فقال أحمد شوقى يرثيه :

أَجَلٌ وإنْ طالَ الزمانُ مُوافى
أَخْلَى يدَيْك منَ الخليلِ الوافى
داعٍ إلى حقٍ أَهابَ بخاشعٍ
لَبِسَ النذيرَ علَى هُدًى وعفافِ

إلى أن يقول :

فُجِعَتْ رُبَا الوادى بِواحدِ أيْكِهَا
وتجرّعَتْ ثكْلَ الغَديرِ الصافى
فقَدَتْ بنَاناً كالربيعِ مُجيدَةً
وشْىَ الرياضِ وصنْعَةِ الأفوافِ

وقال خليل مطران يصف أخلاقه فى الشعر والحكم :

مَاتَ مَا كَانَ فى
أخلاقِهِ شىءٌ يُرِيبُ

مَاتَ الَّـــذِي مَنْظُـومُـهُ
لِأُولِي النهىَ سِحْرٌ خَلُوبُ
الضَارِبُ الأمْثَــالَ لِيْـ
سَ لَـهُ بِرَوْعَتِهَا ضَرِيبُ
هَلْ فِى الجَـــدِيدِ كَقولِهِ الـ
مأثُـــورِ والمعـــنى جَلِيبُ
(آهَـانِ لَوْ عرَفَ الشَبَـا
بُ وآهِ لَوْ قَدرَ المشِيبُ)

وتوجع حافظ إبراهيم لفقده فأنشد :

نَعَاكَ النُعَاةُ وحُمَّ القَدَرْ
وَلَمْ يُغْنِ عَنَّا وَعَنْكَ الحَذَرْ
طوَتْ ذبحةُ الصَّدْرِ صَدْرَ النَدَّى
فَلَمْ تَطوِ إلاّ سِجلَّ العِبَرْ
فأمسَيْتَ تُذْكَرُ فِى الغَابرِينَ
وإنْ قَلَّ مِثلُكَ فِيمَنْ غَبَرْ

ثم يصف شعره الجزل فيقول :

يَقُولُ فَيُرخِصُ دُرَّ النُّحُورِ
وَيُغْلِى جُمَانَ بَنَاتِ الفِكَرْ
يَسُوقُ القِصَارَ فَيَأْبَى العِثَارَ
وكَمْ مِنْ مُطيلٍ مُمِلٍّ عَثَرْ

قِصَارٌ وَحسْبُ النُهى أنَّهَا
لها مُعْجِزَاتُ قِصَارِ السُّوَرْ

* * *

عُيُونُ القَصَائدِ مِثْلُ العُيُونِ
وشِعْرُكَ فيهن مِثْلُ الحَوَرْ

ومن أقوى ما يستطاع مقارنته بشعر الشريف الرضى من شعر إسماعيل صبرى البيتان الغزليان التاليان :

يَا سَرْحَةً بِجوارِ المَاءِ نَاضِرةً
سَقَاكِ دَمْعِى إذَا لم يُوفِ ساقِيكِ
عارٌ عليكِ وهذا الظِّلُّ مُنتشِرٌ
فَتْكُ الهَجيرِ بمثلى فى نَوَاحِيكِ

وكل من قرأ شعر الشريف الرضى واطلع على هذين البيتين يتذكر على الفور قول الشريف :

يا ظبيةَ البَانِ تَرْعَى فى خمائلهِ
لِيَهنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مَرْعَاكِ
المَاءُ عندَكِ مَبْذُولٌ لِشَارِبِه
وَلَيْسَ يَرْوِيكِ إلاَّ مَدْمَعِى البَاكِى

وليس من شك فى أن إسماعيل صبرى قد تأثر إلى حد ما بشعر الشريف الرضى وتأثر بالأدب الفرنسي ولاسيما بالشاعر (لامرتين Lamartine) - وقبل أن أتناول بالبحث عناصر المقارنة فى سلوك هذين الشاعرين وشعرهما وسلوك إسماعيل صبري وشعره أجد من الملائم أن أحدثُ للقارىء من سيرة كل منهما ذكرا .

فالشريف الرضى هو أبو الحسن محمد بن طاهر الحسين بن موسى سليل الحسين ابن على بن أبى طالب عن طريق موسى الكاظم . ومن ثمّ لقب بلقب الموسوى ـ وقد ولد ببغداد عام ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ونضج عقليا فى سن مبكرة جدا فنظم الشعر ولمّا يتجاوز العاشرة من عمره ـ وكان ذا نفس أبية ومكانة رفيعة بين الناس تحيط به هالة من الهيبة والورع والعفة والحب الصادق ـ وكان يرى فى نفسه مصلحا ومن ثمّ كان يميل إلى الفخر فى شعره ـ وقد أكب على قراءة كتب الأوائل فى العلم والأدب وحذق اللغة العربية واهتم بالأدب مما جعل منه أحد كبار الشعراء العرب .

وشعره من أمتع ما نظم فى الشعر العربى وأجزله من حيث المعانى والجرس وجمعه للصيغ النفسية والفلسفية وصور الاجتماع ونقده وشكوى الزمان وصروف الدهر والتأمل فى الحياة وشرح دواخل النفوس ـ ولم يكن شاعراً فنيا فحسب بل كان شاعراً يبرز صورة نفسه المليئة بالحكم والعبر ـ ولذا كان معظم شعره تعبيرا صادقاً عما يجيش فى وجدانه من إباء وعزة وحب للفضيلة ومكارم الأخلاق ـ وكل هذه السجايا تتضح فى شعره ولاسيا فى قصائده التى تتناول الفخر والرثاء والشكوى ـ ومن خصائص شاعريته أنه كان يعطى عناية خاصة للمعنى أكثر من عنايته باللفظ والصنعة ولذا خرج شعره رصينا وافر المعانى واسع التأمل دقيق الخيال ينطوى على آراء فلسفية ـ وكل ذلك فى أسلوب سهل شيق يمتاز بالسلاسة والرقة ـ وكان يعرف الجيد من الغث فى كل ما اطلع عليه من الشعر العربى .

وإذا حللنا هذه العناصر التى تتمثل فى شعر الشريف الرضى وأسلوبه نجدها ماثلة فى شعر إسماعيل صبرى مما يدل فى جلاء على تأثر إسماعيل العميق بالشريف ولكن فى غير تقليد أعمى أو سرقات شعرية ـ ويعزز هذا التقارب بينهما سلوك كل منهما فى الحياة الذى يكاد أن يكون قاسما مشتركا فى معظم نواحيه .

ولعل فى الأمثلة النموذجية الآتية ما يجعل المقارنة بين الشاعرين تنطوى على كثير من الصحة فيما يتعلق بشاعريتهما .

فقول إسماعيل صبرى فى وصف حبيبته بالأبيات التى مطلعها :

تُمْسِى تُذَكِّرُنَا الشبابَ وَعهْدَهُ
حسناءُ مرهفة القوامِ فتَذْكُرُ

يشبه إلى حد بعيد قول الشريف الرضى فى حبيبته ووصفها إذ يناجيها بهذه الأبيات :

يا ظبيةَ البَانِ تَرْعَى فى خَمَائِلِه
لِيَهْنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مرْعَاكِ
الماءُ عِنْدكِ مَبْذُولٌ لِشَارِبِه
وليسَ يُرْوِيكِ إلاَّ مَدْمَعِى البَاكِى
هبَّتْ لنَا منْ رِيَاحِ الغَوْرِ رَائحةٌ
بَعْدَ الرُّقادِ عَرَفْنَاهَا بِرَيَّاكِ
ثمَّ انثَنَيْنَا إذا مَا هَزَّنَا طَربٌ
عَلى الرِحَالِ تَعَلَّلْنَا بِذِكرَاكِ
سَهْمٌ أصابَ وَرَامِيهِ بِذِى سَلَمٍ
منْ بالعراقِ ، لقَدْ أبعدتِ مَرْمَاكِ
حَكَتْ لِحَاظُكِ ما فى الرِّيمِ منْ مُلَحٍ
يَوْمَ اللِّقَاءِ ، وكانَ الفضْلُ للحاكى

* * *

أنْتِ النَّعيمُ لِقَلْبي والعَذَابُ لهُ
فما أمَرَّكِ فى قلْبي وأحْلاكِ
عنْدِي رسَائلُ شَوْقٍ لستُ أذكُرُهَا
لَوْلاَ الرقيبُ لقد بَلَّغْتُها فَاكِ

فالجرس العذب فى القصيدتين متماثل وسهولة النظم وجمال التعبير وروعة الوصف ودقة المعانى وسلاسة التطريب وجزالته فى القولين متشابهة .

واستمع للشاعرين يشكوان الغرام والإخفاق فيه لتلمس التقارب فى التفكير وبث لوعة الحب ـ فإسماعيل صبرى يناجى قلبه ويلومه على التعلق بالغرام فى غير جدوى فينشد الأبيات التى أولها :

أقْصِرْ فؤادى فمَا الذِّكرى بِنَافِعةٍ
ولاَ بِشَافِعةٍ فى رَدِّ مَا كانَا

وإذا بهذه المناجاة كانت قد جرت ـ حلوة النغم عذبة الأسلوب صادرة من قلب الشريف الرضى العامر بالحب النقى والعاطفة الصادقة الإحساس ـ على قلم هذا الشاعر البغدادى الفحل إذ يقول مناجيا صاحبا له ذاق مرارة الإخفاق فى الحب مثله :

قالَ لى صَاحِبِى غَدَاةَ الْتَقَيْنَا
نَتَشاكى حَرَّ القُلُوبِ الظِّمَاءِ
كنتَ خَبَّرْتَنِى بِأنَّكَ فى الوجْـ
ـدِ عَقِيدِى وأنَّ دَاءَكَ دَائى
مَا تَرَى النَّفْرَ والتَّحمُّلَ لِلْبيْـ
ـنِ فمَاذا انتظَارُنَا لِلْبُكَاءِ

لَمْ يَقْلُبْهَا حَتَّى انْثَنَيْتُ لِمَا بِى
أَتلَقَّى دَمْعِى بِفَضْلِ رِدَائى

وإسماعيل صبرى يشكو الزمان ويرى فى ساعاته عذابا مستمرا كما يرى الدنيا بمنظار أسود فيقول والأسى والشجن يستوليان على قلبه :

كم ساعة آلمتنى مَسُّهَا
وأَزعجتنى يَدُهَا القَاسِيَهْ

وإذا به ينفث هذا الإحساس الحزين وكأنه يسمع صوت الشريف الرضى يترنم فى الأفق البعيد بأبياته الشجية الحزينة التى تنعى على الدهر مظالمه وبعده عن الإنصاف ويؤكد أنه سيصبر حتى يدفع بصبره الثابت المتين ما يحيط بـه من خطوب جسام ـ فينشد قائلا :

فَأَيْنَ مِنَ الدَّهْرِ استماع ظُلَامَتِى
إذَا نَظَرَتْ أَيَّامُهُ فى المَظَالِمِ
ولم أَدرِ أنَّ الدَّهْرَ يَخْفِضُ أَهلَهُ
إذا سَكَنَتْ فيهم نُفُوسُ الضَّرَاغِمِ
سَأَصبِرُ حَتَّى يَعلَمَ الصَّبْرُ أَنَّنِى
مَلَكْتُ بِهِ دَفْعَ الخطوبِ الهَوَاجِمِ

وهذه الكآبة السوداء التى تخيم على حياة الشاعرين ترجع إلى مرض الشريف الرضى منذ الشباب الغض وإلى مرض إسماعيل صبرى فى كهولته وشيخوخته ولا سيما بعد حادث القطار على النحو الموضح قبل . فمرض الشريف الرضى أجرى قلبه بهذين البيتين :

خطوبٌ لا يُقَاوِمُهَا البقاءُ
وأحوالٌ يدبُّ لها الضراءُ

ودهرٌ لا يصحُّ بهِ سقيمٌ
وكيفَ يصحُّ والأيامُ داء ؟

فيرد عليه إسماعيل صبرى وقد سئم الحياة ورأى فى الموت الخلاص من المحن فينشد الأبيات التى مطلعها :

إنْ سئمْتَ الحياةَ فارجع إلى الأرْ
ضِ تنَمْ آمناً مِن الأوصابِ

تلكَ أمٌّ أحنُّ عليكَ مِنَ الأ
مِّ التى خلَّفتكَ للأتعابِ

والحكمة تلازم شعر الشاعرين وتتخلل الكثير من قصائد كل منهما وتنم عن فلسفتهما فى الحياة - فإذا ركن إسماعيل صبرى إلى صوفيته الشفافة سأل الله أين تقام الجحيم للظالمين ثم يطلب منه أن يمنّ عليه بالفضل ويقيه شر الشطط فيناديه فى ضراعة صادقة بأبياته التى أولها :

يارب ! أينَ تُرَى تُقَامُ جهنمٌ
للظالمين غداً وللأشرار ؟

إذا سأل إسماعيل صبرى الخالق وطلب منه الفضل وتجنيبه الوقوع فى الشطط والزلل فإن الشريف الرضى قد أبرز فلسفته العميقة الغور فى أبياته التى تخبر عن صوفيته وحذره من الناس وزهده فى المال فيقول :

وفى شدَّةِ الدهرِ اعتبارٌ لعاقلٍ
وفى لذَّةِ الدُّنيا غرورٌ لواثقِ

وأكثرُ من شاورتَهُ غيرُ حازمٍ
وأكثرُ من صاحبتَ غيرُ الموافقِ
إذا أنتَ فتَّشتَ القلوبَ وجدتها
قلوبَ الأعادى فى جسومِ الأصادِقِ
وعندى مِنَ الودِ الذى لا يشوبُهُ
لحاظُ المُرائى أو كلامُ المنافِقِ
أغالطُ نفسى بعدَ مَرأى ومَسْمَعٍ
ولا أنظُرُ الدنيا بعين الحقائقِ
وما جمعىَ الأموالَ إلاَّ غنيمةٌ
لِمَنْ عاشَ بعدى واتهامٌ لِرازقِ

فالحكمة الفلسفية وإن اختلفت فى المعانى عند الشاعرين فإنها تتفق فى أهدافها الأساسية ـ فالإثنان يضجان بالظلم وبالمنافقين ويمجدان الفضيلة والأخلاق الكريمة وينزعان إلى الزهد والتصوف .

وكل من الشاعرين لا يطمح إلاّ إلى العلا ويحضان على خوض غماره وطلبه فى إصرار ـ وتبرز هذه الظاهرة النفسية فى شعر إسماعيل صبرى الذى يصف به الأهرام والذى يقول فيه على لسان فرعون :

لا القومُ قومى ولا الأعوانُ أعوانى
إذا وَنَى يومَ تحصيلِ العُلا وانِ

وتبرز واضحة فى قول الشريف الرضى حين يفخر ويصف نفسيته العالية وسلوكه الحميد فى الحياة وصفا دقيقا فيقول :

لغير العُلا مِنِّى التقلِّى والتجنبُ
ولولا العُلا ما كنتُ فى الحبِّ أرغَبُ

إذا اللهُ لم يَعذِرْكَ فيما تَرُومُهُ

فما الناسُ إلاَّ عاذلٌ ومؤنبُ

ولعل فى كل هذه النماذج من أشعار الشاعرين مايقرب المقارنة بينهما إلى أضيق حد - ويظهر إلى حد ما تأثر إسماعيل صبرى بالشريف الرضى فكان مثله أبى النفس كريم السجايا يتسم شعره بالعفة والابتعاد كلية عن فاحش القول والاسفاف فيه كما يتسم بالسهولة وعذوبة الجرس ودقة المعانى والركون إلى الحكمة الفلسفية مع انتقاء الألفاظ الجزلة فى أسلوب رشيق وضَّاح — وكان يماثله فى الميول الشريفة الراقية والذوق السليم وسمو النفس .

ويقول مؤرخو سيرة إسماعيل صبرى إنه تأثر بالشاعر الفرنسى (لامرتين) وذلك بسبب إقامته فى فرنسا طوال فترة دراسته لنيل إجازة الحقوق.

ولاستطاعة إظهار هذا التأثر يحسن الوقوف على نبذة مركزة من تاريخ حياة الشاعر (Lamartine) وسرد ترجمة لبعض نماذج من شعره تصلح للمقارنة بين شاعريته وشاعرية إسماعيل صبرى ولا سيما أنه عاصر الفترة التى تلت وفاة هذا الشاعر الفرنسى الكبير وحضر اهتمام الشعب الفرنسى بأشعاره ولا سيما بعد موته .

فقد ولد (الفونس دى لا مرتين Alphonse de Lamartine) بمدينة ماسون عام ١٧٩٠ م . وقضى سنوات طفولته فى رعاية والدته الحادبة - وبعد أن تلقى دروس تعليمه الأولى على يد القس (ديبون) أرسل إلى مدرسة الليسيه بمدينة ليون — ولما أتم دراسته بهذه المدرسة قام برحلة إلى إيطاليا خلال عامى ١٨١١ ، ١٨١٢ — ولدى عودته التحق بالسلك العسكرى - وبعد قليل فضل السلك الدبلوماسى وكان يصرف معظم وقته فى نظم الشعر - ولقد وضعته القصائد الأولى التى نشرها فى صف كبار الشعراء الغزليين - ثم أهلته القصائد التالية إلى أن يشغل مقعداً فى الأكادمية الفرنسية عام ١٨٣٠ م . وكان عمره وقتئذ ٤٠ عاما - وفى عام ١٨٣٢ م استأجر سفينة كبيرة وقام برحلة إلى الشرق الأوسط صحبه

زوجته وابنته التى فقدها بمدينة بيروت فى سن العاشرة من عمرها فحزن عليها حزنا شديداً .

وفى عام ١٨٣٣ م . انتخب عضواً بمجلس النواب ـ وحين سؤل عن المكان الذى سيجلس فيه بين أعضاء هذا المجلس أجاب بأنه سيتخذ مكانه فى السقف ـ وقد بر بوعده فظل بعيداً عن تنافس الأحزاب .

وفى ١٨٤٨ م . اشترك فى إقامة جمهورية ذلك العام وألف كتابا فى هذا الصدد ـ واختير بعد ذلك عضوا بالحكومة المؤقتة . ولم يحصل لدى التصويت على اختيار رئيس للجمهورية إلاّ على ١٨٠٠٠ صوت فى مقابل ٥٠٠,٠٠٠ر٥ صوت نالها (لويس نابوليون) ـ وفى عام ١٨٥١ م ترك الحياة العامة ـ وكانت أعوام شيخوخته أعوام بؤس وفقر إذ اضطر إلى كسب عشرة ملايين من الفرنكات من كتبه ليدفع ماعليه من الديون . وفى أواخر أيام حياته منحته الحكومة معاشا يتناوله من أرباح مبلغ قدره خمسمائة ألف فرنك وذلك على سبيل المكافأة الوطنية ـ ولكنه لم يتمتع بهذا المعاش إلا مدة عامين إذ وافته المنية عام ١٨٦٩ م عن حوالى ٨٠ عاما .

ولقد كان لامرتين ـ مثل إسماعيل صبرى ـ يعتبر نفسه رجل إدارة وأعمال وليس رجل أدب وشعر ـ فكان يقول: « يجب أن يكون الشعر ترفيها عن النفس لشغل أوقات الفراغ ـ فهو زينة الحياة ولكن خبزنا اليومى يجب أن نحصل عليه بالعمل والكفاح » . ومع ذلك فقد كان شاعرا بكل معنى هذه الكلمة ـ فهو يقول ماترجمته :

غنيتُ يارفاقى .. مثلما يتنفس الإنسان
مثلما يغرِّدُ العصفور ـ مثلما يتنهد الريح فى هبوبه
مثلما يُحدثُ الماءُ خريرَه فى انسيابه

وكان (للامرتين) الفضل فى إبداع شعر جديد يفيض بالأحاسيس ويلعب

بالانفعالات النفسية لعذوبته ورنين جرسه ـ وهذه ميزات نجدها بارزة فى شعر إسماعيل صبرى ـ وكان (لامرتين) يقول : « إننى وهبت الشعر الحى ـ ليس لتلك القيثار ذات الأوتار السبعة المألوفة ـ وإنما الأوتار القلب الإنسانى نفسها وقد لمست وتحركت بأحاسيس الروح البشرية التى لاحصر لها وبأحاسيس وخلجات الطبيعة فى الأنفس » وكل هذه الأحاسيس والخلجات التى تلعب بأوتار القلب أثارها شعر إسماعيل صبرى فيما نظم من شعر قليل العدد كثير المعانى كبير القيمة الأدبية .

وكان انفعال (لامرتين) فى شاعريته انفعالا نابعا من وجدانه ومن قرارة نفسه ـ ومن ثم كان يقول « إن الشعر هو ألحان القلوب التى تجيش بداخلها وفى أعماقها » وكان شعره يأخذ مصادره من ينابيع ثلاثة هى : العواطف الشابية ـ ومباهج الطبيعة وسحرها ومفاتنها ـ وحماسة الإيمان التى تستولى على فؤاده ـ وهذه المصادر الثلاثة كان إسماعيل صبرى يركن إليها فى إبداع سياق قصائده وفى انتقاء المعانى لتعبر عن انفعالاته النفسية أصدق تعبير .

ولقد أنشد (لامرتين) الشعر وهو غض الإهاب فى ميعة الشباب على غرار مافعل إسماعيل صبرى ـ وظهر نبوغه المبكر عندما نشرت له مجموعة من قصائده خلال عام ١٨٢٠ م ـ بعنوان « التأملات الأولى » .

وجاء فى إحدى قصائد هذه (التأملات) وهى بعنوان (الوحدة) مايشبه قول إسماعيل صبرى فى قصيدته الصوفية التى مطلعها :

يا رَبُّ ! أين تُرَى تُقَامُ جِهَنَّمٌ
للظالمينَ غداً وللأشرارِ ؟

(فلامرتين) بعد أن يصف وحدته وهو فوق الجبل وفى أحضان الغابة . وبعد أن يشاهد جريان النهر وأمواجه المتدفقة تعلوها الرغوة وتنبهر عيناه بكل مناظر الطبيعة الخلابة فى وحدته يقول :

ماذا يهمنا من هذه الوديان والسهول والأكواخ المتناثرة فى أرجائها
فكلها أشياء ذهبت فتنتها مع الريح بالنسبة إلىَّ .

فيا أنهارُ - ويا صخورُ - وياغاباتُ - ويا أيتها الوحدة الغالية على النفس
إن مخلوقا واحدا ينقصك وإلاَّ فأنت يبَابٌ لاتدب فيه الحياة.

ويستطرد فى وصفه للمشاهد الطبيعية التى تقع عيناه عليها إلى أن يأتى إلى الجانب الصوفى من القصيدة فينشد :

ولكن ! ربما وراء هذه الحدود المعينة للكون
مواضع حيث الشمس الحقيقية تنير سموات أخرى
وإذا كنتُ قد استطعت ترك رفاتى على الأرض
فإن كثيرا من أحلامى قد تجلت أمام ناظرى
فهناك سأذوق لذاذة النشوة من النبع الذى أبغيه
وهناك سأجد الأمل والحب
وهذا الخير المثالى الذى تتمناه كل نفس
والذى ليس له اسم فى هذه الحياة الدنيا

(ولامرتين) مثل إسماعيل صبرى لايهاب الموت - بل يجد فيه الخلاص الإلهى السماوى - وقد تناول بالشرح هذه السويداء التى تستولى على وجدانه وكان بذاك أسبق من إسماعيل صبرى فى قوله :

إنْ سئمتَ الحياةَ فارْجع إلى الأر
ضِ تَنَمْ آمناً مِنَ الأوْصابِ

* * *

لاتخفْ فالموتُ ليْسَ بِماحٍ
مِنْكَ إلاَّ ما تَشْتكى مِنْ عذابِ

فاستمع إلى (لامرتين) يقول فى قصيدته (الخلود) مايدل على التشابه الكبير فى تفكير الشاعرين ويدل على تأثر الشاعر المصرى بالشاعر الفرنسى دون أن يقلده تقليدا أعمى :

إن الشمس فى هذه الأيام يشحب وجهها منذ فجرها
وعلى جباهنا الذابلة مازالت تلقى
ببعض أشعتها المرتعشة التى تصارع الليل
والظل يتزايد ـ والنهار يُحْتَضَر ـ وكل شىء يمحى وينتهى

* * *

أيها الموت ! إنى أحبيك ـ فأنت المخلص السماوى
وأنت لاتبدو لعينى أبدا فى ذلك المظهر المشئوم
الذى أضفاه عليك منذ زمن بعيد الهلع والضلال
وذراعك لاتتسلح قط بذلك السيف المدمر
وجبهتك ليست تبدى القسوة وعينك ليست غادرة
فللنجدة من الآلام يهدى خطاك رب رحيم
فأنت لاتدمر بل تخلص ـ ويدك
التى هى رسول سماوى تحمل مشعلا إلهيا
ولمّا عينى الكليلة تُغمض جفنيها إزاء النور
تأتى أنت ذات يوم جليل تُفعم جفنىَّ بالضياء
والأمل بالقرب منك يحلم فوق أحد القبور
ومستندا إلى الإيمان بالله . يفتح أمامى عالما آخر أكثر جمالا

* * *

(ولامرتين) مثل إسماعيل صبرى يصف حبه ويصف حبيبته فى شعر سلس شيق المعانى عذب العبارة والجرس. فاستمع إليه يقول فى قصيدته التى كتبها فى إحدى أمسيات فصل الصيف عام ١٨١٩ م .

عبثا تتوالى الأيام .
فهى تسرى دون أن تترك أثرا
فاستمع لى يا آخر أمل فى حبى

وبعد أن يتناول سنوات عمره التى تمر فى سرعة وتتراكم وراءه كأوراق الشجر الذابلة يناجى حبيبته قائلا :

غير أن صورتك الشابة المضيئة
التى زينها الأسف
لا يمكن أن تشيب فى أحضانى
فهى مثل الروح ليس لها سن أو عمر

* * *

لا ! إنك لم تفارقى عينىَّ
ولمَّا ناظرى الكاسف
ينقطع عن رؤيتك على الأرض
فجأة أراك ماثلةً فى السماء

ويسير فى مناجاته على هذا النحو إلى أن يختتم قصيدته الغزلية الرائعة بقوله :

وخلال نعاسى ـ إذا مايدك
تحل نسيج أيام حياتى

يانصف روحى السماوية
فإنى سأصحو من غفوتى لأجدنى بين أحضانك

* * *

وكإشعاعين من إشعاعات الفجر
وكزفرتين مختلطتين فى نفثتهما
فإن روحينا لاتكونان
إلا روحا واحدة مازالت تتنفس

وما من شك فى أن هذا الوصف الذى أضفى على حبيبة (لامرتين) صبغة سماوية يماثل فى كيانه العام وصف إسماعيل صبرى لحبيبته التى يسمو بها إلى الروحانيات المكونة من الضوء المنير إذ يخاطبها منشدا :

أَنتِ رُوحَانِيَّةٌ لا تَدَّعِى
أَنَّ هذا الشكلَ من طينٍ وماء
وانزَعِى عَنْ جسمكِ الثَّوبَيْنِ
لِلْملاَ تَكْوِينُ سُكَّانِ السَمَاء
وأَرِى الدُّنْيَا جِنَاحَى مَلَكٍ
خَلْفَ تمثالٍ مَصُوغٍ مِنْ ضِيَاء

ومما يدل على ثقافته الفرنسية الواسعة النطاق وتأثره بكتابها ومفكريها وشعرائها على الأخص. ترجمته فى يوليو عام ١٩٠٠ لمعنى المثل الفرنسى «ليت الشباب يعرف وليت المشيب يقدر» فصور معنى هذا المثل فى أبياته الحكيمة التالية :

كمْ يَدْرِ طعْمَ العَيْش شيًّا
نٌ وَلمْ يُدْرِكْهُ شِيْبُ

جهْلٌ يُضِلُّ قُوَى الفَتَى
فتَطِيشُ وَالمرْمَى قرِيبُ

وَقُوَى تَخُورُ إذا تَشَبَّ
ثَ بِالقُوَى الشَّيْخُ الارِيبُ

بيْنَا يُقَالُ كَبَا المُغَفَّ
لُ إذْ يُقَالُ خَبَا اللَّبِيبُ

أوَّاهُ لَوْ عَلِمَ الشَّبَا
بُ وَآهِ لَوْ قَدَرَ المَشِيبُ

وفي عام ١٩١٠ ترجم حكاية الثعلب والغراب شعراً . وقد نقلها عن حكاية الشاعر الفرنسي « لافنتين La Fontaine » واستهلها بقوله :

أبْصَرَ الثعلبُ الغُرَابَ عَلَى غُصْ
نٍ نضيرٍ في روضةٍ غنَّاءِ

وَرأى قطْعَةً بِفيهِ مِنَ الجُبْ
نَةِ تُزْرِي بالفِضَّةِ البَيْضَاءِ

إلى أن يخلص إلى الحكمة من الحكاية فيقول :

بعْضُنَا لا يَزَالُ في إثرِ بَعْضٍ
نَاهِبًا سَالِبًا بِلا اسْتِحْيَاءِ

فَتَعَوَّذْ مِنْ هؤلاء وَحاذِرْ
لا تكُنْ - إنْ عدِدْتَ - مِنْ هؤلاءِ

هذا هو إسماعيل صبرى الشاعر فى تاريخ الأدب المصرى المعاصر — ولعلّى بهذا البحث قد أصبت بعض التوفيق فى تحليل شاعريته ومقارنتها بشاعرية الشاعر العربى (الشريف الرضى) والشاعر الفرنسى (لامرتين) مع إبراز تأثره بهما فيما عالج من ألوان الشعر.

٦ ـ الشاعران

حافظ إبراهيم وفكتور هوجو Victor Hugo

لم يكن حافظ إبراهيم شاعراً فحسب بل كان شاعراً من كبار شعراء الجيل الحاضر وشخصية من الشخصيات البارزة التى تركت فى مجموعة أخلاق الشعب المصرى ـ ولا سيما فى تاريخ آدابه ـ أثراً سيبقى عالقاً بنفسية أفراده ما بقى الأدب العربى عبر الأجيال المستقبلة ـ وسيقود هذا الأثر الأمة المصرية بل والأمة العربية بأسرها فى طريق المثل العليا التى تصبو إليها .

وإذا حللنا نفسية الشخصيات العظيمة فى مراحل التاريخ المتعاقبة لنرجع قوتها الفكرية إلى عناصرها الأولى نجد أن أصحابها سعوا دائما إلى جعل همهم فى الحياة التحلى بأوفر قسط من الأخلاق المتينة التى لا يتطرق إليها الضعف أو الخور ـ وتوصلا إلى هذه الغاية السامية نراهم لا يتوانون فى القيام بواجباتهم نحو المجتمع ولا يقصرون فى المطالبة بحقوقهم كاملة من هذا المجتمع لأنهم يتألمون غاية الألم كلما وجدوا أن الوصول إلى هذه الحقوق أصبح عسيراً عليهم أو صار مستحيلا بالنسبة إليهم .

ولهذه الأسباب نجد أن أثر هذه الشخصيات البارزة المتفوقة فكريا يبقى طويلا فى وجدان الأمم ونجد أن الآلاف أو الملايين من أفراد شعوبهم يعملون دائبين على تقليدهم والاقتداء بهم فى شتى أطوار الحياة .

وحافظ فى كيانه العام واحد من هذه الشخصيات التى أنطقها الألم والتوجع لما أصاب أقوامها من ضير وعنت بكلمات خالدات هى العبرة لمن يعتبر وهى الأمثال الحكيمة لمن يريد الدنو من المثل الأعلى فى الحياة القويمة .

ويسيطر على حافظ شاعر النيل دون مدافع ـ عاملان أساسيان هما : القيام

بالواجب وتأديته لبنى جنسه خير أداء والتمسك بالحق والمطالبة به فى غير هوادة أو تهاون - وهذان العاملان هما الدعامتان اللتان يرتكز عليهما الخلق فى الرجل الفاضل وهما العنصران المكونان للنفس الكريمة فى علم الأخلاق - فالرجل الذى يقوم بواجبه ويدافع عن حقه رجل أخلاق - والأمة التى يؤدى أفرادها واجبهم ويدافعون عن حقهم أمة أخلاق وينطبق عليها قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

إنَّما الامَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقُهُمْ ذَهَبُوا

وتحت ضغط عاملى القيام بالواجب والتمسك بالحق كان حافظ إبراهيم يشقى بحمل الفضائل واعتمالها فى صدره - ويتعذب لأنه لا يستطيع التخلص من قيودها التى تكبله فيقول :

نَعِمْنَ بِقُرْبِى وأشْقَيْنَنِى
فَيَا لَيْتَهُنَّ وَيَا لَيْتَنِى
خِصَالٌ نَزَلْنَ بِخِصْبِ النفُو
سِ فَأَرْوَيْنَهُنَّ وأظْمَأْنَنِى
تَعَوَّدْنَ مِنِّى إبَاءَ الكرِ
يمِ وصبرَ الحليمِ وتيهَ الغَنِى
وَعَوَّدْتُهُنَّ نِزَالَ الخُطُ
وبِ فما يَنْثَنِينَ وما أنْثَنِى
فيا نفسُ إن كنتِ لا تُوقِنِيـ
نَ بِمَعْقُودِ أمرِكِ فاسْتَيْقِنِى
فهذى الفضيلةُ سِجْنُ النفُـ
وسِ وأنتِ الجديرةُ أنْ تُسْجَنِى

فلا تسأليني متى تنقضى

ليَّالى الإسار ولا تحزنى

فالخصال الكريمة نزلت بنفسه وتعمقت بخصبها وأشقاها استقرارها فى قرارة وجدانه دون أن يستطيع نبذها لأن شعوره القويم لا يرضى بذلك — ومن ثم فهو يرضى لنفسه أن تبقى فى سجن الفضيلة وأن تتألم دون أن تطلب منه التخلص من الأسر الذى يصيبها بشتى الهموم.

وشاعرنا حين يبث ألمه لا يندب حظه العاثر وما يعانيه من ضيق فى العيش ونكد فى الحياة بل ينفث هذا الألم توجعا للآلام الذى كانت مصر تكابده فى حياتها المادية والاجتماعية تحت سيطرة الاستعمار البريطانى واستغلاله الجشع

فكان إذا أنشد مظهراً عذابه النفسى فى بيت أو بيتين من آيات شعره كان ثالث أبيات القصيدة توجعا لما كان يلاقيه سكان وادى النيل جميعا من إجحاف وعنت وهم الذين يجب أن يكونوا قادة الشعوب وأهنأهم عيشا وأعزهم جاها فى عقيدة حافظ الثابتة — فإذا هم تهاونوا أو توانوا فى تبوء المكان اللائق بحضارتهم وتاريخهم العتيد بين الأمم فهم فى نظره ضعاف فاقدو الشعور يستحقون منه كل لوم وتقريع — وهم فى نظره أحوج الناس إلى أن يحثهم على النهوض من سباتهم قبل فوات الوقت — فيقول فيهم لائما مخاطبا قاسم أمين قطب تحرير المرأة المصرية فى الجيل الراهن:

فيَا ليْتَ لى وجدَانَ قومى فأرْتضى

حيَاتى ولا أشقى بمَا أنا طالبُهْ

ينامُونَ تحت الضَيْمِ والأرضُ رحْبَة

لمَنْ بَاتَ يأبى جانبَ الذُّل جانبُهْ

ثم يوجه الحديث إلى قاسم أمين قائلا :

أَقَاسمُ إنّ القَوْمَ مَاتت قُلُوبهم
ولمْ يَفْتَهُوا فى السِفْرِ ماأنْتَ كاتِبهُ

إلى الآن لمْ يُرْفعْ حِجَابُ ضَلالهم
فَمَنْ ذا تُرَجّيهِ ومَنْ ذا تُعاتِبهُ

فلو أنّ موسى والمسيحَ وأحمداً
وجيشا من الأمْلاكِ ماجت مَوَاكِبهُ

وقالوا لنا رَفعَ الحجاب مُحَلّل
لَقُلْنَا نعمْ حقاً ولكنْ نُجانِبهُ

ولَوْ أنّ شخصا قامَ يدعو رِجالهُمْ
لِوضعِ نقابٍ لاسْتقامتْ رَغائبهُ

ويقول لهم حاثا ومستفزا :

أُرونى نِصْفَ مُخْتَرعٍ
أُرونى رُبْعَ مُحتَسِبِ

أرُونى نَادِياً حَفِلاً
بِأهْلِ الفَضْلِ والأدبِ

إلى أن يستنهضهم قائلا :

فَهُبُّوا مِنْ مَرَاقِدِكُمْ
فَإنّ الوَقْتَ مِنْ ذَهبِ

وما من شك فى أن هذه الأبيات جميعها تقدم لنا صورة قاتمة لما كان عليه الشعب المصرى ـ وهو يرسف فى أغلال الاستعمار البغيض ـ من تخلف وبغض لكل

تطور - يتقدم لنا شاعر النيل وهو يعانى ألم هذا التخلف ولا يملك لبرئه إلا أن ينفثه شعراً لاذعا يستفز الشعور القومى ويحث النفوس الخاملة على الوثوب لإقامة دعائم النهضة الفكرية والاجتماعية التى تؤدى إلى خلع نير الاستعمار والاستعباد عن كاهل مصر .

وإذا حللنا هذه الظاهرة فى نفس حافظ وجدنا أن جذورها تستقر فى رغبته الأكيدة فى أن يتحلى أفراد الشعب المصرى بالسجايا الحميدة والخلال الكريمة التى تستولى على فؤاده وتطرب إحساسه الروحى بأنغامها الخفية التى ترن عذبة فى أعماق حجاه - وقد عبر عن هذا الطرب الحسى بقوله :

إنىّ لَتُطْرِبُنى الخـلالُ كريمةٌ
طَرَبَ الغريبِ بِأَوبَةٍ وتَلاقِ
ويَهزُّنى ذِكْرَى المُرُوءَةِ والنَّدَى
بينَ الشمائلِ هِزَّةَ المُشْتَاقِ
فالناسُ هذا حظُّهُ مالٌ وذا
عِلمٌ وذاك مكارمُ الأخلاقِ

وحافظ لا يريد أن يكون هو وحده الذى يطرب للخلال الكريمة التى تغمر قلبه وأن يكون الوحيد الذى يقوم بواجبه نحو قومه ووطنه خير قيام - وإنما يريد أن يقوم جميع مواطنيه بهذا الواجب المقدس فى غير منٍّ أو صلف - ولذا نراه يغضب ويثور ويدهش لإنهم لا يؤدونه من تلقاء أنفسهم وفى أى وقت تطلب منهم تأديته .

وهو يريد كذلك أن يعرف مواطنوه حقوقهم وأن يطالبوا بها فى غير هوادة حتى يحصلوا عليها كاملة غير منقوصة مهما كلفهم ذلك من السعى والعناء والعذاب - وتحت تأثير هذه النفسية الوطنية القوية نجده لا يقتصر على المطالبة بحقوقه

الشخصية بل يطالب بحقوق الأمة المصرية بأسرها ويشقى كلما ضعف أمله فى نيل هذه الحقوق القومية ويتعذب كلما طال حرمان مصر من حريتها وهى هى مصر التى يحبها حبا يقرب من العبادة فيناجيها قائلا :

كَمْ ذا يُكابِدُ عاشِقٌ وَيُلاقِى
فى حُبِّ مِصْرَ كثيرةِ العُشّاقِ
إنى لأَحمِلُ فى هواكِ صَبَابَةً
يا مِصْرُ قَدْ خَرَجَتْ عنِ الأطواقِ
لهفى عليكِ متى أراكِ طليقةً
يَحْمى كَرِيمَ حِمَاكِ شعبٌ راقِ

فالواجب والحق هما الخصلتان النبيلتان اللتان تمتلىء بهما جنبات نفس حافظ وهما كل ما يحرص على التمسك به فى جميع أطوار حياته .

وليس فى ذلك أية غرابة ـ فالحق والواجب صفتان خاتميتان يتكون من امتزاجهما النفسى سلوك عظماء الرجال متى سيطرتا على نفوسهم فتسمو فى علوها وتصبح قمينة بأن تتولى قيادة الشعوب فى طريق الرقى والمجد والسؤدد .

وإذا أمعنا النظر فى كيفية تكوين شخصية هؤلاء العظماء نلاحظ أنها تألفت من أجزاء شخصيات مختلفة جمع العظيم من شتاتها شخصيته البارزة ـ وهذه هى طبيعة الفكر الإنسانى منذ خلقه ـ فهو لايخلق الذى لا وجود له بل يقلد ويركب ما هو مفكك ليكوّن منه وحدة مادية أو عقلية متماسكة ذات كيان متكامل .

فإذا حبذ فكرة منهج أو سلوك أضاف إلى كل منها أجزاء فكر أو مناهج أخرى وأخرج من المجموع للنـــاس مبدأ أو منهجاً يلائم حالتهم فيستحسنونه ويشهدون لصاحبه بالتفوق أو العبقرية ويقتدون به فيما يقول وما يفعل .

وقد لاأجانب الصواب إذا قلت إن هذه القاعدة هى منشأ النبوغ فى التفكير

عند العظماء - وعلى أساس هذا القياس يستطاع التأكيد إلى حد ما أن حافظا قد تأثر إلى درجة بعيدة بما قرأ من أفكار سديدة وما أعجب به من مبادىء قويمة.

وإذا جاز لنا أن نسلك طريق التخمين والافتراض لنصل إلى معرفة المصادر الأدبية التى أثرت فى نفسية حافظ وكونت سلوكه وحياته الفكرية وجب علينا أن نستعرض أطوار ثقافته كأديب لنتعرف على ما هى أقوى المؤلفات التى جعلته يلهج بعظمة كاتبها ويشهد له بالنبوغ والعبقرية ويسير فى حياته الاجتماعية وفاقا للنظريات الفلسفية التى تضمنتها هذه المؤلفات .

وأعتقد أننى لن أكون مغاليا إذا قلت إن أقوى المؤلفات الأدبية تأثيراً على نفسية حافظ إبراهيم كانت تلك التى خطها يراع كاتب فرنسا وشاعرها الفحل « فكتور هوجو Victor Hugo » .

« ففكتور هوجو » فى شاعرية حافظ يكاد يكون أكبر شعراء الشرق والغرب جميعا لأن معانيه السامية تلعب بوجدانه وتملأ مشاعره بما ضمت من تعبير جزل وجرس عذب وسياق جميل خلاب - أما خلقه المتين فمثل من مثل حافظ العليا - وأما حبه لوطنه فعاطفة كريمة نبيلة تهزه طربا وتملك عليه إحساساته وعواطفه - والأبيات الآتية التى تصور « هوجو » فى شاعرية حافظ تؤكد كل ما يكنه شاعرنا من تعظيم وتقدير لشاعر فرنسا الأكبر :

أَعجَمِىٌّ كادَ يَعْلُو نَجمُهُ
في سماءِ الشعرِ نجمَ العَرَبِ
صافحَ العلياءَ فيها والتقى
بالمعرِّى فوقَ هامِ الشُهُبِ
عافَ فى مَنفَاهُ أن يَدْنُو به
عفوُ ذاكَ القاهرِ المُغْتَصِبِ

كَتَبَ المَنْفِىُّ سَطْراً للذى
جَادَهُ بِالعَفْوِ فَاقْرأ واعجَبِ!
أَبرىءٌ عَنْهُ يَعْفُو مُذْنبٌ
كَيْفَ تُسْدِى العَفْوَ كفٌّ المذنبِ؟
سَاءَهُ ألاَّ يَرَى فى قومه
سِيرةَ الإسلامِ فى عهدِ النَّبى
قُلْتَ عَنْ نفسكِ قَولاً صادقاً
لم تَشُبْهُ شائباتُ الكذِبِ
أنَا كالمنجمِ تبرٌ وثَرى
فاطرحوا تُرْبى وَصُونُوا ذهبى

وإتماما لجوانب هذا البحث وتيسيراً لمعرفة أركان المقارنة بين الشاعر الفرنسى فكتور هوجو وشاعر النيل حافظ إبراهيم - وذلك فيما يتعلق بالمؤثرات النفسية التى استقرت فى وجدان الشاعر المصرى- أجد منالصواب الإلمام بتاريخ حياة شاعر فرنسا الكبير .

فهو فكتور هوجو ولد بمدينة بيزانسون Besançon عام ١٨٠٢ م وكان والده من رجال الجندية فى عهد الجمهورية الفرنسية الأولى وفىعهد الإمبراطورية. وبعد أن استصحبه والده لزيارة إيطاليا ثم إسبانيا خلال عامى١٨١١ و١٨١٢م. استقر فى باريس مع والدته فى أحد الأديرة - وكان أهله يريدون إلحاقه بمدرسة الهندسة ولكن اتجاهه الأدبى تغلب على هذا الاتجاه - وما أن بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى ظهرت بواكير إنتاجه الأدبى وقال عن نفسه فى ذلك الحين «أريد أن أكون مثل شاتوبريان أو لا أكون شيئا » - وبعد ذلك بقليل حصل علىدرجة الشرف فى مسابقة أدبية نظمها المجمع الأدبى الفرنسى ثم اختير رئيسا لكتاب وشعراء المدرسة الرومانتيكية بفرنسا - وفى عام ١٨٤١ - عين عضواً فى ذلك

المجمع - وفى عام ١٨٤٨ م . انتخب نائبا عن الشعب وأيد انتخاب « لويس نابوليون » رئيسا للجمهورية - وعقب الانقلاب عام ١٨٥١ م ظل فى صفوف المعارضة وتزعم المعارضين للحكم المنافى للديمقراطية وحاول تنظيم المقاومة لهذا الحكم فحكم عليه بالنفى من البلاد الفرنسية فعاش ١٨ عاما ببلجيكا فى مدينة بروكسل أو فى جزيرتى جرزى وجرنزى .

وعند صدور المرسوم بالعفو عن الجرائم السياسية رفض الإفادة من أحكامه ولم يعد إلى وطنه إلا بعد سقوط الحكم الإمبراطورى فاستقبله الشعب استقبالا حافلا جديراً بوطنيته الصادقة - وفضل الاغتراب مرة أخرى على أن يعيش فى نظام غير جمهورى - فرحل إلى بلجيكا ولم يعد إلى وطنه إلا فى عام ١٨٧٥ م . إذ انتخب عضواً فى مجلس الشيوخ - ومات خلال عام ١٨٨٥ م عن ٨٣ عاما وضمت جنازته عدداً لا يحصى من المواطنين واستغرق سير الجنازة عشر ساعات ودفن فى ضريح العظماء بباريس .

هذه إلمامة مركزة بتاريخ حياة شاعر فرنسا العظيم - ولاستطاعة إبراز النواحى المتشابهة فى حياة الشاعرين أجد من الملائم ذكر نبذة قصيرة توضح الجوانب الأساسية لحياة شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم.

ففى حوالى عام ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) ولد حافظ فى ذهبية كانت ترسو أمام شاطىء مدينة « ديروط بالصعيد - وكان أبوه أحد المهندسين المشرفين على قناطر هذه المدينة - وعلى الرغم من أن أمه كانت من عنصر تركى فإنه لم يترنم بمدح الترك ترنمه بمدح مصر والعرب - وتوفى والده وهو فى الرابعة من عمره فانتقلت أمه الى القاهرة ونزلت عند أخيها فتولى أمره وقام بتربيته - وبعد أن درس بمدرسة القربية وبمدرسة المبتديان والخديوية انتقل مع خاله « محمد أفندى نيازى » إلى طنطا وكان خاله هذا مهندس تنظيم بها .

ومل خاله الحال التى كان عليها ابن أخته إذ كان شابا ليس فى المدرسة وليس

له ثروة ولا يتكسب ـ فأشعره بهذا الملل فنظم له بيتين يدلان على ما فى نفسه من ألم وحسرة مضنية فقال له :

ثَقُلَتْ عَلَيكَ مُؤُونَتِى   إِنِّى أَرَاهَا وَاهِيَه
فَافْرَحْ فَإِنِّى ذَاهِبٌ   مُتَوَجِّهٌ فِى دَاهِيَه

ويفسر هذان البيتان ما كان يعتمل بصدر حافظ من البؤس والشقاء والحزن العميق مما يذكره دائما بيتمه وعدمه ـ وكان قد اشتغل وقتا قصيراً بالمحاماة فى فى مكاتب المحامين الشيخ محمد الشيمى ـ ومحمد أبو شادى بك ـ وعبد الكريم فهيم قبل سفره إلى القاهرة والتحاقه بالمدرسة الحربية حيث تخرج عام ١٣٠٩ﻫ (١٨٩١م) وكان عمره ٢٠ عاما ـ وسافر إلى السودان بين ضباط الحملة الأخيرة بقيادة اللورد (كتشنر) وسرعان ماتبرم بعيشته هناك وزاد حاله سوءاً كراهية (كتشنر) له ـ وفى عام ١٣١٧ ﻫ (١٨٩٩ م) حدثت ثورة فى السودان واتهم فيها ثمانية عشر ضابطا كان من بينهم حافظ ـ فحوكموا وأحيلوا إلى الاستيداع ـ وليجد عملا يتكسب منه طلب إحالته إلى المعاش فأجيب طلبه ولكنه لم ينجح فى شغل وظيفة فصار يتردد على مجلس الإمام محمد عبده الذى كان يغمره بفضله ـ وفى عام ١٣٢٩ ﻫ (١٩١١ م) ساعده أحمد باشا حشمت ناظر المعارف فى ذلك الحين وعينه رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية فظل يعمل بها إلى فبراير عام ١٩٣٢م (١٣٥١ ﻫ) إذ أحيل إلى المعاش بعد حوالى عشرين عاما من الخدمة .

وفى بيت صغير بالزيتون من ضواحى القاهرة ـ توفى حافظ الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢١ من يوليو سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ ﻫ) أى بعد إحالته إلى المعاش بنحو أربعة أشهر ونصف الشهر .

ولنعد الآن الى الحديث عن أدب شاعرنا فنقول إن (فكتور هوجو) فى نثر حافظ هو شقيق روحه المعذبة الشقية الذى يشجعها على احتمال الآمها كلما أقتربت من اليأس فيناجيه فى مقدمة رواية (البؤساء) ليستمد منه الإلهام فى ترجمته التى خرجت آية من آيات بيانه فيقول :

« هذا كتاب (البؤساء) وهو خير ماأخرج للناس فى هذا العهد - وضعه صاحبه وهو بائس ونقله مترجمه وهو بائس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة - وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه وعرّبه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه».

«ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه - ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الجنة وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى . وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها فسموت إلى لباب مصاصها وأخذت منها حاجتى لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء»

والوقع هو أن فى سيرة (فكتور جوهو) وسيرة حافظ إبراهيم - كما هما مدونتان قبل - تشابه فى بعض النواحى - (فهوجو) ذاق مرارة اليتم فى شبابه إذ مات والده الجنرال (سيجيسبير هوجو) عام١٨٢٨م - فلجأ مع أمه إلى أحد الأديرة - وذاق حافظ مرارة اليتم وعمره أربع سنوات - «وهوجو»عاش ١٨عاما فى النفى - وحافظ كابد قسوة الحياة العسكرية فى السودان حيث تعرض لكراهية المستعمر الإنجليزى الجبار (اللورد كتشنر) ولكراهية رئيس فرقته العسكرية (رفعت بك) فحوكم وأحيل إلى الاستيداع وهو فى مسيس الحاجة إلى مرتبه ليدفع به غائلة الفاقه والعوز - أما التشابه فى إنتاج كل منهما الأدبى فسأحاول تبيانه فى موضع آخر من هذا البحث .

ومن المقدمة التى وضعها شاعرنا لكتاب (البؤساء) نستدل على أنه كان

يعرف نفسية مؤلفه قبل الإقدام على تعريبه بزمن بعيد وأنه تأثر بهذه النفسية تأثرا عميقا جعله يصمم على أن يكون فى قومه (فكتور هوجو) آخر وقد أفلح فى كثير من النواحى .

فهو مثل (جوهو) لايستطيع الإقامة على الضيم - فيتبرم بالحياة الشقية وينعى حظه السيء فيقول مواسيا نفسه الكبيرة الطامحة :

رُميتُ بها على هذا التَبَاب
وَمَا أوردْتُها غيرَ السَّرَابِ
وَمَا حَمَّلْتُها إلاَّ شَقَاءً
تُقَاضِينِى بِهِ يوم الحِسَابِ
جَنَيْتُ عليكِ يا نفسى وقبلى
عَلَيكِ جَنَى أبى فَدَعى عِتَابى
فَلَوْلا أنَّهمْ وَأدُوا بَيَانى
بَلَغْتُ بِكِ المُنَى وَشفَيْتُ ما بى

وهو (كفكتور جوهو) لا ينفكك عن حث قومه على النهوض من الإغفاء والطموح إلى الرقى بغية الوصول إلى المكان اللائق بحضارتهم العتيدة التى هدت الناس سبيل العلوم والفنون .

فعشرون سنة فى المنفى (بجزيرتى جرزى وجرنزى) جعلت (هوجو) الطريد الشريد المتبرم بالحياة يؤلف (نابليون الصغير - والبؤساء - والعقاب الرادع)

وحياة السودان تحت حرارة الشمس اللافحة والبؤس ونكد العيش بعد ذلك فى مصر - كل ذلك دفع حافظ الطريد الشريد المتبرم بالحياة إلى كتابة أغلب قصائده الوطنيــة والاجتماعية النابضة بما يجيش فى وجدانه من آلام وأسف

وأحزان ويعرب رواية (البؤساء) ثم يخط انتقاداته اللاذعة على عيوب بيئته الأخلاقية فى ليالى سطيح .

فى (نابليون الصغير) ينعت (هوجو) نابليون الثالث بكل مايحط من قدره لخيانته النظام الديمقراطى وإقامة الإمبراطورية الثانية - وعندما اطلع (نابوليون) على هذه الرسالة النقدية قال لحاشيته: اطلعوا أيها السادة على الرسالة الخاصة بنابوليون الصغير التى كتبها فكتور هوجو الكبير !! وقد أراد نابوليون الثالث بهذه العبارة الاستهزاء (بهوجو) على مسمع من رجال بلاطه.

وللرد على هذا الاستهزاء بادر (هوجو) إلى تأليف ديوان (العقاب الرادع) ليقول فيه لخصمه (نابوليون) بالشعر اللاذع :

آه ! إنك ستنتهى بأن تنبحَ كالكلاب أيها الشقى
وضحكتَ عند ذكرِ اسمى فى سرورٍ أرغَى وأزبدْ
ولكنَّنى أمسكُ بيدى الحديدَ الملتهب
وأرى لحمكَ المكوىَّ ينبعث منه الدخان

أما عن رواية البؤساء فإننا إذا تصدينا لتحليل شخصية بطلها (جان فلجان) من الناحية الأخلاقية نلاحظ أنها صورة صادقة لواضعها (هوجو) ومعربها حافظ وذلك إذا استثنينا الحوادث المدونة بأولها التى تجعل من (فلجان) سارقا لرغيف من الخبز ثم سجينا بسبب هذه السرقة التى دفعه إليها العوز.

(فجان فلجان) رجل يتوجع لآلام الإنسانية عقب خروجه من السجن ويقدم على التضحية بكل مايملك فى سبيل هنائها - وكذلك كان مؤلف الرواية وهكذا كان معربها - (فهوجو) لم يثنه عذاب المنفى وبؤس العيش عن المطالبة بحقوق الشعب الفرنسى فى أن يعيش حرا ويختار نظام الحكم الذى يرتضيه - (وهوجو) كان طيب القلب رحيما عطوفا بكل مافى هذه الصفات من المعانى النبيلة - فى ديوانه «الفن فى كيف يكون الإنسان جداً» (L'art d'être grand-père)

ما يوضح عاطفة الأبوة وحنانها التى كانت تستولى على فؤاده إلى جانب العواطف الإنسانية الأخرى .

وكل من عرف أو اتصل بحافظ إبراهيم يشهد له - فى غير تحفظ - بطيبة القلب والكرم والسخاء لدرجة الإسراف - وما شعر حافظ إلاّ أصدق دليل على آلامه المبرحة لشقاء مصر وأبنائها ولشقاء الشرق العربى بأسره .

ولست أبغى من المقارنة والتشابه بين الشاعرين أن أقول بكل ماتقدم إن حافظ إبراهيم كان مقلدا تقليدا أعمى لشاعر فرنسا (جوهو) بل أريد أن أدلل على أن النفوس الكبيرة تميل وفاقا لطبيعتها وغرائزها وأرجاعها المنعكسة النفسية إلى بعض الشخصيات البارزة فى التاريخ فتنهج منهجها فى الحياة وفى الأخلاق والتفكير . وعلى هذا الأساس — تصدق إلى حد ما — النظرية القائلة بوجود تشابه ملحوظ فى كثير من عظماء الرجال الذين ظهروا على مسرح الحياة الاجتماعية والثقافية فى عصور مختلفة .

ولتوضيح نواحى التشابه فى حياة كل من الشاعرين (هوجو وحافظ) أذكر فيما يلى حكم تاريخ الأدب الفرنسى على الشاعر العظيم (فكتور هوجو) :

إن « هوجو » كان يملك عبترية قوية إلى أبعد حدود القوة - ولقد طرق جميع الألوان الأدبية وتفوق فى أغلبها - وهو وإن كان ضعيفا فى الروايات والمسرحيات إلا أنه متقن فى الشعر الغزلى وعظيم فى الشعر الاجتماعى والتهذيبى وفى شعر الملاحم - ومن ثمّ فهو أقل إحساسا وأقل توجعا فى الغزل من الشاعرين (لامرتين وموسيه) ذلك لأنه لم ينشد اللذة ولا الحب بقوة مثلهما» .

«بيد أنه طرق بنجاح فائق الشعر الذى له علاقة بحياته العائلية فى قصائد غاية فى الروعة - فأنشد الحب الأبوى وقص ما يعانيه من آلام فى سبيل الدفاع عن قدره - وتغنى بالعاطفة الجياشة التى تملأ قلبه بحب أولاده وأحفاده - وتوجع لشتاء وطنه وأهله وقومه» .

أما خياله فى منتهى الخصب ـفكان موفقا جدا فى وصف الصور التى تعرض له والأفكار التى تطرأ على بصيرته الواعية ـ فكانت كل فكرة تتمثل فى خاطره تتحول فى نثره أو شعره إلى صورة مادية من السهل عليه توضيح دقائقها بالكتابة وصبغها بلون غاية فى الجمال والروعة».

«وأما عباراته فذات موسيقة عذبة ـ وأما لغته ففنية إلى أبعد حد ـ فما من أحد استطاع أن يدانيه فى معرفة العثور على كلمات اللغة الفرنسية ومترادفاتها ـ ولقد ذهب فى ذلك مذهبا بعيدا لدرجة أنه تعدى الحدود المقبوله ـ فكان يدخل فيما يكتب جملا غامضة تحتاج إلى التفسير ـ مثال ذلك قوله : الشمسُ التى هى الجنةِ والأملُ الذى هو الوَعَلُ

«وكان يحب أن يطرق دائما الموضوعات الضخمة التى تنشد الأبطال والعبقريات والوطنية والتضحية . ولذلك كان يدخل فى كتاباته كلمات قوية التعبير عن الحزن والألم والتشاؤم . فكم نجد فى مؤلفاته كلمة هائل وكلمة قاتم وكلمة مظلم ومخيف »

«وكان يعرف جيداً مقدار عبقريته ونبوغه ومن ثمّ كان يعتبر نفسه أعظم مرشد للشعب الفرنسى ـ ولكنه فى الحقيقة لم يكن إلا صدى الأفكار التى كانت تنبعث حوله من أفراد بيئته».

«وأقوى ظاهرة فى أخلاقه الاجتماعية هى أنه كان يتحبب إلى الجماهير ويخطب دئما ودها»

« وقد قيل عنه بحق إنه رجل عصره وبيئته لأنه عرف آلام هذه البيئة وأفراحها فتوجع لآلامها وطرب لفرحها»

هذا هو مجمل حكم تاريخ الأدب الفرنسى على (فيكتور جوهو) ولننظر الآن

فى أجزاء هذا الحكم لنتعرف على ماينطبق فى الوصف منها على شاعر النيل .

١ — فالتاريخ يذكر أن (جوهو) لم ينجح فى الرواية المسرحية الشعرية — وكذلك كان حافظ الذى يقول الشعر للعاطفة وليس للمسرح أو القصص ويكتب للوصف والتحليل دون سواهما — ولقد حاول وضع رواية فى قالب حوار على لسان جريح يناجى حبيبته وذلك عقب ضرب الأسطول الإيطالى لمدينة بيروت عاصمة لبنان ولكنه لم يفلح فى هذه المحاولة البسيطة فجاء الحوار قصيدة عاطفية أكثر منه رواية خيالية — ويدور الحوار بين هذا الجريح وحبيبته (ليلى) والطبيب الذى يقوم على علاجه وعربى من الشعب — وضرب الأسطول الإيطالى لبيروت حدث عام ١٩١٢م (١٣٣١هـ) فى أثناء الحرب الطرابلسية بين الترك والإيطاليين وفى مطلعها يقول الجريح لليلاه :

(لَيْلاَتِى) مَا أَنَا حَىٌّ ... يُرْجَى ولا أَنَا مَيْتُ
لم أَقْضِ حَقَّ بلادى ... وهأنا قَدْ قَضَيْتُ

ويستمر الحوار بين أبطال القصة الأربعة إلى أن يشرف الجريح على الموت فيقول :

رأيتَ يأسَ طبيبى ... وَهمسَهُ فى فؤادى
لا تَنْدُبِينى فَإنِّى ... أقْضِى وتحيَا بلادى

فيقول الرجل العربى :

أستَوْدِعُ اللهَ شهماً ... نَدْباً طويلَ النجادِ
أستودعُ اللهَ رُوحاً ... كانتْ رَجاءَ البلادِ
فَيَا شَهيداً رَمَتْهُ ... غَدْراً كُراتُ الأعادى
نمْ هانئاً مُطْمئناً ... فلَمْ تَنَمْ أحقادى
فَسَوفَ يُرضيكَ ثأرٌ ... يُذِيبُ قلْبَ الجمادِ

٢ ـ ويذكر تاريخ الأدب الفرنسي أن (هوجو) طرق بنجاح فائق الشعر العائلي وتغنى بحب أولاده وأحفاده ـ وقد استعاض حافظ عن هذا الحب العائلي بحب إخوانه لأنه لم يمارس الحياة الزوجية إلا خلال فترة قصيرة جداً هي أربعة أشهر ـ ولم ينجب أولاداً ليتغنى بحبهم وبالعطف عليهم ـ وفي الأخوانيات التي نظمها قلمه نجد أن حبه لأصدقائه وخلانه يماثل حب شاعر فرنسا لأفراد أسرته ـ فإذا جد به الشوق إلى صديقه الحميم محمد البابلي أرسل إليه يقول:

نَمَى يَا بَابِلِيُّ إليكَ شوقي
وَعَيْنِي لازمتْ سَكْبَ الدُّمُوعِ
وَلَوْ أنِّي تَركتُ سَرَاحَ قلبي
لَطَارَ إليكَ مِنَ قَفَصِ الضُّلُوعِ

وكتب إلى صديقه أحمد بدر وهو يدرس في كلية (أدنبره بانجلترا) بعد أن أشار إلى مايعانيه من بؤس بمصر على الرغم من حبه القوى لها ـ كتب يقول:

لا مِصْـرُ تُنْصِفُنِي وَلا
أنَا عَنْ مَوَدَّتِهَا أرِيمُ
وَإذَا تَحَوَّلَ بَائِسٌ
عَنْ رَبْعِهَا فَأَنَا المُقِيمُ
فِيهَا صَحِبْتُكَ وَاصْطَفَيْـ
ـتُكَ أيُّهَا الخِلُّ الحَمِيمُ
أنا مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ خَبَرْ
تَ وَمَنْ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وصداقة حافظ الوفية وحبه الصادق لخلانه وإخوانه في الله لا يقتصران على

من اصطفا منهم بمصر بل يشمل من توثقت بينه وبينهم عرى المودة فى الوطن العربى بأسره .

فنى مارس سنة ١٩٠٢م [١٣٢٠هـ] بعث إلى صديقه الشاعر اللبنانى داود عمون بقصيدة تنم عن وده الصافى جاء فيها :

وَنخلٌ أقَامَ بأرضِ الشّآمِ
فَبَاتَتْ تُدِلُّ عَلَى جَارِهَا
وأَضحَتْ تَتِيهُ بِرَبِّ القَرِيضِ
كَتيهِ البَوَادِى بِأَشعَارِهَا
ولِلنِّيلُ أَولَى بِذَاكَ الدّلالِ
ومِصرُ أَحَقُّ (بِبَشّارِهَا)

إلى أن يقول له :

أَلَسْتَ فَتَاهَا ومُخْتَارَهَا
وَشِبْلَ فَتَاهَا ومُخْتَارِهَا ؟
وإِنْ قُلْتَ أَصغَتْ مُلُوكُ الكَلامِ
ومَالَتْ إليكَ بِأَبْصَارِهَا
(أَدَاوُدُ) حَسْبُكَ أَنَّ المعالِـ
ـى تَحْسَبُ دَارَكَ فى دَارِهَا
وأَنَّ ضمَائِرُ هذا الوُجُودِ
تَبُوحُ إليكَ بِأَسرَارِهَا

وما من شك فى أن النماذج المدوّنة قبل تدل فى وضوح على أن إخوانيات

حافظ تضاهي فى حبها وإخلاصها الودى عائليات (هوجو) وتصلح - من كل الوجوه - للمقارنة بين الشاعرين فى هذا اللون من حياتها الأدبية.

٣ - ويقول التاريخ عن «هوجو» إنه كان فى الغزل أقل إحساسا وتوجعا من الشاعرين (لامرتين - وموسيه) - وهذا ينطبق أيضا على شاعرنا حافظ إذ لم يكن له فى الغزل باع طويل - وكان نفَسُهُ فيه قصيراً فلم يتغن فى شعره بالغرام والفتنة إلا قليلا - فتحت عنوان «يقين الحب» نظم هذين البيتين:

أذِنتُكِ ترتابينَ فى الشمسِ والضُحَى
وفى النورِ والظَّلْمَاءِ والأرضِ والسَّمَا
ولا تسمحى للشك يخطرُ خطرةً
بنفسِكِ يوماً أنني لستُ مغرمَا

وقال من رسائل الشوق التى دبجها يراعه :

سُورٌ عِنْدى لَـهُ مَكْتُوبَةٌ
وَدَّ لَوْ يَسرى بِهَا الرُّوحُ الأمِينْ
إنَّنِى لا آمَنُ الرُّسْلَ وَلاَ
آمَنُ الكُتْبَ عَلَى مَا تَحْتَوِينْ
مُسْتَهِينٌ بالذى كَابَدْتُهُ
وَهْوَ لا يَدْرِى بِمَاذَا يَسْتَهِينْ
أنَا فى هَمٍّ وَيَأسٍ وأسَى
حَاضِرُ اللَّوْعَةِ مَوْصُولُ الأنِينْ

ونظرة ناقدة يلقيها الفاحص على هذه الأبيات الغزلية تدله فى يسر على أن الإحساس العاطفى والخيال الغزلى الواسع الأفق لا يخالطانها فى قوة تضعها فى الصفوف

المتقدمة التى يحتلها فحول شعراء الغزل فى هـــذا اللون من القريض - وتوضح القلة اليسيرة التى عالج بها حافظ الشعر الغزلى على أنه قليل الميـــل إلى التغزل بالحسان وربات الجمال وما أودعهن الله من بهاء ودلال وأنوثة - وفى قصيدته بعنوان «الشعر» ما يخبر عن قلة هذا الميل فى صراحة - فهو يقول فى هذه القصيدة مخاطبا الشعر :

حَمَّلُوكَ العَنَاءَ مِنْ حِبٍّ (ليلى)
و (سُلَيمى) وَوَقْفَةِ الأطلالِ
وبكاءٍ على عـــزيزٍ تَوَلَّى
وَرُسُومٍ رَاحَتْ بِهِنَّ الليَالى

والواقع هو أن شاعر النيل لم يحمّل شعره هـذا العناء فاهتم إلى أبعد حد بالواقعية وبالتغنى بوادى النيل وأهل وادى النيل فبكى لبكائهم وفرح لفرحهم وسجل نكاتهم فى كثير من قصائده المرحة الفكاهة.

ويعد من باب الشعر الغزلى الذى أنتجه شاعرنا تلك الديباجات التى كان يستهل بها قصائد مديحه على غرار الشعر القديم وهى كثيرة.

٤ - ويذكر التاريخ أن (هوجو) قص ما يعانيه من آلام فى سبيل الدفاع عن قدره وكذلك فعل حافظ - فقد دوّن فى كثير من قصائده ما كان يعانيه من شقاء وبؤس وما كان يستولى على نفسه الكبيرة من حسرة لأن قومه لم يعرفوا قدره ولأن الظروف السيئة لم تنصفه ليهنأ بالعيش الرغيد الذى يستحقه عن جدارة فاستمع اليه وهو يقول فى قصيدته التى مطلعها :

سَعَيتُ إلى كدتُ أنْتَعِلُ الدمَا
وَعُدْتُ وَمَا أعْقَبْتُ إلاّ التَنَدُّمَا

لحَى اللهُ عهدَ الناسطين الذى به
تهدَّم من بنيانِنا ما تهدَّما

وذلك عندما يخاطب أجزاء نفسه بهذه الأبيات :

فما عصمتنى من زمانى فضائلى
ولكن رأيت الموتَ للحُرِّ أعصما

فيا قلبُ لاتجزع إذا عضَّك الأسَى
فإنك بعد اليوم لن تتألَّما

ويا عينُ قد آن الجمودُ لمدمعى
فلا سيلَ دمعٍ تسكُبين ولا دما

ويا يدُ ما كلَّفتُك البسطَ مرةً
لذى منَّةٍ أولى الجميلَ وأنعما

فللهِ ما أحلاكِ فى أنملِ البلَى
وإن كنتِ أحلى فى الطروس وأكرما

ويا قدمى ما سرتِ بى لمذلَّةٍ
ولم ترتقى إلاَّ إلى العزِّ سُلَّما

فلا تبطئى سيراً إلى الموت واعلمى
بأنّ كريمَ القومِ من مات مُكرَما

ويا نفسُ كم جشَّمتُكِ الصبر والرضا
وجشَّمتنى أن ألبسَ المجدَ معلَما

فما اسطعتِ أن تستمرئى مُرَّ طعمه
وما اسطعتُ بينَ القومِ أن أتندَّما

٥ - ويسجل تاريخ الأدب الفرنسى صحائف مجد (لفيكتور جوهو) فى الشعر الوطنى الملتهب بالحماسة فقد توجع لشقاء وطنه وقومه - ولم يتصر حافظ فى هذه الناحية فكان الشعر الوطنى الفياض شغله الشاغل - وكان على غرار (هوجو) من أكبر الشعراء العرب فى عصره الذين عالجوا الشعر الاجتماعى التهذيبى - فالوطنية فى شعره تتدفق كالنهر الهادر - فقد قضى أكبر شطر من حياته فى نصح بنى وطنه وحثهم على تلمس أبواب الرقى والتدرب على متانة الخلق فطرق فى سبيل ذلك جميع أبواب اللوم والتقريع والاستفزاز وضرب الأمثال - وهو يبدأ فى هذا الصدد بإظهار حبه لمصر حبا عارما يستولى على جميع جوانحه فيقول :

كمْ ذَا يُكَابِدُ عَاشِقٌ ويُلاقى
فى حُبِّ مِصْرَ كَثِيرِة العُشَّاقِ
إنى لأحمِلُ فى هَوَاكِ صَبَابَةً
يامصْرُ قدْ خَرَجتْ عَنِ الأطواقِ
لَهْفى عَلَيْكِ مَتى أرَاكِ طَلِيقَةً
يحمى كريمَ حماكِ شَعْبٌ راقى

ثم يترنم بحبها الذى ملك عليه كل ما فى وجـــدانه من عاطفة وحنان فينشد قائلا :

لَعَمرِكَ ما أرِقْتُ لِغَيْرِ مِصْرٍ
ومَالِى دُونَها أمَــلٌ يُرَامُ
ذَكَرْتُ جَلاَلهَا أيَّامَ كانت
يَصُولُ بِهَا الفَرَاعِنَةُ العِظَامُ

وأيّامَ الرجالِ بهـــا رِجالٌ
وأيّامَ الزمانِ لها غُلامُ
فأقلقَ مضجعى ما باتَ فيها
وباتتْ مصرُ فيهِ ، فهلْ ألامُ؟

ويسرى حبه لمصر فى دمه مسرى التيار الكهربى فيتغنى بحبه لأبنائها المصريين أحبائه وأهله الأكرمين فيقول فى قصيدته التى مطلعها :

وقفَ الخلقُ ينظرُونَ جميعاً
كيفَ أبنِى قواعدَ المجدِ وحدِى

وهى القصيدة التى تشدو بها كروان الشرق السيدة أم كلثوم ـ فى هذه القصيدة العصماء بل الخريدة النادرة يصف حافظ المصريين والحب يملأ فؤاده بقوله على لسان مصر :

ورجالى لوْ أنصفُوهمْ لسادُوا
منْ كهُولٍ ملْءِ العيونِ ومُرْدِ
لوْ أصابُوا لهُمْ مجالاً لأبدَوْا
معجزاتِ الذكاءِ فى كلِّ قصْدِ
إنهُمْ كالظُّبَـــا ألحَّ عليْهَا
صدأُ الدهْرِ منْ ثواءٍ وغمْدِ
فإذا صيْقلُ القضاءِ جلاهَـا
كُنَّ كالموْتِ مالَهُ منْ مرَدِّ

فأحبابه المصريون من أنبغ الناس ومن أقدرهم على الرقى وبلوغ ذرى المجد

لو فكت قيودهم وجلا الاستعمار البغيض عن مصرهم أم الحضارة التى يقول شاعرنا بلسانها بعد البيت الأول من القصيدة المدون قبل :

وَبُنَاةُ الأهرامِ فى سالفِ الدَّهْـ
ـرِ كَفَوْنِى الكلامَ عِنْدَ التَّحدى

أَنا تاجُ العلاءِ فى مَفْرِقِ الشَّرْ
قِ وَدُرَّاتُهُ فَرائدُ عِقْدِى

أىُّ شئٍ فى الغَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّا
سَ جَمالاً ولَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدِى

أَنا إنْ قَدَّرَ الإلهُ مَمَاتِى
لا تَرى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرأسَ بَعْدِى

٦ ـ وحافظ (كفكتور هوجو) يتوجع لشقاء قومه وما يلاقيه شعب مصر على أيدى المستعمرين من عذاب واضطهاد بل وتقتيل ـ ويبرز هذا التوجع الصادق فى قصيدته عن حادثة دنشواى المشئومة التى وقعت فى يوم الأربعاء الموافق ١٣ من شهر يونيه عام ١٩٠٦ (١٢٢٤ هـ) إذ قام خمسة من الضباط الإنجليز من معسكرهم وقصدوا إلى بلدة دنشواى بإقليم المنوفية لصيد الحمام . وهناك أصيب بعض الأهالى فاصطدموا بالإنجليز فأصيب بعض الضباط بإصابات ومات أحدهم من حرارة الشمس اللافحة ـ فثارت ثائرة (اللورد كرومر) عميد الدولة البريطانية إذ ذاك ـ وعقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمتهم وكان المدعى العمومى فيها إبراهيم الهلباوى المحامى ـ وقضت هذه المحكمة الجائرة بإعدام أربعة من الأهلين وجلد وحبس ثمانية منهم ـ ونفذ الإعدام فى البلدة على مرأى ومسمع من أهلها ـ وكان فى ذلك الحكم وفى تنفيذه من القسوة ما أثار الأنفس وأطلق ألسنة المواطنين وزعماء النهضة بما يجيش فى القلوب من أسى وحسرة .

وتوجع حافظ إبراهيم لهذا الحادث الأليم ونفث توجعه وألمه النفسى المبرح في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أيُّها القائمونَ بالأمرِ فينا
هلْ نسيتُمْ وَلاءَنا والودادا ؟
خفِّضُوا جيشَكُمْ وناموا هنيئاً
وابتغُوا صيدَكُمْ وجُوبُوا البلادا
وإذا أعوزَتْكُمْ ذاتُ طَوْقٍ
بينَ تلكَ الرُّبا فَصِيدُوا العِبادا
إنَّما نحنُ والحَمامُ سواءٌ
لمْ تُغادِرْ أطْواقُنا الأجيادا

ثم يقول :

أحَسِنُوا القتْلَ إنْ ضَنَنْتُمْ بِعَفْوٍ
أقِصاصاً أرَدْتُمُ أمْ كِيادا ؟
أحسِنُوا القتْلَ إن ضَنَنْتُمْ بِعَفْوٍ
أنُفُوساً أصبْتُمُ أمْ جَمادا ؟
لَيْتَ شِعْرى أتلكَ (محكمةُ التفْـ
تيشِ) عادَتْ أمْ عهدُ (نيرونَ) عادا ؟
كيْفَ يَحْلُو مِنَ القَوِيِّ التَّشَفِّى
مِنْ ضعيفٍ ألْقَى إليهِ القيادا ؟

ثم يتوجه بتعريضه إلى إبراهيم الهلباوى الذى تولى فى هذه القضية الوحشية منصب المدعى العمومى ويقول له :

أيُّها المُدَّعِي العُمُومِيُّ مهْلاً
بَعْضَ هـذا فقَدْ بَلَغْتَ المُرَادَا
قَدْ ضمنَّا لك القَضَاء بمصرٍ
وَضَمِنَّا لِنَجْلِكَ الإسْعَادَا
فإذا ما جَلَسْتَ للحكيم فاذْكُرْ
عَهْدَ مِصْرٍ فقد شفيْتَ الفُؤادَا
لا جرَى النيلُ فى نواحيكِ يا مِصْ
رُ ولا جادَكِ الحَيَا حيثُ جادَا
أنتِ أنبَتِّ ذلكَ النَبْتَ يا مِصْ
رُ فأضحى عليْكِ شوْكا قتَادا
أنتِ أنبَتِّ ناعقاً قامَ بالأمْ
سِ فأدْمَى القُلُوبَ والأكبَادَا
إيهِ يا مِدْرَهَ القَضَاءِ ويا مَنْ
سَادَ فى غَفْلَةِ الزّمانِ وشَادَا
أنْتَ جَلّادُنَا فلا تنْسَ أنَّا
قَدْ لَبِسْنَا علَى يَدَيْك الحِدَادَا

فمن منّا يرى مسيئا لمصر أو لبنى مصر ولا يقول له ـ ولو فى سره إذا لم يستطع الجهر بما فى صدره من ألم لإساءة هذا المسيء ؟

أنْتَ جلاّدُنَا فلا تنْسَ أنّا
قَدْ لَبِسْنا على يديْكَ الحِدادَا

٧ ـ أما فى الشعر الاجتماعى والتهذيبى فقد نافس حافظ إبراهيم (هوجو) فى هذين اللونين من القريض منافسة قوية تضعه فى الصفوف الأولى بين الشعراء الاجتماعيين الواعظين الذين كان لشعرهم تأثير قوى فى نفوس مواطنيهم فأصلح من سلوكهم وهدى الكثير منهم سبل الاستقامة والفلاح ونبذ التقاعس والتواكل والنهوض إلى العمل الجاد المثمر لرقى أممهم فى شتى المجالات الإنسانية .

ولما كان حافظ قد قضى معظم أعوام حياته فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر فإن أغلب أشعاره الاجتماعية التهذيبية كانت استفزازا لهمم مواطنيه ـ فهو يستفزهم ليستيقظوا من غفلتهم ويركن إلى تقريعهم لينهضوا ويشبوا نحو الخلاص من الاستعباد والاستغلال ويلومهم على التواكل لينفضوا غبار التقاعد عن ثيابهم ويسيروا فى طريق الرقى رافعى الرءوس تحدوهم العزة والكرامة والإباء . فهو إذا خاطب رئيس مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى عام ١٩٠٩ م . بثه آلامه وآلام الشعب المصرى ثم يصف له حال هذا الشعب المؤسفة وما آل إليه أمره من البؤس والخورر والتواكل . وكل ذلك ليستفز قومه ويحثهم على الاستيقاظ من سباتهم العميق فيقول

أرَى شَعْبًا بِمَدْرَجَةِ العَوادِى
تَمَخَّضَ عَظْمَهُ دَاءٌ عُقَامُ
إذَا مَا مَرَّ بالبَأسَاءِ عَامٌ
أطَلَّ عَلَيْهِ بِالبَأسَاءِ عَامُ
سَرَى دَاءُ التَّواكُلِ فِيه حَتَّى
تَخَطَّفَ رِزْقَهُ ذَاكَ الزِّحَامُ
قَدْ اسْتَعْصَى عَلَى الحُكَمَاءِ مِنَّا
كَمَا اسْتَعْصَى عَلَى الطِّبِّ الجُذَامُ

هلاكُ الفردِ منشؤُه توانٍ
ومَوتُ الشعبِ منشؤُه انقسامُ
وإنَّا قد ونَيْنا وانقسمنا
فلا سَعْىٌ هُناكَ ولا وِئامُ
فساءَ مُقامُنا في أرضِ مصرٍ
وطابَ لغيرنا فيها المقامُ
فلا عجَبٌ إذا مُلِكَتْ علينا
مذاهبُنا وأكثرنا نيامُ

وهو يذهب فى استفزازه وتقريعه اللاذع لدرجة أنه يتمنى لمواطنيه شقاء لايحتمل ليمزقوا أكفانهم ويخرجوا من قبورهم إلى العالم خلقا جديدا خالصا من تلك المساوىء التى يراهم عليها فى الأبيات المدونة قبل فيقول (لفورست) الذى عين عام ١٩٠٧ خلفا (لكرومر) بعد أن يذكره بمأساة دنشواى وما اقترف الإنجليز فيها من فظائع وحشية كان من نتائجها إعدام أربعة من المواطنين ظلما وعدوانا :

قتيلُ الشمسِ أورثَنا حياةً
وأيقظَ هاجعَ القومِ الرقودِ
فليتَ (كرومراً) قدْ دام فينا
يُطوِّقُ بالسلاسلِ كُلَّ جِيدِ
ويُتْحِفُ مصرَ آناً بعدَ آنٍ
بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لننزعَ هذه الأكفانَ عنَّا
ونُبعثَ فى العوالِمِ منْ جديدِ

وإذا زار إيطاليا رجع ليستنهض قومه ويحثهم على تتبع خطوات الأمم المتحضرة الراقية ويعنفهم على الركود الذى يخيم على هممهم المتخلفة فيصف لهم ماشاهده فى ذلك القطر الأوروبى من تقدم ورقى ويقول مقارنا هذا الرقى بتخلفهم:

جَوُّهُمْ فى تقلبٍ واختلافٍ
غير أن الثَّباتَ فيهم وفيرُ
جَوُّنا أثبتُ الجواءِ ولكنْ
ليس فينا على الثباتِ صَبُورُ
ولديهم مِنَ الفنونِ لُبَابٌ
ولدينا من الفُنُونِ قُشُورُ
أنكرَ الوقفَ شرعُهم فلهذا
كلُّ ربعٍ بأرضهم مَعْمُورُ
ليسَ فيها مُسْتَنْقَعٌ أو جِدارٌ
قد تداعى أو مسكنٌ مهجورُ
كلُّ شبرٍ فيها عليه بناءٌ
مُشْمخرٌ أو روضةٌ أو غديرُ

إلى أن يقول :

نَضَّروا الصخرَ فى رءوسِ الرَّواسى
ولدينا فى موطنِ الخصبِ بُورُ
قد وقفنا عندَ القديمِ وساروا
حيثُ تسرى إلى الكمالِ البُدُورُ

وكأنى بحافظ فى هذه الأبيات اللاذعة كان يبغى أن تصل مصرُ إلى ماوصلت إليه الآن

من التقدم الملحوظ فى كل النواحى العمرانية - فالثبات الآن لا ينقصنا والفنون لدينا فى تقدم سريع ورقى مرموق والوقف حل وصار حرا يتصرف المستحقون فى أعيانه بالتعمير أو البيع - والمستنقعات تردم فى جميع محافظات القطر المصرى والتعمير يجرى على قدم وساق - والسد العالى يشرف على الإتمام ولن يكون بمصر مناطق زراعية بور بعد الإفادة من ميـــاهه العارمة وبعد استصلاح الأراضى الذى يتم فى سرعة مدهشة - وقد تركنا القديم وسرنا فى طريق الجديد تنافس الدول الكبرى فى الحياة الاجتماعية القائمة على العدل وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين - ومن ثمّ نجد أن شاعر النيل عنف مواطنيه وقد أفاد تعنيفـه وأثمر تقريعه الوطنى إلى أبعد حد .

ومن استفزاز شاعر النيل لقومه تذكيرهم بتاريخ أبائهم وأجدادهم المجيـــد وندبه جاههم ومجدهم الضائع ليتحسروا على مافات ويعملوا جاهدين على تجديد هذا الجاه وهذا المجد المفقودين - فهو يقول فى حسرة تذيب الأفئدة :

لم يبقَ شىءٌ من الدُنيـَا بأيـْدينَا
إلا بقيّـــةُ دمـع فى مآقينـــا
كُنّا قِلادَةَ جيدِ الدهرِ فانفرطتْ
وفى يَمينِ العُلا كُنّا رَيَاحينَا
كانت منازِلُنا فى العزّ شامخـــةً
لا تَشْرُقُ الشمسُ إلاّ فى مغَانينَا
وكانَ أقصَى مُنَى نهرِ المجرّةِ لوْ
مِنْ مائهِ مُزجتْ أقدَاحُ سَاقينَا
والشهبُ لو أنَّهـا كانت مُسخّرةً
لِرجْمِ منْ كانَ يبْدُو منْ أعادينَا

فلم تزل صروف الدهر ترمقنا

شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا

حتى غدونا ولا جاهٌ ولا نسبٌ

ولا صديقٌ ولا خِلٌّ يواسينا

وما من شك فى أن كل من كان يقرأ هذه الأبيات الحزينة التى نشرت عام ١٩٠٢م (١٣٢٠ ﻫ) كان يتمثل الدنيا وقد ضاقت فى عينيه ومستقبل وادى النيل وقد بدا مظلما مخيفا فيستولى الأسى على جنبات وجدانه ويتحفز لاستعادة مجد مصر وعزة أبناء وادى النيل وينتفض وقد قويت عزيمته للعمل على رقى بلاده ورفعتها - وقد ترك حافظ لمواطنيه طائفة من الأمثال تنبعث منها الحكم السديدة التى مازال جميع الذين رددوا أشعاره واستوعبوا معانيها الوطنية والاجتماعية يحفظونها ويستشهدون بها كلما حضرتهم المناسبات التى تنطبق عليها .

ففى قصيدته التى أنشدها فى حفل جمعية رعاية الأطفال فى ٨ من أبريل عام ١٩١٠ م (١٣٢٨ ﻫ) خط يراعه الأبيات الثلاثة الآتية التى توضح لبنى وطنه معنى الإحسان المجرد عن الغايات - الإحسان النبيل الكريم الذى يقدم للمحتاجين ابتغاء مرضاة الله وليس للبانة يراد قضاؤها فيقول :

خيرُ الصنائع فى الأنامِ صنيعةٌ

تَنْبُو بحاملِها عن الإذلالِ

وإذا النوالُ أتى ولم يُهرقْ لهُ

ماءُ الوجوهِ فذاكَ خيرُ نوالِ

مَنْ جادَ مِنْ بعدِ السؤالِ فإنَّهُ

وَهوَ الجوادُ - يُعدُّ فى البُخَّالِ

وإذا أراد أن يثبت لهم أن تعليم المرأة ضرورة ملحة ينبغى أن تحقق

لأعداد جيل من النسل القويم الذى يأخذ بيد الأمة فى سبيل الفلاح يقول لهم فى قصيدته التى ألقاها فى حفل أقيم لإعانة مدرسة البنات ببورسعيد فى ٢٩ مايو عام ١٩١٠ م (١٣٢٨ هـ) :

مَنْ لى بتربيةِ النساءِ فإنَّها
في الشَّرقِ عِلَّةُ ذلكَ الإخْفَاقِ
الأمُّ مدرسةٌ إذَا أعْدَدْتَهَا
أعْدَدْتَ شعباً طيِّبَ الأعْرَاقِ
الأمُّ رَوْضٌ إنْ تَعَهَّدَهُ الحَيَا
بالرِّىِّ أوْرَقَ أيَّمَا إيراقِ
الأمُّ أستاذُ الأساتذةِ الأُلَى
شغلَتْ مآثِرهُمْ مَدَى الآفاقِ

ولقد تحقق ما كان يصبو اليه حافظ ـ فلو ظل فى قيد الحياة حتى الآن لشاهد تقدم المرأة المصرية ورقيها الثقافى وشغلها أعلى مناصب الدولة حتى منصب الوزارة ولقرَّ عينا بما تمنى لها من تعليم وسيادة ولرأى الجيل الناهض الذى ربته المرأة المصرية المثقفة أحسن تربية يسير قدما فى طريق الرقى الصاعد فى كافة مجالات الحياة العملية .

وعندما يزين لأهل مصر التزود بالعلم يسدى لهم هذه الحكمة البالغة فى ثنايا قصيدته التى قالها فى تهنئة مجلة المقتطف بعيدها الخمسينى فى أول يوليو عام ١٩٢٦م (١٩٤٥ هـ) فيتحفهم بهذين البيتين:

العِلْمُ فى البَأساءِ مُنْزِلةٌ رَحْمَةً
والجهلُ فى النَّعْمَاءِ سَوْطُ عَذَابِ

ولَعَلَّ وِرْدَ العِلْمِ ما لَمْ يَشْرَعهُ
سَاقٍ مِنَ الأخْلاقِ وِرْدُ سَرابِ

ويسوق حافظ ـ للتدليل على أن الظلم يعز فى النفوس المغلوبة على أمرها ـ حكمة تصلح لأن يضرب بها المثل فى أى وقت من أوقات الزمن على مر أعـــوامه وقرونه إذ يقول :

عَلَى قَدْرِ الأذَى والظلمِ يَعْلُو
صِيَاحُ المُشْفِقينَ مِنَ المزيدِ

وإذ مثلت أمام عينيه فظائع الحرب العالمية الأولى نشر فى ١٥ من يناير عام ١٩١٥ م (١٣٣٤ ﻫ) قصيدة يخاطب بها غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا فى ذلك الوقت ويلومه على شنه تلك الحرب المدمرة فيقول له فى نهاية هذه القصيـــدة الأبيات التالية:

أكثرتَ مِنْ ذِكرِ الإلهِ تَوَرُّعا
وزعمتَ أنكَ مُرسَلٌ وأمـــينُ
عجبًا أتذكرهُ وتملأ كَوْنَهُ
ويْلاً لينعَمَ شَعْبُكَ المَغْبُونُ ؟
وكذاكَ القَصَّابُ يَذْكُرُ رَبَّهُ
والنَّصْلُ فى عنقِ الذبيحِ دَفِينُ

وفى البيت الأخير حكمة هى من أروع الأمثال التى تضرب لكل من يتظاهر بالورع والشفقة وهو فى الحتمية شرير قاتل

ولم يقتصر حافظ إبراهيم على إبراز حبه لمصر وأبناء مصر فى روائع شعره فأبدى هذا الحب الصادق النبيل لأهل العروبة جميعا فى عديد من قصائده ـ ففى

الحفل الذى أقيم بالقاهرة لتكريم جماعة من السوريين خلال عام ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) يقول لأفراد هذه الجماعة وكأنه يمهد بشعره لقيام الجامعة العربية والوحدة العربية :

إذا أَلَمَّتْ بوادِى النيلِ نازلَةٌ
بَاتَتْ لها راسياتُ الشأمِ تَضْطَرِبُ
وإنْ دَعا فى ثَرى الأهرامِ ذو ألمٍ
أجابَهُ فى ذُرا لُبْنانَ مُنْتَحِبُ

ويواصل قصيدته إلى أن يمد لهم يده قائلا :

هذِى يَدِى عَنْ بَنِى مِصْرٍ نُصافحكُمْ
فَصَافِحُوهَا تُصَافِحْ نَفْسَهَا العَرَبُ

وقد تصافحت أيدى العرب بعد ذلك بالفعل وكانت قصيدة شاعر النيل من أوائل اللبنات التى وضعت فى كيان الجامعة العربية وفى كيان الوحدة العربية الكاملة التى يصبو إليها كل عربي فى وطنه الكبير الممتد من المحيط الأطلنطى إلى الخليج العربى .

ويؤكد شاعرنا هذه الوحدة العربية فى المشاعر ونبضات القلوب وفى السلوك والوطنية ووحدة المصير — فيقول فى بيروت لدى زيارته للبنان عام ١٩٢٩ م (١٣٤٨ هـ)

لى مَوْطِنٌ فى رُبوعِ النيل أعظِمُهُ
ولى هُنا فى حِماكُمْ مَوْطِنٌ ثانى
إنِّى رأيتُ عَلَى أهْرامِها حُلَلاً
مِنَ الجَلالِ أراهَا فوقَ (لُبْنانِ)

لم يَمْحُ مِنهَا ولا مِنْ حُسْنِ جِدَّتِها
عَلَى التَعَاقُبِ ما يَمْحُو الجَديدَانِ
حَسِبْتُ نفسى نَزِيلاً بَيْنَكُمْ فإذَا
أهْلِى وصَحْبِى وأحْبَابِى وجِيرَانى

وكأنى بحافظ كان يتنبأ وهو ينشد هذه القصيدة بالروح العربية الأصيلة التى ظهرت جلية واضحة فى التشام شمل العرب وإخائهم المتين وقد برز هذا الإخاء قويا متين الدعائم عندما اعتدت الصهيونية يساندها الاستعمار على الدول العربية - فقد هبت هذه الدول تسهم فى الذود عن حياض الأراضى العربية واختلطت دماء شهدائها فى أثناء العدوان الإسرائيلى فى اليوم الخامس من شهر يونيه عام ١٩٦٧ م (١٣٨٧ هـ) بدماء الشهداء من أبناء مصر دفاعا عن استقلال الوطن العربى الكبير وصون أراضيه والحفاظ على استقلاله .

٨- وعلى غرار (فكتور هوجو) شكا حافظ إبراهيم من صروف الدهر القاسية وبث أنات قلبه فى كثير من قصائده ولا سيما فى مراسيه وقد قال ذلك عن نفسه :

إذَا تَصَفَّحْتَ دِيوَانى لِتَقْرَأنى
وَجَدْتَ شِعْرَ المَرَاثى نِصْفَ ديوانى

وقد سعى شاعرنا إلى طيب العيش ولكن الزمان لم ينصفه فقضى شطراً كبيرا من حياته يقاسى مر العيش وضيق ذات اليد بعد أن عضه حرمان اليتم بنابه ولمَّا يزل فى عهد الطفولة الغضة - وفى هذا الإخفاق - فيما سعى إليه يحكى لك حالته القاتمة وهو فى أعماق السودان فيقول:

سَعَيْتُ وكَمْ سَعَى قَبْلِى أديبٌ
فآبَ بِخَيْبَةٍ بَعْدَ اغْتِرَابِ

ومَا أعْذَرْتُ حَتّى كانَ نَعْلى
دَماً ووسَادَتى وجْهَ التُرابِ
وحَتّى صَيَّرتْنى الشمْسُ عَبْداً
صَبِيْغاً بَعْدَ مَا دبَغَتْ إهَابِى

وفى القصيدة التى أنشدها فى حفل جماعة رعاية الطفل عام ١٩١١م (١٣٣٠هـ) وصف حافظ ما كابده من بؤس وشقاء فى أبيات تستدر الدموع وتغمر القلوب بالأسى والتوجع فقال :

لمْ أقِفْ مَوْقِفى لأنشدَ شعراً
صُبَّ فى قالبٍ بديعِ النِّظَامِ
إنمَّا قُمتُ فيهِ والنَّفسُ نَشْوَى
منْ كئوسِ الهُمومِ والقلبُ دَامى
ذُقْتُ طعمَ الأسى وكابدتُ عيشاً
دونَ شِرْبى قَذاهُ شُرْبُ الحِمامِ
فتَقَلَّبْتُ فى الشقَاءِ زَماناً
وتَنقَّلْتُ فى الخُطوبِ الجِسَامِ
ومَشَى الهمُّ ثاقِباً فى فؤادى
ومَشَى الحُزْنُ ناخِراً فى عِظَامى
فلِهذا وقفتُ أسْتَعْطِفُ النَا
سَ عَلَى البَائسينَ فى كلِّ عَامِ

وفى هذين الأنموذجين من شعر حافظ الذى يتناول بؤسه مايكفى للتدليل على ما كان يعتمل فى وجدانه المعذب من حسرة ولوعة وحزن قاتم ولاسيما إذا

أضيفا إلى الأبيات التى ذكرت قبل والتى أوائلها: «رميت بها على هذا التبابى ... ولا مصرٌ تنصفنى ... وسعيت إلى أن كدت أنتعل الدما ...»

٩ ـ ويشهد تاريخ الأدب الفرنسى (لفكتور هوجو) بالقوة فى الخيال والسهولة فى تصوير المرئيات والوضوح فى سرد الفكر والموسيقية فى العبارة والمتانة فى اللغة إلى حد البحث عن الألفاظ الرنانة .

وهذه صفات تجتمع كلها فى شعر حافظ ونثره ـ فالخيال فى شرح مايخالج ضميره من انفعالات وعواطف وأحاسيس لاتنقصه . وبراعة التصوير تكاد تلمس باليد فيما يصف ويصور . فهو إذا وصف الشمس يقول لك :

لاحَ مِنْهَا حَاجِبٌ للنَاظِرِينْ
فَنَسُوا بالليلِ وضَّاحَ الجَبِينْ
وَمحَتْ آيَتُهَا آيَتَهُ
وَتَبَدَّتْ فِتْنَةً للعَالمِينْ

إلى أن يقول فى وصفها :

هِىَ أمُّ الأرضِ فى نِسْبَتِهَا
هِىَ أمُّ الكَوْنِ والكَوْنُ جَنِينْ
هِىَ أمُّ النَارِ والنورِ معاً
هِىَ أمُّ الرِّيحِ والماءِ المَعِينْ
هِىَ طَلْعُ الرَّوْضِ نَوراً وَجَنَى
هِىَ نَشْرُ الوَرْدِ ، طِيبُ اليَاسِمِينْ
هِىَ مَوتٌ وَحَيَاةٌ للوَرَى
وَضَلالٌ وهُدَى للغَابِرِينْ

وإذا وصف المدفع جعلك تتمثله فى خاطرك وهو يلقى بقنابله المدمرة على أهدافه لترهب الأعداء وتنتزع أرواحهم خطفا فينشد :

مَمْلكَةُ المِدفَعِ ذاتُ الخَالِ
قامَتْ بِحَوْلِ النَارِ والزِّلْزالِ
فَأرهبَتْ أفئِدةَ الأبطالِ
أرهبَها مُزعزِعُ الجبالِ
ومُفزِعُ اللّيُوث فى الدِّحالِ
وقاطِعُ الآجالِ والآمالِ
وخاطِفُ الأرواحِ مِنْ أميالِ
يَثُورُ كالبُركانِ فى النِّزالِ
فيُتْبِعُ الأهوالَ بالأهوالِ
ويُرسِلُ النارَ علَى التَوالى
فيَحْطِمُ الهامَ ولا يُبالى

أما الموسيقى فى شعره — ولا سيما فيما له علاقه منه ببؤسه وشقائه فى الحياة — فلا يستطيع أن ينكرها من يرددون قصائده فى هذا اللون من قريضه الذى تنبعث منه روح الألم الصادق — ألم النفوس الكبيرة المعذبة — وفى النماذج المدونة قبل مايدل على هذه الموسيقى الرنانة الجرس فى وضوح وجلاء .

وأما البحث عن الألفاظ القوية التعبير فى أدب حافظ فشرط يلازمه خصوصا فى النثر.

فإذا عرَّب رواية (البؤساء) أدخل فى التعريب — كما أدخل المؤلف فى الرواية — مجموعة كبيرة من الجمل والعبارات المنمقة التى تشعر القارى ببحث حافظ عنها طويلا

قبل وضعها فى التعريب ـ مثل ذلك الجمل الآتية : « مال ميزان النهار ـ واكتهل اليوم ـ وركب نعليه عامة يومه » .

وإذا كتب ليالى سطيح فعل ذلك على نطاق أوسع فيقول : ثم حانت منه التفاتة إلى السماء فإذا الظلمة تنجلى عن أطرافهـا إنجلاء الخضاب عن البتذال الأشيب أو يقول : خذوا مضاجعكم إذا طرّ شارب الظلام.

أما الكتاب الذى بعث به إلى الإمام الشيخ محمد عبده وهو فى السودان فأقوى برهان على تصيده الألفاظ الضخمة فى نثره ـ فهو يقول للإمام فى صدر هذا الكتاب .

« كتـابى إلى سيدى ، وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل ، ومن تيهى به فوق النثرة والإكليل ، وقد تعجلت السرور ، وتسلفت الحبور ، وقطعت مابينى وبين النوائب ـ ثم يتطرق بعد أن يمنى نفسه بالأمل العريض فى فضل الإمام عليه فيقول :

«وهأنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة ، وينطوى أجل تلك الفترة، وينظر لى سيدى نظرة ترفعنى من ذات الصدع ، إلى ذات الرجع ، وتردنى إلى وكرى الذىفيه درجت رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها،ورد الوفى الأمانات إلىأهلها»

وبعد أن يشكو همـه وكراهية (كتشنر) الإنجليزى الجبار له وضغينته الشريرة عليه يختتم كتابه بهذه العبارات السجعية المليئة بالكلمات المنتقاة الرنانة :

«وإنى أهديـك سلاما لو امتزج بالسحاب ، واختلط منه باللعـاب لأصبحت تتهادى بقطرة الأكاسرة وأمست تدخر منه الرهبـان فى الأديرة ، ولأغنى ذات الحجاب عن الغـالية والملاب ، ولا بدع إذا جاد السيد بالرد ، فقد يُرى وجه المليك فى المرآة ، وخيال القمر فى الأضاءة ، وإن حال حائل ، دون أمنيـة هذا

السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا ييأس من غدك ، فأنت خـــير ماتكون حين لاتطن نفس بنفس خيرا ، والسلام».

ومن كل هذه النماذج الشعرية والنثرية المدونة قبل يتضح أن نفس « هوجو» وحافظ كانتا على صلة فكرية وثيقة ـ وأن شاعر الوطنية والاجتماع المصرى نسج على منوال شاعر الوطنية والاجتماع الفرنسى دون أن يسرق معانيه أو يقلده تقليدا أعمى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أخلاق حافظ تتميز بظاهرة نجدها واضحة فى شعره ولا نكاد نلمحها فى شعر « هوجو ». هى أن شاعر النيل تطبعه دعابة مرحة بطابع مصرى بحت ـ على الرغم مما لاقى من قسوة الزمن . فلا يخطىء أحد فى معرفة جنسيته بمجرد أن يتصفح ديوانه وكان من بنى مصر أو ممن أقاموا بها وخبروا طباع أهلها وعاداتهم ونكاتهم .

فدعابة حافظ المرحة لاتفارقه طويلا ــ فهى تظهر فى أكثر قصائده حتى فى تلك التى تتناول عظائم الأمور .

فإذا تعرض لغلاء الأسعار وأنشد ليحث المصلحين فى مصر على الالتفات إلى حاله الفقير قال لهم وهو يصور نفسية هذا الفقير الجائع:

وَيَخَالُ الرغيفَ فى البعدِ بدراً
وَيَظُنُّ اللحومَ صَيْداً حَرَاَما

إنْ أصَابَ الرغيفَ منْ بَعدِ كَدٍّ
صَاحَ مَنْ لى بِأنْ أُصِيْبَ الإدَاَما

وإذا استقبل مقدم «السير غورست» المعتمد البريطانى الذى جاء مصر عام ١٩٠٧ بعد « اللورد كرومر » بقصيدة يصف فيها آلام الشعب المصرى طالبه بتفريج الأزمة المالية التى كانت تجتاح البلاد حينذاك قائلا له فى تهكم :

وَفَرِّجْ أزْمَةَ الأمْوَالِ عَنَّا
بِمَا أوتيتَ مِنْ رأى سَدِيدِ
وسَلْ عَنْهَا اليهودَ ولا تَسَلْنَا
فَقَدْ ضَاقَتْ بها حيلُ اليَهُودِ

وحتى إذا طالب أعضاء مجلس شورى القوانين بأن يكونوا حريصين على حقوق البلاد فلا يخلو طلبه من الدعابة المصرية-فيحذرهم من المستعمرين قائلا :

وَخَافُوهُمْ إذَا لانُوا فإِنِّى
أرَى السُّوَّاسَ ليسَ لهم زِمَامُ
فَكَمْ ضَحِكَ العميدُ على (لِحَانَا)
وَغَرَّ سُرَاتَنَا مِنْهُ ابْتِسَامُ

ثم يحذرهم من جشع شركات الاحتكار الأجنبية ومن ابتزازها ثروات مصر فى غير ورع فينصحهم منشداً :

وَمَا الموتُ الزؤامُ إذا عَقَلْنَا
سوى الشَرِكَاتِ حَلَّ لها الحَرَامُ
لَقَدْ سَعِدَتْ بِغَفْلَتِنَا فَرَاحَتْ
بِثَرْوَتِنَا وأوَّلُها (التَرَامُ)

وعندما يتصدى لهجو سلوك الجرائد فى ذلك الحين ويندد بركونها إلى الكذب ونشر الأخبار المختلقة يقول فيها :

جَرَائدُ ما خُطَّ حَرْفٌ بها
لِغَيرِ تَفْرِيقٍ وتَضْلِيلِ

يَحْلُو بِهَا الكذبُ لِأَرْبَابِها
كَأَنَّهَا أَوَّلُ أَبْرِيلِ

وفى الحفل الذى أقامه أعضاء نادى طنطا عام ١٩١٢ م (١٣٣١ هـ) تكريما لحفنى ناصف بمناسبة انتقاله من القضاء إلى التفتيش بنظارة المعارف لم تفارق النكتة المرحة حافظ وهو يكرم صديقه الحميم فيقول له:

لَوْلاَ الحَيَاءُ وَلَوْلاَ
دِينِى وَعَقْلِى وَسِنِّى
لَقُمْتُ فى يومِ (حِفْنِى)
أَدْعُو لِسَكْرَةِ (يَنِّى) !!

وعبارة (سكرة ينى) كانت إلى وقت قريب تضرب مثلا لمن يستغرق فى شرب الخمر حتى يفقد الوعى ـ فيقال فيه إنه (سكر سكرة ينى) أى أنه أسرف فى شرب الخندريس عند (الخمار اليونانى ينى) حتى أضاع صوابه .

ولما يتطرق إلى وصف رجل عظيم البطن ضخم البدن ثقيل الظل يقول له :

عَطَلْتَ فَنَّ الكَهْرَبَاءِ فَلَمْ نَجِدْ
شَيْئًا يَعُوقُ مَسِيرَهَا إِلاَّ كَا
تَسْرِى عَلَى وَجْهِ البَسِيطَةِ لَحْظَةً
فَتَجُوبُهَا وَتَحَارُ فى أَحْشَاكَا

هذا هو حافظ إبراهيم المرح الذى اشتهر بالسرعة (فى النكتة) المصرية التى كانت من خصائص روحه المرحة فى جميع المجالات التى ضمته للسمر أو للتحدث فى الأدب ـ فكان بهذا المــرح العابر لايدل ظاهره على باطنه الذى يضم من

الأرزاء ما جعله يتمنى لو أنه لم يولد — فيقول والأسى المضى يستولى على قلبه الحزين فى قصيدته التى نشرت عام ١٩٠٠ م (١٣١٨ هـ) بعنوان الإخفاق بعد الكد :

ماذَا أصبْتَ منَ الأسْفَارِ والنَصَبِ
وَطيِّكَ العُمْرَ بَيْنَ الوَخْدِ والخَبَبِ؟
نَرَاكَ تَطْلُبُ لاهَوْناً ولا كَثَباً
ولا نَرَى لكَ منْ مَالٍ ولا نَشَبِ
لا تُطْعِمَا فِىَ أنيَابَ الملام عَلَى
هذا العِثَارِ فإنِّى مَهْبِطَ العَجَبِ
وَدِدْتُ لو طرَحُوا بِى يومَ جئْتُهُمُ
فى مسبَحِ الحُوتِ أو فى مسرحِ العَطَبِ
لعَلَّ (مَانِىَ) لاقَى ما أكابدُهُ
فَوَدَّ تعجيلنَا منْ عالَمِ الشجَبِ
إنِّى احتَسبْتُ شبَاباً بِتُّ أنفِقُهُ
وعَزْمَةً شَابَت الدُنيا ولم تشِبِ
كَمْ هِمْتُ فى البِيدِ والآرامُ قائلةٌ
والشمْسُ ترمى أديمَ الأرضِ باللَّهبِ
وكَمْ لبِسْتُ الدُجَى والتُّرْبُ ناعِسةٌ
والليْلُ أهْدأُ منْ جأشى لدَى النُّوَبِ
والنَّجْمُ يعجَبُ منْ أمرِى ويحْسَبُنِى
لَدَى السُّرَى ثامناً للسبْعةِ الشُّهُبِ

لكنَّنى غيرُ مجْدُودٍ وما فتِئتْ
يدُ المقَادِيرِ تقْصِينى عن الأرَبِ

وحافظ إبراهيم البائس الذى قاسى من الشقاء ألوانا ومن الإخفاق أتعسه يندب حظه العاثر موجها شعره إلى آدم أبى البشر وإلى نوح منقــذ الإنسان فى سفينته فيقول لهما :

سليلَ الطِّينِ كمْ نِلْنا شقاءً
وكمْ خطَّتْ أنامِلُنا ضريحَا
وكمْ أزْرَتْ بِنَا الأيَّامُ حتَّى
فدَتْ بِالكبْشِ إسْحاقَ الذَّبيحا
وبَاعتْ يُوسُفًا بيْعَ المَوالِى
وألْقتْ فى يدِ القَوْمِ المَسيحَا
ويَا نُوحًا جَنيْتَ على البَرايَا
ولمْ تمْنَحْهُمُ الوُدَّ الصَّحيحَا
علامَ حمَلْتَهُمْ فى الفُلْكِ هلَّا
تركْتَهُمُ فكُنْتَ لهُمْ مُريحَا ؟
أصابَ رِفاقِىَ القِدْح المُعلَّى
وصادَفَ سهْمِىَ القِدْح المَنِيحَا
فلوْ ساقَ القضَاءُ إلىَّ نفْعاً
لَقامَ أخُوهُ مُعْترِضاً شحيحَا

ففى شكواه الأولى يتمنى لو أنه لم يخلق أصلا وفى الثانية يلوم آدم أبا البشر ونوحا لأنهما أنقذا بنى الإنسان من العدم مع أن الدنيا أزرت بهم فباعت يوسف

كالعبيد وجعلت الكبش فداء لإسحاق (وهو بذلك يردد قول البعض إن الذبيح لم يكن إسماعيل) ثم ينعى خطه إذ صادف سهمه القدح المنيح وهو السهم السابع من القداح الذى لا نصيب له ولا فرض - وحتى لو ساق القضاء إليه نفعا فإن أخاه القدر يقوم معترضا فلا يصيبه من هذا النفع شىء.

هذا هو حافظ إبراهيم مقارنا فى تاريخه الأدبى بشاعر فرنسا الكبير (فكتور هوجو) - وكما أثر (هوجو) فى الأدب الفرنسى حتى صار أبا للمذهب «الرومانسى» فى فرنسا فإن حافظ إبراهيم قد أثر فى أبناء جيله من المصريين أعمق التأثير - فطائفة كبيرة ممن عاصروه فى عهد شبابهم وتذوقوا شعره - ولا سيما الوطنى منه - ومارسوا نظم الشعر فى نهاية القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين قد اتخذوا منه نبراسا لهم - ومن ثمّ كان حافظ صاحب مدرسة أدبية تخرج منها عدد غير قليل من الشعراء وكان لى الحظ بأن أكون أحد المتواضعين منهم.

فقد كانت قصائد حافظ تلعب بوجدانى وتستولى على شعورى - فكنت استوعبها ثم احفظها فى غبطة وتقدير فائق لشاعر النيل - وكان من نتائج هذا التوافق فى المزاج الشعرى أن جاءت بعض القصائد التى جرى بها قلبى وكأنها مستوحاة من قصائده من حيث الكيان الكلى والتعبير العام الذى ينبعث منها - وأبعد من ذلك فقد قلت فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧م (١٣٤٦ هـ) فى حفل تأبين المرحوم سعد زغلول بمسرح محمد على (مسرح سيد درويش حاليا) قصيدة صدرتها بالأبيات الثلاثة التالية :

عَظُمَ الخَطْبُ مُذْ نُعِيتَ وَخَابَ

أَملُ الشَّعْبِ إِذْ تَلَقَّى المُصَابَا

فَقَدَ النيلُ فيكَ خَيْرَ زَعيمٍ

فى جَلالِ الوَقارِ عَنْ مصْرَ نَابَا

فشيبٌ وراءَ نعشِك يبكى
وشبابٌ من روعةِ الرزءِ شابا

وأنشد حافظ إبراهيم فى حفل تأبين الفقيد فى اليوم السابع من أكتوبر عام ١٩٢٧ (أى بعد يومين فقط من إلقاء قصيدتى) - أنشد شاعر النيل من البحر والقافية نفسها قصيدته التى مطلعها :

إيهِ يا ليلُ هل شهدتَ المُصابا
كيفَ ينصبُّ فى النفوس انصبابا
بلّغْ المشرقَينِ قبلَ انبلاجِ الصُّـ
ـبحِ أنَّ الرئيسَ ولّى وغابا

وعندما تولى حزب الأحرار الدستوريين الحكم فى مصر وقال أحد رؤسائهم فى مستهل الخاتمة الثالثة من القرن الحالى « إن الدستور ثوب فضفاض » بالنسبة إلى المصريين - نظمت قصيدة وألقيتها فى عيد الجهاد « بكازينو بلفدير» بالاسكندرية بجهة محطة الرمل - وكان من بين خطباء ذلك الاجتماع الوطنى المرحوم الأستاذ محمد توفيق دياب والمرحوم الأستاذ عبد الفتاح الطويل وغيرهما من كبار الوطنين بالاسكندرية - وقد قلت فى هذه القصيدة رداً على الادعاء بأننا لانستحق الدستور والحكم النيابى موجها الكلام للأحرار الدستوريين :

لا تقولوا بأنّنا لمْ نُهيَّا
لِننالَ الحقوقَ والإسعادا
نحنُ قومٌ ما خُلقنا لنبقى
أبدَ الدهرِ نحملُ الأصفادا
نحنُ يا قومُ أمّةٌ وشعورٌ
أخذَ الناسُ عنهما الإرشادا

فبلغنا من العلاء مكانا
وجميع الشعوب تغشى الوهادا
وهدينا العقول علما وفنا
وصوابا وحكمة وسدادا

ثم وجهت قولى إلى الإنجليز الغاصبين متحديا :

زلزلوها بناركم ما استطعتم
واستبدوا بأمرها استبدادا
واجعلوا النيل إن قدرتم ترابا
واجعلوا الزرع شعلة فرمادا
أوسعونا إهانة وهوانا
واجلدوا الشيب واقتلوا الأحفادا
وانشروا الشوك تحتنا حين نمشى
أطعمونا إذا سغبنا القتادا
واربطونا بسرجكم إن طلبنا
منكم العدل واستفزوا الجيادا
أمة « التميز » لن تنالوا اعترافا
بتراث فضاعفوا الأحقادا
أنتم البطش تملكون المنايا
فأمرها تحطم الأجسادا
غير أن النفوس مهما صنعتم
لن تخون العهود والأجدادا

نحنُ بالحقِّ نطالبُ استقلالاً
ومنَ الحقِّ نستمدُّ اعتمادا

وفى ٢٨ من إبريل عام ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) نشر شاعر النيل حافظ إبراهيم إحدى قصائده الوطنية المجيدة بعنوان «إلى الإنجليز» قال فيها :

حوِّلوا النيلَ واحجبوا الضوءَ عنَّا
واطمسوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملئوا البحرَ إن أردتم سفيناً
واملئوا الجوَّ إنْ أردتمْ رجوما
وأقيموا للعسفِ فى كلِّ شبرٍ
(كنستبلاً) بالسوطِ يفرى الأديما
إننا لنْ نحولَ عنْ عهدِ مصرٍ
أوْ ترونا فى الترابِ عظاماً رميما
عاصفٌ صانَ ملككمْ وحماكمْ
وكفاكمْ بالأمسِ خطباً جسيما
غالَ (أرمادةَ) العدوِّ ففزتمْ
وبلغتمْ فى الشرقِ شأواً عظيما
فعدلتمْ هنيهةً وبغيتمْ
وتركتمْ فى النيلِ عهداً ذميما
فشهدنا ظلماً يقالُ لهُ العدْ
لُ ووداً يسقى الحميمَ الحميما
فاتقوا غضبةَ العواصفِ إنِّى
قدْ رأيتُ المصيرَ أمسى وخيما

فالروح الوطنية فى القصيدتين تكاد تكون واحدة ـ ومطلع قصيدة شاعر النيل يكاد يطابق قولى للإنجليز أن يفعلوا بنا مايريدون فلن نتحول عن مطالبنا الحتمة ـ وفى كل ماتقدم أقوى دليل على تواتر الخواطر وعلى أن عظماء الرجال يؤثرون فى نفوس مريديهم فيترسمون خطاهم وينسجون على منوالهم قدر استطاعتهم دون أن يطمعوا فى اللحاق بهم والارتفاع إلى قدرهم ومستواهم.

وإن كان تشييع جثمان (هوجو) قد استغرق عشر ساعات طوال مرور الجنازة فى شوارع (باريس) التى ضمت مئات الألوف من الفرنسيين المقدرين لشاعرهم العظيم ـ وإن كان جثمان شاعر النيل لم يشيعه إلى مقره الأخير المجهول بين الموتى إلا بعض الأصدقاء والأقارب والجيران فإن مصر الخالدة ـ مصر التى لاتنسى أبناءها المخلصين ـ مازالت تتخذ من قبره كعبة وأثراً خالداً من آثار فخرها ومجدها على مر الأعوام والأجيال.

رحم الله حافظ إبراهيم وجعل مثواها جنة الخلد منزلا وثوابا

٧ ـ الشاعر شيبوب والمذهب الرومانسي

ليس من المغالاة فى شىء وضع الشاعر خليل شيبوب فى أحد الصفوف المتقدمة بين رواد الشعر الحديث فى الأسكندرية ليسير فى موكب الشعراء الراحلين الذين كان لهم أثر واضح فى نهضة الأدب العربى بين أرجاء عاصمة القطر المصرى الثانية وفى زمرتهم عبد الرحمن شكرى والدكتور أحمد زكى أبو شادى وعثمان حلمى :

ولقد كان شاعرنا ذا حظ موفور من الثقافتين العربية والفرنسية فأسهم بنصيب مرموق فى حركة التجديد الشعرى وذا مكانة بارزة فى التوجيه الفكرى علاوة على ما كان يتمتع به من معرفة أصيلة بفقه اللغة ودلالات ألفاظها وأوضاعها المختلفة إلى جانب تعمقه فى البحث القانونى .

وولد خليل شيبوب باللاذقية بالقطر السورى الشقيق فى ٢٨ من يناير عام ١٨٩١ م . (١٣٠٩ هـ) وتلقى دروسه بمدرسة «الفرير» فى مسقط رأسه ـ وبدأ ينظم الشعر ولمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ـ ثم رحل مع أسرته إلى الأسكندرية واستقر فيها منذ أكتوبر سنة ١٩٠٨ ـ وقد واصل دراسته فحصل على إجازة الحقوق الفرنسية من مدرسة المنيرة بالقاهرة ـ وتولى عدة وظائف ببنك الأراضى المصرى إلى أن صار مديرا للقسم القضائى به ـ وبعد حياة حافلة بالأعمال الأدبية التى أسهم بها فى تطوير الحركة الفكرية بالأسكندرية لبى نداء ربه فى ٣ من فبراير عام ١٩٥١ م (١٣٧١ هـ) بالغا من العمر حوالى ٦١ سنة .

ولقب « شيبوب » الذى تحمله أسرة شاعرنا تحريف للفظة الشؤبوب العربية التى تعنى شدة الحر ـ والدفعة من المطر ـ وشدة اندفاع كل شىء ـ كما تدل على أول مايظهر من الحسن ـ وجمع هذه الكلمة « شآبيب » فيقال « هو حسن شآبيب الوجه » .

وزوّد خليل الأدب العربى بطائفة من قصائده ضمنهـــا الجزء الأول من ديوانه « الفجر الأول » الذى صدر فى عام ١٩٢١ م . (١٣٤٠ هـ) ولم يسعفه العمر لينشر ماجادت به قريحته من أشعار بعد ذلك التاريخ. وله مقالات وأبحاث كثيرة نشرت بالجرائد والمجلات .

وعندما تناول الباحثون شعر «خليل مطران» بالدرس والاستقصاء تعرضوا لشعراء التجديد الذين عاصروه أو ساروا على نهجه فيما نظموا من شعر وكان من بين هؤلاء خليل شيبوب ـ والدكتور محمد زكى أبو شادى ـ وعبد الرحمن شكرى ـ وعلى محمود طه المهندس ـ وقد حلل الباحثون اتجاهات كل هؤلاء الشعراء الفكرية وأشاروا إلى بعض الخصائص الفنية التى يتميز بها قريض كل منهم ـ وما من شك فى أن شاعرنا خليل قد تأثر إلى حد بعيد بصديقه خليل مطران مع وفائه الصادق للمذهب الرومانسى الذى أحاط بأنماطه واتجاهاته وخصائصه فيما اطلع عليه من آثار كتابه وشعرائه الفرنسيين طوال أعوام تثقفه بمدرسة الفرير فى موطنـه الأصيل « سوريا » وخلال الأعوام اللاحقة التى هضم فيهـا ماضمته كتب الرومانسيين من نثر وشعر عن طريق إطلاعه الواسع الأفق على كل جديد من إنتاج الرومانسيين والمحدثين .

وصداقة خليل شيبوب لشاعر القطرين خليل مطران كانت متينـة الأواصر وثيقة العرى ـ وقد لمست متانتها تتجلى فى المرات الكثيرة التى كان شاعر القطرين يزور فيها الاسكندرية ويجتمع بأدبائها وشعرائها ـ فكان خليل شيبوب لايفارقه طوال حلوله يبادله شعرا بشعر وأخبار أدبية وعلمية بأخبارا ـ وكنت ألمس فى تقارب تفكير الشاعرين أقوى دليل على أن كل منهما قد أثر فى صديقه وإن كان تأثير مطران على شيبوب أكثر عمقـا لأسبقية شاعر القطرين فى عراقة الإبداع وحسن الصياغة ومن ثمّ كان لمطران بعض الفضل فى نضوج قريحة شيبوب وفى تغلغل الرومانسية بين جوانحه التعبيرية وتزويد بصيرته الواعية بألوان من التجديد فوعاها واتخذ منها ومن نواحى ثقافته واطلاعه منهلا يرده كلما أراد التعبير عن

أحاسيسه الوجدانية بأشعار يميزه طابعها عن صديقه مطران وعن جميع الشعراء الذين عاصروه.

فمصادر إلهامه ومراكز اهتمامه كان مبعثها التغنى بالحياة كما يراها ويمارسها. وبالأماني وما يتطلع إليه منها ولم يصب من هناءتها شيئا. وبالحب وإن كان قد ذاق مرارة إخفاقه. وبالنجوى التى تسرّى عن ضيق صدره فى أوقات فراغه إلى نفسه فى هدوء الخلوة ووحشة الليل القاتمة. وبالنور الذى ينشر فى قرارة نفسه بهجة الصفاء. وبالقطيعة التى يفزعه ذكراها فتغمر فؤاده الكسير بالغضاضة وبالشكوى التى تثير فى نفسه ألم الحزن والأسى - وكانت كل هذه الوجدانيات المختلفة الاتجاهات النفسية تتراكم فى وعيه وتفيض جياشة فى أعماق سريرته فينفثها شعرا رومانسيا رقيقا تهزه الأحزان والآلام والأشجان فى عذوبة من الألحان والآلام - وما من شك فى أن المذهب الرومانسى قد ناسب مزاجه ووافق ظروف حياته وخلجات مشاعره.

ولقد عزف خليل شيبوب على قيثار شاعريته تلك الأنغام الحزينة وهو يناجى البحر وخريره وأمواجه وشواطئه - والطائر على غصنه يغرد فيطربه التغريد - وعقد الكهرمان على الصدر الغض - والوردة التى توحى بالأمل وتنمى مشاعر الحب - والمنى التى تجعل للحياة بريقا تلمحه فى دياجير الأيام العاتمة. كل هذه الوجدانيات كان خليل يرسلها نغمات يكتنفها الحزن ويلفها التأمل الفلسفى فى غلالة رقيقة نستشف من ورائها أسرار الكون الحى فى شكل صور تكونت فى مخيلته من التجارب التى مارسها ومن تصرفات الشخصيات التى اتصل بها - ويصح أن يقال إن رومانسية خليل شيبوب الشاعرية تتناول الحياة الإنسانية من نواحيها الحزينة المستمدة من الآلام والأشجان فتحللها وتبلورها فى أنغام عذبة المعانى حلوة الجرس.

وترن هذه الأنغام فى الأذن شجية تبعث الأسى فى النفوس عند ترتيل

الأبيات التي ألقاها وهو يقف باكيا على قبر أبيه فيناجيه – وعندما يقرأ القارىء شعره وهو يذرف الدمع سخيا على الراحلين من أقاربه وأحبابه – وعندما يطلع القارىء على أبياته التي يشكو فيها دهره لما رماه به من ملمات الحياة وجور الحب أو يطلع على مانظمه تحسرا على الشباب الذى ولى ولم يقض منه لباناته ولم يظفر منه بأوطاره – وكان فى كل ذلك صادقا يعبر عن دخائل نفسه وأعماق سريرته فى صراحة لايشوبها الزيف – فهو يصف أحاسيس نفسه فى هذه الأبيات الحزينة التى بعث بها إلى صديق حميم يبثه آلامه :

هَـذِي الشجـونُ نظمتُـها
بينَ الوَساوِسَ والشُجُـونْ
وبذلتُ فيها من دمى الغَـا
لى ومنْ دمعى المَصُون
آيـات حـزنٍ نَظَّمتـ
ـها الجاريات مِنَ الشئُون
نـزعـاتُ يـأسٍ كُلُّهُـنَّ
كَـأنَّهُـنَّ مِـن الجُنُـون
بـدهـابـات أفـكارٍ لمـا
قَدْ كانَ أوْ مَا قَدْ يكون

إلى أن يقول :

هَـذي الشجـونُ بكلّ ما
فيها مِنَ الدمْـعِ السَخِين
جاءتكَ تَعْلَمُ أنَّ فيـكَ
لهـا عـزاءَ البـائسـين

فاحْـرِصْ عليهـــا إنّهـــا
قِطَـــعٌ مِنَ القـلبِ الحـزين
واعــذُرْ أخـاكَ وكُنْ لَـــهُ
فى النـــاسِ خـــيرَ أخٍ أمين

وتطرق الآن إلى ذكر شيء عن المذهب الرومانسى لأبين بعد ذلك مدى تأثر شاعرنا باتجاهاته فيما نظم من قصائد .

فإبان النصف الأول من القرن التاسع عشر قامت حركة فكرية تدعو إلى توجيه الأذهان إلى أساليب جديدة للإنتاج الأدبى والفنى وإلى خلق مفاهيم أخرى غير تلك التى تفرضها المدرسة القديمة للمذهب الكلاسيكى - وعلى هذا الأساس أخذ دعاة المذهب الرومانسى فى نبذ المبدأين الجوهريين اللذين يتميز بهما المذهب الكلاسيكى وهما تقليد القدماء والمحافظة على القواعد التى يسير عليها هؤلاء المفكرون القدامى - ومن ثمّ نادى دعاة المذهب الرومانسى الجديد بانطلاق الفكر الأدبى والفنى وتحريره من كل القيود التى تعوق تقدمه إلى أبعد الآفاق ليحلق طليقا قدر استطاعته على التحليق .

فالآداب اليونانية والرومانية تُرِكَتْ بعد أن ظلت ثلاثة قرون تمد الكتاب والشعراء الفرنسيين بمعظم الموضوعات التى كانت المصدر الأساسى لما أنتجوا من كتب ودواوين - واهتم المفكرون الرومانسيون بأن تكون اللغة الفرنسية غنية بمترادفاتها وأن تكون طيعة لإظهار التعبيرات والانطباعات الإنسانية والخلجات النفسية على كل المستويات التى يجيش بها فؤاد الكاتب أو الشاعر أو الفنان - وقد نتج عن ذلك أن صار النظم أكثر انسجاما فى نغماته والشعر أكثر ميــلا إلى الصدق وأكثر انفعالا بالوجدانيات والأحاسيس .

ولقد سبق الرومانسيين فى القرن التاسع عشر بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر - « فديديرو Diderot » قدم بعض النظريات المتعلقة بفن التمثيليات -

« وجان جاك روسو J. J. Rouseau » ابتدع فن الوصف الوضّاح اللامع السرد ـ وشرح الأسرار المثيرة العاطفية ـ وحب الطبيعة ومباهجها على غرار ما فعل برناردان دى سان بيير » ـ كما كان «أندريه شينيه André Chénier» فى مقدمة من أبرزوا التعريف الصادق بالحماس الشعرى.

وفى القرن التاسع عشر نفسه غذى « شاتوبريان Chateaubriand » شعور الكآبة الحالمة بما نظم من قصائد كما هدى الكتاب والمفكرين إلى طرق التعرف على المناظر الطبيعية بالإدراك الواعى الصحيح الذى يضعها أمام أعينهم حيّة تبهر الأنظار ـ ومدام « دى ستائل Mme de Staël » وجهت الأذهـــان إلى دراسة الأدب الألمانى لينهل الكتاب والشعراء من منابعـــه . ومن ثمّ بدأ الرومانسيون فى التعرف على الآداب الأجنبية فدرست من المانيا أعمال « جوته ـ وشيـــلر ـ وليسنج ـ وفردريك ـ وغليوم شلوجيل ـ كما درست من الإنجليزية أعمـــال شاكسبير ـ وولتر سكوت ـ ولا سيما « بيرون » ومن أسبانيا أعمال « لوب دى فيجا » ومن إيطاليا أعمال « منزونى » .

و يعدُّ المذهب الرومانسى ثورة فكرية كانت تتمة للثورة الاجتماعية والسياسية الفرنسية فغيرت تغييراً جذريا جميع أساليب التفكير القـــديم وكذلك المشاعر الناتجة عنها ـ وقد بدأ هذا المذهب فى الظهور خلال القرن الثامن عشر وكان من رواده « جان جاك روسو ـ ومدام دى ستائل ـ وشاتوبريان » كما تقدم القول ـ وأقوى عنصر يميز هذا المذهب هو سيطرة العاطفة والخيال على التعقل أى أنه إبراز لشخصية الـــكاتب والشاعر والفنان فى كل إنتاجه الفـكرى وهو بهذا الوصف الإحساس بالطبيعة وإحلال الشعور الخاص محل الشعور العـــام وبعث الشعر الحمـاسى العاطفى من سُباته والنبذ النهـائى للقواعد البالية والأساليب القديمة .

وتجسد المذهب الرومانسى بالنسبة إلى الشعر فى أربعة من فحول الشعراء

الفرنسيين هم : لامرتين ـ وألفريد دى فيــنى ـ وفكتور هوجو ـ وألفريد دي موسيه .

وليس من شك فى أن « خليل شيبوب » قد أخذ بهذه العناصر المميزة للشعر الرومانسى وهى تظهر جلية فى معظم قصائده التى تغنت بالمشاعر الوجدانية الموضحة قبل ـ ويتبين هو أن الشــاعر الفرنسى « دى موسيه de Musset » كان رفيق خياله وصديق انفعالاته القلبية وأنيس وحدته حينما كان يخلو إلى نفسه ويداعب أوتار قيثاره ليترنم بما أبدع من شعــر حزين الحواشى رقيق المعانى عذب الجرس.

ولست أغالى إذا قلت أن قصائد « موسيه » التى ضمنهــا مجموعة « الليالى » كانت أقوى ما أثر على خليل شيبوب من شعر هذا الشاعر الفرنسى ـ لأنه ينفث فيها آلامه ورفضه الاستجابة إلى دعاء شياطين الشعر بأن يغنى ـ فهو فى ليــلة شهر مايو ـ التى نظمها عام ١٨٣٥ ـ يرفض إطاعة الإيحاء بأن يقول شعراً بعد انفصاله المحزن عن «جورج ساند Georges Sand» وهو الاسم المستعار لحبيبته التى كانت تكبره بعشر سنوات ـ ويعزو هذا الرفض إلى الحزن العميق الذى يستولى على قلبه ـ وفى قصيدة الليلة الثانية وهى ليلة ديسمبر عــام ١٨٣٥ يظهر أمامه غريب يرتدى ثوبا من المخمل الأسود ويعرض عليه أن يواسيه ـ وفى قصيدة الليلة الثالثة ـ ليلة أغسطس عام ١٨٣٦ يغنى الشاعر اللذة ـ وفى قصيدة الليــلة الرابعة ـ ليلة أكتوبر عام ١٨٣٧ يعرف الشاعر ما هو ثمن الآلام ويقدرهــا حق قدرها .

وفى شعر خليل شيبوب ما يشبه قصائد هذه الليالى الموحشة التى نظمها الشاعر الفرنسى «موسيه» وأبدى فيها كبرياءه الأبية ـ ففى ديوان خليل ما يظهر الكبرياء التى لا تركن إلى العنف والتى تخبر عن طوية بعيدة عن العنجهية المتعجرفة التى لا تعرف الهوادة أو اللين ـ فهو إذا وجه اللوم إلى من أحب بعد أن أسرفت فى هجره

يقول لها فى عام ١٩١٩ يعاتبها على صدها ولكن فى غير عنف ـ ويترك أمامها أبواب العودة إلى الصفاء مفتوحة إذا أرادت إزالة أسباب الجفوة دون أن تجرح كبرياءه :

وَدُمْتِ عَلَى ضَلالِكِ لمْ تُبَالى
تَظُنِّينى خَلِيقاً بالخُضُوعِ
لكنتُ خضعتُ لو أبديت شيئاً
يُقالُ لهُ مُبَادَأة الصنيعِ
أبتْ لكِ كِبْرِياءك غيرَ ذُلّ
وإنى مَا طُبِعْتُ على الركوعِ

ويؤكد لها فى عام ١٩٢٠ أن الهجر لن يحطم كبرياءه وإن كانت هذه الكبرياء لاتعرف القسوة وتجنح إلى العفو متى كان هناك أمل فى أن يؤدى هذا العفو إلى صفاء القلوب وعودة المياه إلى مجاريها فينشدها :

حَسِبتِ فى الهجرِ أنّى
لا شكّ فاقِدُ لُبّى
نعَمْ فقدتُ ولكن
وَجدْتُ عَقْلى وَرَبّى
ما كنتُ أملكُ إلاّ
قلْبى وما ماتَ قلْبى

وفى هذه الأبيات الستة سياق ينم عن الحسرة والألم لفراق الحبيبة التى تبغى إخضاعه بصلفها ويأبى بكبريائه أن يركع أمامها ، ثم يجد المواساة فى أنه وجد عقله وآمن بقدر ربه ويجد العزاء كل العزاء فى أن قلبه ما زال حيا لم يحطمه الهجر

والصدود — وكل هذه الخلجات النفسية نجدها فى ليالى « موسيه » الذى يحزن دون أن يذله الحزن ثم يجد المواساة ويعود إلى لذة الحياة ويعرف بعد ذلك ثمن الألم النفسى دون أن ينهار إزاء وطأته .

والواقع هو أن شاعرنا لم يقطع مراحل الحياة متنقلا من روضة إلى بستان ولم يمارس عيشة تحفها الورود والرياحين ، فقد كان يقوم بواجب الأخوة فى صبر طال أمده يشاركه فى تحمل أعباء الحياة المادية أخوه المرحوم صديق شيبوب الذى فارق الدنيا وهو يترجم ويؤلف ليسد مطالب المعيشة مفضلا العزوبة على الزواج ليهيىء لأخته العانس حياة كريمة ـ وقد أدى هذا الواجب الإنسانى معه خليل وكان لدى الأخوين البرين أختان ـ فلما تزوجت صغراهما أقدم خليل على الزواج وكان فى السنوات الأخيرة من كهولته ـ ومن ثم لم ينعم بالحياة الزوجية الرغدة إلا مدة غير طويلة ـ وأظن أنه لم يقدم على الإنجاب خشية ألا يمكنه العمر من رؤية ذريته وقد استطاعت أن تشق طريقها فى خضم الحياة تحت رعايته وحنانه وحنان زوجته التى لم تأل جهداً فى إسعاده قدر طاقتها لتبادله حبا بحب .

ويقينى هو أن ما عاناه « لامرتين » من ألم لفقد ابنتــه ببيروت عام ١٨٣٢ وقد تجاوزت العاشرة من عمرها ـ وما قاساه من حرمان الفاقة فى شيخوخته مما اضطره لمصارعة الفقر طويلا وبيع إنتاجه الأدبى طوال أربعة عشر عاما لدفع مـا عليه من ديون ـ وما ابتلى به « فـكتور هوجو » من نفى وتشريد مدة ١٨ عاما بمدينة بروكسل فى بلجيكا وفى جزيرتى « جرزيى ـ وجرنزيى » ـ وتغربه عن فرنسا مرة أخرى لرفضه العيش فى ظل حكم غير جمهورى فكانت مدة بعده عن الوطن حوالى ٢٥ عاما من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٧٥ ـ أقول أن مـا لقيه هذان الشاعران الرومانسيان من عنت وإخفاق وألم وفاقة كان له أثره العميق فى روح خليل شيبوب المعنوية لأنه لقى فى حياته ألوانا من الألم والمرض ما جعله ينفث هذا التأثر أنات حزينة من قلب موجوع فيقول لمن لا يرضيهم حزنه وتوجعه المستمر لحاله ويريدون الوقوف على خبيئة نفسه ليعرفوا مبعث هذا الحزن القاتم

فى قرارة فؤاده ويرد على حيرتهم من أمره بهذه الأبيات التى تخبر عن مدى أساه ومبلغ شجونه :

مَاذَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنِّى
إنْ كنت قد أكثرتُ حزنى
أفنيتُ عمرى فى البكاءِ
وفى الرجاءِ وفى التمنِّى
ذَهَبَ الشبابَ وَمَا مَلَأْ
تَ بنورِهِ قلبى وَجَفْنِى

والواقع هو أن خايلا لم يملأ عينيه بنور الحياة الساطعة الضياء فتصى شبابه ورجولته يصارع الحياة وتصارعه ليعيش كريما وليهىء لأختيه حياة تظلها الهناءة فى كنفه وكنف أخيه — فإذا تزوج وقد بلغ نهاية الكهولة انتابته الذبحة الصدرية التى لا ترحم — وما زال يعانى ألمها ويشقى باستقرارها فى حنايا صدره حتى جاء يوم عيد رأس السنة الميلادية ١٩٥١ — فلم يرحم مرضه وأرار أن يسعد بهذا اليوم بين ذويه وخلانه وإذا بمرحه يرتد عليه قاسيا وإذا العلة تزداد تفاقما وإذا روحه الطاهرة تصعد إلى بارئها فى الثالث من فبراير مؤمنة بقضائه باسمة فى سخرية لهـــذه الدنيا التى لم تنصفه ليحظى بما هو جدير به من سعادة وارفة الظلال مخضرة الجوانب .

وهذه الشكوى المريرة التى نستشفها من خلال هذه الأبيات الستة البائسة تجد ما يماثلها فى اعتراف الشاعر الفرنسى « موسية » فى أواخر أيام حياته القصيرة بأنه فقد كل شىء وأن خير ما بقى له فى هذه الحياة الدنيا هو أنه ذرف الدمع من عينيه بعض مرات — وفيما يلى ترجمة أبياته فى هذا المعنى المجلل بالسواد :

لقد فقدت قوتى وحياتى

وفقدت أصدقائى ومرحى

وفقدت حتى الفخر

الذى كان يحمل على الظن بعبقريتى

والإله يتكلم ولا بد من الرد على كلامه

فالمتعة الوحيدة التى بقيت لى فى هذه الدنيا

هى أننى استطعت البكاء بعض مرات

هذه هى نفسية الشاعر الفرنسى « موسية » وتلك هى نفسية شاعرنا خليل شيبوب وما تنطوى عليه النفسيتان المعذبتان من حزن مكبوت وألم متغلغل فى حاطة القلب .

وأول معرفتى بخليل شيبوب كان فى عام ١٩٣٢ عندما أرسلت الدعوة إلى كثير ممن يمتون الأدب بصلة بغية لم شملهم فى منظمة غايتها الإسهام فى رفع المستوى الثقافى بالأسكندرية بقدر ما يسمح به إنتاجهم الأدبى .

ولقد لبى الدعوة نحو الثلاثين كان منهم شاعرنا خليل الذى عرفت مكانته الأدبية من الترحيب الذى قوبل به من جميع الحاضرين - وإذا بى إزاء رجل يتسم بالتواضع السمح وتدل ملامحه وهيئته على ما تنطوى عليه نفسه من كرم الأخلاق ونبل السريرة .

وعندما أجمع الحاضرون على أن يتولى رياسة الاجتماع تجلى تواضعه فى أول اقتراح قدمه إذ قال : إننا نريد لمنظمتنا أن تبدأ بعنوان يدل على أنها فئة قليلة لتصير بأعمالها وليس باسمها كبيرة الشأن فى المجال الثقافى - ومن ثم كان لها الاسم الذى اقترحه وهو « جماعة نشر الثقافة » وقد أختير خليل رئيساً لها فى ذلك الاجتماع نفسه.

ومضت الأعوام وتوثقت عرى الصداقة بينى وبينه - فإذا بى أتعرف على

سجاياه وأؤمن بأن هذه السجايا التي تأخذ منبعها الصافي من أعماق قلبه قد دونت أصدق تدوين في الجزء الأول من ديوانه « الفجر الأول » فظهر في مرآة هذا الجزء واضح القسمات تحيط به هالة تجلو ما طبعت عليه نفسه من مبادىء قويمة. ولقد بيّن لقراء ديوانه دخيلة هذه النفس فقال في مقدمته .

«وكفى بالشاعر بؤسا أن يرمي بقلبه إلى الناس وأن يطرح بين يدي الجمهور خاصة دخيلته يفسدها عليه ذوو النيات المبهمة والغايات المنهمة حتى ليضلونه عن صواب ويزهّدونه في يومه وأمسه ».

ومما طرحه بين يدي الجمهور من مشاعره وأحاسيسه لمست فيه - إبان الصداقة المتينة التي ضمتنا والتي دامت حتى إكليته يوم أن لاقى ربه . التمسك بعروبته والإيمان العميق بالله والفلسفة المبنية على التسامح وحب الخير للناس والكبرياء غير المشوبة بالصلف وبغض اللؤم والنفاق والغدر والإخاء النقي والزهد في الحياة لما أصابه من إخفاق ومما لاحقه من مرض .

أما عروبته فقد برهن على فيضها التاس في فؤاده بإصداره كتاب « المعجم القضائي » في سنة ١٩٣٧ م (١٣٥٦ هـ) وإعادة طبعه مزيداً في سنة ١٩٤٩ م (١٣٦٩هـ) مسهما بذلك بنصيب إيجابي مرموق في تعريب المحاكم المختلطة - وفي مقدمة هذا المعجم القيم لم يغفل خليـــل التنويه بفضل اللغة العربية - لغة آبائه وأجداده العرب الخلص فيقول: «بيد أن اللغة العربية حفلت بفروع من الشرح القضائي لا يتعدى الموضوعات الفقهية المعروفة فزخرت كتبها بالتعبيرات الأصيلة والقوالب التالدة والطريفة حتى أن المطالع لا يبرح مفتون اللب من مرونتها على تصريف أدق المعاني واتساعها للإعراب عن أيسر خطفات المخالفات والموافقات» - وفي هذه العبـــارات ما يدل في وضوح على تقديره العظيم للغته العربية لغة أهله وأحبابه .

وخليل رجل يؤمن بالله ويطرد من قرارة نفسه عوامل الشك في قدرته

الربانية ـ ويرى أن عباده المخلصين هم الأحرار الذين يستحقون رضاه بالعمل الصالح لينالوا أحسن الثواب على ما قدمت أيديهم من خير وإحسان فيقول :

هَلِ النَّاسُ والأفلاكُ والصبحُ والدُّجى
وهَلْ نبوةُ الإنسانِ والجاهُ والفخرُ
سِوى مُعْضِلاتٍ إنْ تَوخَّيْتُ حلَّها
وَرَدْتُ وبي أمرٌ وعُدْتُ وبي أمرُ
وأدْرَكَني شكٌّ بأنَّكَ كائنٌ
وهِمْتُ بوادٍ مِنْ مَعَارِجِهِ الكُفْرُ
ولكنَّ إيماناً بقلبي مُوطَّداً
يَرُدُّ جِماحَ الفِكْرِ إنْ جَمَحَ الفِكْرُ
ألا حبَّذا العَبْدُ الذى أنتَ ربُّهُ
وما العَبْدُ مَنْ والاكَ لكنهُ الحُرُّ
وطُوبى لِمَنْ يُرْضِيكَ فِعْلاً فيقتنى
رِضَاكَ لهُ كَنْزاً وأنتَ لهُ ذُخْرُ

وتنم هذه الأبيات عن تصوف صافى الينبوع لا يقل فى نقائه عن شعر كبار المتصوفين على مر الأجيال المنصرمة

وشاعرنا له فلسفته المبنية على التسامح النبيل والدعوة إلى الوئام الذى يجب أن يسود العالم فى عقيدته ـ ولذا فهو يتألم لما يراه فى كثير من القلوب من قسوة وغلظة ويلازمه الألم وتشقى به نفسه المرهفة الحس والوجدان فينشد :

لقد خُلقتْ بعضُ النفوسِ طموحةً
إلى النورِ إنْ تفقدْهُ لَنْ تتمتَّعا

وَيُؤلِمُهَا فى حِبْنِهَا بمسائها
مِنَ النَّاسِ إغلاقُ العُقولِ تَمَنُّعَا
وإظلامُ إحسَاسِ القلوبِ صَلابَةً
فلستَ ترى فيها إلى اللِّين مَوضِعَا
ألاَ إنَّ بَعضَ النَّاسِ يشقى ببعضِهِمْ
وأشقاهُمُو مستوعبٌ ما بهم وعَى

ومن هذه الفلسفة الخيرة تمسكه بالمبادىء القويمة لا يحيد عنها ولا يرضى بها بديلا ولا يفرط فيها بأى غال أو ثمين - وقد عبر عن ذلك بقوله :

لحَى اللهُ مَنْ بَاعَ الضميرَ بدرهمٍ
وأثمن مما باعَ فى القدرِ دِرْهَمُ
وَمَا عِرضُ نفسِ المرءِ إلاَّ ضميرُها
إذا كانَ عرضُ الجسمِ ما أنتَ تعلَمُ
فأفهَمُ عِرضَ الجسمِ يُبذَلُ واصلاً
إلى غَرَضٍ مَحسُوسُهُ مُتَجَسِّمُ
ولكنَّ عِرضَ النفسِ يُبْذلُ ضائعاً
فذلك بَيْنَ الناسِ مالَستُ أفهَمُ

ويقول فى هذه القصيدة نفسها مبديا رأيه فى الصديق الوفى الذى يغنيه عن كل شىء ويسليه ويعينه على صروف الدهر - وتوضح أبياته فى هذا المعنى مبلغ حبه للناس فى إخلاص متين وإخاء يتسم بالصفاء الروحى الناصع البياض :

قَنِعْتُ مِنَ الدنيا بِخِلٍّ وِدَادُهُ
صميمٌ به يجرى ويمتزجُ الدَّمُ

غَدَا سَلْوَتِى إذْ لم أجِدْ لى سَلْوَةً
وغُنْمِى الذى أصبحتُ فى العمر أغْنَمُ
رَضيتُ به حصناً على الدهرِ قائما
وإنّى لَهُ حصنٌ على الدهرِ أقومُ
هُوَ الرزقُ من رَبٍّ كفيلٍ وإنّها
مِنَ الله أرزاقٌ على الخلقِ تُقْسَمُ

ومن فلسفته فى الكبرياء غير المشوبة بالصلف هذا البيت الذى قاله فى شانىء خصه بالشتائم فأبدى له الترفع عن مجاراته فى السّب واستعاض عن ذلك بالاحتقار :

أبلَغُونى أنّهُ يَشْتمُنى
أبلِغُوهُ أنّنى أحتَقِرُهُ

وليس فى قلب الشاعر خليل شيبوب سوى بغض واحد لا يتسامح فى إظهار مقته له ومحاربته فى غير هوادة ـ وهذا البغض القوى الجامح هو بغض اللؤم واللئام والنفاق والمنافقين والغدر والغادرين ـ ولذا كان يرى أن العصر الذى يحياه عصر ظلام وليس عصر نور كما يقال فى وصفه ـ وإلاّ كيف يكون عصر نور واللؤم والخداع والغدر من أقوى العناصر التى تطغى عليه ؟ إن خليل يصور ما يعتمل فى وجدانه من حسرة لطغيان هذه العناصر الشريرة الخبيثة على عناصر الخير فينشد :

وقَالوا إنَّ هذا العصرَ نورٌ
فهَلْ سلمَتْ مِنَ اللؤمِ الطباعُ ؟
أو انجابَتْ غيومُ الغشِّ يوماً
فلاحَ الصبْحُ وابتَسَمَ الشعَاعُ ؟

وهَلْ سَادَ الوفاءُ ومَاتَ غدْرٌ
وزالَ الشكُّ وانحسرَ القِنَاعُ ؟
وإلاَّ مَا الذى يَدعُــونَ نُوراً
وبَيْن عنَاصِرِ الدُّنيَا صِرَاعُ

ثم يشكو ما يلمسه فى الناس من طبـــاع سيئة تأباها نفسه الخيرة ومن ملق يعف عنه لسانه ومن ابتعاد عن الإخاء والصداقة وهما غذاء قلبه ومنتهى أمله فى الحياة فيقول :

ولقيتُ خلقاً كلُّ أمرهـــــــــمُ التنـازعُ والخصامْ
لايفهمــونَ لعيشهم معنى التجاملِ والوئامْ
فُطرُوا كما فُطِرَ الـكبَاشُــنُ على التناطحِ والصدامْ
فرأيتُ آمالى شعاعاً طارَ فى ذاكَ الزحامْ
وعلمتُ أنَّ سعادة الدنيـــا مُصَانَعَةُ الأنامْ
وأبى لِىَ الطبعُ النزيهُ مودةَ القـــومِ اللئامْ
فكأنَّنى فى الناسِ جزءٌ مَا لَهُ بِهِمُو التئامْ

ولكن هذا البغض للخصال الذميمة الذى يستولى على عواطفه الرقيقة لا يدفعه إلى إظهاره جامحا يؤدى إلى خروج الحلم عن جادة الصواب وكظم الغيظ ـ فكم من مرة رأيت صديقى الراحل يلقى بالصحون الصغيرة لتتناثر قطعها المفتتة على الأرض ـ وكنت أدرك دائما سبب هذا الانفعال النفسى المكبوت ـ فهو ردٌّ صامت على لؤم بدر من إحدى النفوس المليئة بالحقد . أو استهجان لنفاق لوحظ فيما تطرق إليه حديث الحاضرين ـ وهذا كل ما كان خليل يستطيع صنعه لينفس عما فى صدره من كراهية للحقد والنفاق ولؤم الطباع وخسة الأخلاق ـ ولقد عبر عن هذه المجالات التى يشوبها ما يبدر من بعض جلسائه من زيف ولؤم بقوله :

اسقنيها مثلَ الضياءِ لأجلُو
عنْ فؤادى الهمومَ كالظلماتِ
إننى ضاحِكٌ وقلبى باكٍ
ودموعى قدْ مازجتْ ضحكاتِ
إنّ وقت الأصيلِ يبعثُ بالذك
رى شجوناً ثقيلةَ الوطئاتِ

وكما فعل صنو روحه المعذبة الشاعر الفرنسى الرومانسى « موسية » فى ربط ملكة الشعر بالألم النفسى كشف خليل عن العلاقة الوثيقة التى تصل الشعر بما يعانيه الوجدان من الآلام الخفية الكامنة فى أعماق الشعور فيقول :

أنظمُ الشعرَ سلوا لهمومٍ تتجدَّدْ
كلُّ لفظٍ دمعةٌ تجرى على عمرى المبدَّدْ
كلُّ حرفٍ قطرةٌ منْ دمِ قلبى تتفصَّدْ
كلُّ معنًى حرقةُ الأنفاسِ فى صدرى تصعَّدْ
هكذا اليومَ إلى الدهرِ بشعرى أتوجَّدْ

وكان من الطبيعى أن يطيل خليل — الشاعر الرومانسى الأسكندرى — النظر إلى البحر وأن يكون لصفحته وأمواجه وشواطئه مكان واضح فى إلهامه ومشاعره — فقارىء ديوانه يحس أن البحر كان صديق عزلته المفضل يجلس إليه فيناجيه ويستمد منه وحى أشعاره — ومن قصائده التى سجلت هذه الصداقة المتينة التى ربطته ببحر الأسكندرية فى هدوئه وغضبه يبثه شكواه ويخبره بدموعه وأنات قلبه قصيدته الرصينة بعنوان البحر — التى يقول فى مطلعها :

جلستُ وجفنى جاريات سواكبُه
إليه أشاكيه الأسى وأعاتبُه
وأسألهُ عن سائلات مدامعى
وما الدمعُ إلاّ خيرُه ومواهبُه

وبعد أن يتحدث إليه كأحسن مايكون حديث الصديق الوفى إلى صديقه - وبعد أن ينشد عنده راحة قلبه المستهام ويأتى على وصفه ساكنا تفيض بأنوار البدور مناكبه وترى الكواكب مناظرها الجميلة فى صفحته كما ترى الشمس بهاءها الوضّاح فى زرقته الفاتنة يتطرق إلى وصف غضبه وهياجه وصفاً بديعا فيقول له مخاطبا :

ولكنْ إذا ما ثارَ قلبُكَ حاقدا
علينا وهذا الماءُ جاشت غواربُه
زَخرتَ كأنَّ الضارياتِ زئيرُها
علا وصداه من بعيدٍ يُجاوبُه
وهجتَ وهاجَ الكونُ حولك ناقما
يُغاضبُكَ الدنيا وأنتَ تغاضبُه
وأبرق هذا الجوُّ يرسلُ سخطَهُ
غيوماً كما أربدَّتْ بليلٍ غياهبُه
أثارَ عليك الراعداتِ فأطبقت
واطبقت كلُّ ثائراتٌ كتائبُه
نهضتَ بموجٍ كلّما كرّ كرّةً
علاَ وترامى سيلُهُ وضرائبُه

تشنُّ عليهِ غارَةً إثرَ غارةٍ
فطوراً تُراخيهِ وطوراً تُجاذبُهْ

ونازلتَهُ مستهزئاً بسيولِهِ
تُطاوِلُهُ مستبسلاً وتواثبُهْ

فأتعبْتَهُ حتّى استردَّ جيوشَهُ
وعادَ وبادِيهِ منَ الذُّلِ غالبُهْ

وأرسلَ هذي الشمسَ تطلبُ هُدْنَةً
إليكَ ـ وربُّ الحسنِ تُقضَى مطالبُهْ

فَعُدْتَ إلى ما أنتَ: وجهُكَ ضاحكٌ
ونورُكَ رقراقٌ ومأْوكَ شاربُهْ

وفى هذه القصيدة الرائعه السياق يخال القارىء أن البحر رجل عملاق شديد المراس مريع الغضب إذا ثار لا يغابه غالب وأن الشمس غانية حسناء تأتيه فتنكسر حدة غضبه إزاء بهائها ويقبل وساطتها ويعود إلى سكونه لتنفرج أسارير وجهه وتعلو الإبتسامة العذبة شفتيه ـ وفى كل هذا السياق وصف رومانسى جزل يشد القارىء إليه شداً فلا ينقطع عن قراءة باقى القصيدة حتى يصل إلى نهايتها على الرغم من طولها غير المملل لما اشتملت عليه من سعة الرونق واتساع أفق الخيال وجمال الوصف والتصوير .

وفى ديوان خليل قصائد أخرى فى وصف البحر ومناجاته ـ ففى إحداها يصور البحر على أنه مرآة الحياة إذ هو مثلها فى إتساع المدى والأبعاد وهو على غرارها يصفو مرة ويكدر مرات .

وفى قصيدته بعنوان « على شواطىء الأسكندرية » يسرد نظرة من نظراته التأملية التى يحفل بها ديوانه فيختم هذه القصيدة بالأبيات التالية :

يا بحرُ إنَّ العمرَ همٌّ دائمٌ
بتعارفٍ وتباعدٍ وتدانى
أنتَ الزمانُ وكلُّ عمرٍ قطرةٌ
هيهاتَ تنفعُ غلةَ الظمآنِ
والنفسُ مثلُ شواطىء ممتدة
رُوَّادُهُنَّ عواطفُ الإنسانِ
والقلبُ لجتكَ السحيقةُ إنها
مرسى القرارِ ومنبعُ الطغيانِ
أمَّا الحياةُ - وأنتَ رمزُ وجودِهَا
فلهَا إليكَ جواذبٌ ومعانى
يا بحرُ زِدْ وانقصْ فإنك مثلها
فانٍ ومثلكَ كلُّ شيءٍ فانى

فهل بعد هذا التصوير سياق أجمل من سياق هذه الأبيات فى فلسفة علم النفس الروحانى التصوفى الذى يذهب إلى الرمزية الجادةالتىتصور النفس البشرية وحياتها أبدع تصوير فى إطار فلسفى محكم الأضلاع ؟ ألا إن خليل شيبوب كان بارعا فى هذا الوصف الرمزى الأخاذ .

على أن شاعرنا لم يقتصر على هذه القصيدة فى الإفصاح عن نظراته الفلسفية بجانب البحر بل استمد ناحية من نواحى فلسفته الرصينة الرحيمة التى تخضع لإرادة الله وقضائه من هذا البحر رفيق حياته وخليله العزيز فيصور الناس كأسماكه يأكل كبيرها صغيرها ويشبه أعمارهم بأعماقه بعدا فى الغور وقربا - ويشبه أيام عمرهم بأمواجه المسرعة فى الغدو والرواح فيقول :

وسلَّطَ هُوجَ الرياحِ عليهِ
وهُوجَ الخطوبِ علَيْنَا تِباعَا

فنحنُ كأسماكهِ في الوجود
يَغُولُ الكبيرُ الصغيرَ ابْتِلاعَا

وأعمارُنا كقراراتِهِ انخفا
ضاً إذا اختلَفتْ وارتِفاعَا

وأيَّامُنَا مثلُ أمْوَاجِهِ
تَجِيءُ سِرَاعًا وتَمضي سِرَاعَا

ولم يكن خليل شغوفا بالحياة سآمة في ذلك شأن كل شاعر مرهف الحس عزيز النفس ولا سيما إذا لاحقه الإخفاق في بعض نواحي المعيشة وألح عليه المرض وأضناه . وفي الأبيات الآتية ما يشف عن هذه الروح المعذبة التي تتألم في صبر وتبث الشعر شكواها وتخصه بنجواها ـ والشعر خير متنفس للنفوس الكبيرة المتألمة :

مَبَاسِمُ سَعْدٍ في ثغورٍ غَضِيضَةٍ
مَحَاهُنَّ ليلٌ بالخطوبِ تَوَالَى

تركنَ بأحشائي قُنُوطاً على المدى
تَحَوَّلَ داءٌ في الفؤادِ عُضَالا

فمنْ كانَ تُغْرِيهِ الحياةُ فإنني
تَحَمَّلْتُ أعْبَاءَ الحياةِ ثِقَالا

إذا طَمَحَتْ نفسي إلى السعدِ إنَّها
لَتَعْلَمُ أنَّ السعدَ عَزَّ مَنَالا

فإذا عُلم أن شاعرنا نظم هذه الأبيات فى عام ١٩١٤ اتضح أن الشعور بالشقاء استولى على وجدانه وهو فى الحلقة الثالثة من عمره وقد داهمته أعباء الحياة وواجباتها المضنية التى وقعت على كاهله وكاهل أخيه المرحوم صديق شيبوب وكان لابد أن يقوم بها فى صبر تحتمه الرجولة نحو ذوى القربى وتفرضه العروبة على بنيها الذين تغمر قلوبهم النخوة والشهامة ويحيطون عروضهم بسياج متين يحميها من كل ضير أو عوذ .

وفى عام ١٩١٥ أظهر خليل تبرمة بالحياة وقسوة تكاليفها فاحتضن قيثاره وأنشد هذه الأبيات بعنوان الهارب :

أهـزأ بالنـاسِ إنهم خُـلقوا
شُعْثَ النَّواصى للأكلِ والشربِ
أحملُ قلـبى على يـدى فإذا
جَدَّ بى الضَعْفُ مِتُّ من تعبِ
ماذا على المرءِ أنْ يموتَ إذا
عَاش بلا غَايَـةٍ ولا أرَبِ

وفى عام ١٩١٦ يضيق بالدنيا ويتمنى الموت ويقول فى قصيدة عنوانها الراحة :

لَقَدْ أتْعبتكَ الحادثاتُ وأجْهَزتْ
عليكَ ولا خَيْرٌ بِهِنَّ ولا شَرّ
سوى ضِيْقِ صدرٍ أثْقلَتْكَ هُمُومُهُ
وأنَّ الليالى لا يحيطُ بها الصدرُ

وأنتَ عَلى الأيَّامِ تَنشُدُ راحَةً
فيَا جَاهِلَ الأيَّامِ راحَتُكَ القَبرُ

أو ليس فى هذه الأبيات البائسة شبه قوى يقربها من أبيات «موسيه» البائسة الحزينة التى دونت ترجمتها قبل ؟ إن الشبه بين روح الشاعرين فى البؤس والتشاؤم والتبرم بالحياة تكاد تكون واحدة ومن هذا التشابه القوى نلمس تأثر شاعرنا خليل بالرومانسية إلى حد بعيد .

وتتجلى رومانسيته الكئيبة فى الأبيات التى نظمها خلال عام ١٩١٧ ونعى فيها حبه الضائع على غرار ما فعل « موسيه » فى لياليه الأربع بعد هجر حبيبته « جورج ساند » - فيقول خليل إن هذا الحب صار نغمة فى سمعه يرددها وجدانه على مر الأعوام دون جدوى - ويصور هذه النغمة الروحية أبدع تصوير فى قوله :

هى نغمةٌ ردَّدْتُها دهَرا
وقَضَيْتُ فى تَرديدِهَا العُمْرَ
شكْوى من الحُبِّ الذى انفَطَرَتْ
رُوحى بِهِ لمَّا غَدَا هَجْرَا
ما أضيَعَ الأيَّامَ مُجْفَلَةً
فى قَلْبِ صبٍّ يَألَفُ الذكْرَى
يَبْكى عَلَى الماضِى وقَدْ ضَرَبَتْ
نُوَبُ الليَالى دُونَهُ سِتْرا

هذا هو الراحل العزيز الشاعر خليل شيبوب من خلال شعره ومن مراحل صداقتى

له أكثر من عشرين عاما ـ والمطلع على ديوانه « الفجر الأول » يجد فى كل قصيدة من قصائده قطعة فنية تنطوى على إبداع فنى يطرب السمع ويمتع القلوب ـ وحبذا لو تعهدت الهيئات الثقافية بالاسكندرية وبغيرها من بلدان العروبة بإخراج قصائده الأخرى التى نظمها بعد إصدار الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٢١ لترى النور وتزود الأدب العربى بطائفة جميلة أخرى من القريض الرومانسى البارع .

٨ – الشاعر الإسكندرى عثمان حلمى

عرفت صديقى الراحل عثمان حلمى منذ أكثر من واحد وثلاثين عاما وكان أول لقائى به فى فبراير سنة ١٩٣٢ يوم أن اجتمع ثلاثون أديبا من أدباء الأسكندرية بمقر رابطة موظفى الحكومة المطل على الميناء الشرقى ليكونوا جماعة نشر الثقافة – وهذا المقر يحتله الآن مقهى الكريستال الذى ما زال بعض الأدباء والشعراء يقضون بين جدرانه أوقات سمرهم .

وما إن تحدثت إليه فى أثناء الجلسات الأولى التى ضمتنا وضمت الأستاذ الشاعر عبد اللطيف النشار – مد الله فى عمره – حتى أيقنت أن لا بد للجماعة الأدبية الناشئة من هذين الشاعرين المتنافسين فى المجال الأدبى إلى أبعد حدود المنافسة ليقويا من نشاطها الثقافى فى المحيط الأسكندرى – وأقتنعت بأن لابد للأسكندرية من جريرها عثمان حلمى وفرزدقها عبد اللطيف النشار تظلهما دوحة بيئة شاعرية واحدة فيلتقيان فى كثير من الأوقات ويجرهما الحديث إلى إلقاء ما يقرضان من ألوان الشعر وما ينظمان من أبيات تشعر السامعين بما يكنه كل منهما لزميله الشاعر من تقدير بالطريقة التى لا تخلو من دعاية تحمل فى ثناياها خبث الشاعرية الماكر .

وكان السرور الفياض يغمر نفوسنا – « نحن السميعة » – كلما انعقدت الحلقات الأدبية وأخذ أحد الشاعرين يضفى على رفيق طفولته وشبابه ألقابا من العبقرية الفذة والإلهام السماوى والرصانة الشعرية التى لا تدانيها رصانة – ثم يتدرج فى الهبوط بصاحبه فى أسلوب لبق بديع السياق إلى اللوم فالعتاب فاظهار مواطن الضعف فى أسلوبه وفى أخيلته وفى كل ماله علاقة بعناصر القريض من جرس وصياغة وانتقاء قافية .

وهنا يتطرق الشاعران بدافع الحنين لأعوامها الماضية إلى ما نظم كل

منها خلالها من شعر تقديرى لصديقه فى القالب الجريرى الفرزدقى .

وإذا بالفرزدق الأسكندرى يوجه نظر صديقه فى ابتسامة عريضة لا تخلو من مداعبة ساخرة إلى قصيدة على النمط الجريرى اللاذع كان الغضب العارض قد دفعه إلى نظمها فى ريعان الشباب فقال فيها :

ضَاقَ صدرِى فى حيَاتِىَ يا
أَدْعِيَاءَ الشعرِ والأدبِ
مالكُمْ من فرطِ حُمْقِكُمُو
تَمْزُجُونَ الجِدَّ باللَّعبِ
فاصدِقُوا الدنيا حَقيقَتَكُمْ
ليسَ وادِى الْمَيْنِ بِالخَصبِ
كلُّ بيتٍ من قَصَائِدِكُم
كبَقَايَا المنزِلِ الخَرِبِ

ثم يعلو ضحك الصديقين الحميمين اللدودين فى صفاء نفسى نبيل ـ ويشاركهما أفراد البعكوكة مرحهما الساذج البرىء .

وظهر فى عالم التأليف والنشر مجموعة من القصائد القيمة للأستاذ عبد اللطيف النشار تحمل عنوانين متناقضين هما (جنة فرعون ـ ونار موسى) ـ وأكبر الظن أن صدور هذه المجموعة كان أقوى مشجع للشاعر عثمان حلمى ـ عن طريق المنافسة دائما ـ على إصدار ديوانه بعنوان (نسيم البحر) ليروح بنسماته العليلة عن أهل جنة فرعون ويكمل نعيمهم الخالد ويسهم فى إخماد بعض اللهب فى نار الكليم كما تخيلها صديقه القديم .

وما أطيب تلك الأوقات التى كنا نقطعها كادحى الفكر مستعرضين كل

ما تعيه الذاكرة من شعراء الأسكندرية والقاهرة والأقاليم علنا نوفق فى العثور بينهم على ذلك الشاعر الخبيث الذى نشر فى إحدى المجلات قصيدة لاتمت للعصمة من من الزول بسبب وذيلها بأسم عثمان أو النشار ـ وإذا بأحد الشاعرين يتناولها بالنقد فيبرز ركاكة تركيبها وتفاهة معانيها وجفوة جرسها فى عبارات لاذعة ـ وإذا بالشاعر الآخر يؤيد صاحبه فى رفق ولين وفى قليل من الابتسام الماكر الذى تظهر علامات ما ينطوى عليه من مراوغة فى أسارير وجهه ـ وعندها كنا نلمح فى هذا الابتسام طيف ناظم القصيدة المنسوبة إلى منافسه يتضح فى شكل أحد الشاعرين يدنو منا ساخراً ضاحكا .

وكان لا يمضى أسبوع آخر بعد ذلك وتعقد حلقة أدبية تالية إلا نعود إلى كدح الفكر واستعراض شعراء القطر لظهور قصيدة أخرى لا تقل عن ضَّرتها ركاكة وتفاهة وجفوة جرس ـ وإذا بنا نتعرف من حوار الشاعرين على أيهما الناشر فى غير كبير عناء .

هذه هى بعض النواحى النفسية المرحة التى لمستها فى صديقى الراحل الشاعر عثمان حلمى ـ وهى فى يقينى قليلة بالنسبة إلى نواحى نفسه المتشائمة ـ وهدانى طول مخالطتى له إلى أن تلك النواحى المتضادة تضم الكثير من المشاعر العميقة المعقدة ـ وقد تبينت كل ذلك فى خلقه مجملا واستجليته فيما قرأت وسمعت من شعره .

فهو فيما أرى يتخطى الكثير من الشعراء فى بعض الظاهرات الوجدانية ـ فعلاوة على مذهبه الشعرى الجريرى الذى يستلزم كهربة الانفعالات النفسية ـ مرهف الحس سريع الغضب وسريع الصفح ـ وهو بعد دقيق الملاحظة وثاب التفكير لامع الأخيلة متدفق الشاعرية .

فكان إذا بدت أية بادرة فى محيطه وظنها تهدف إلى المساس من بعيد أو قريب بأى اتجاه من اتجاهاته الأدبية أو الاجتماعية أو خال بأعتقاده الحساس جدا أنها ترمى إلى نقد لإنتاجه الشعرى أو القصصى سرعان ما كانت أعصابه تهـتز

تحت تأثير هذا الاعتقاد فى كثير من التلقائية العنيفة - وبمجرد ما تستقر هذه الفكرة فى مخيلته على النحو الذى يتصوره انفعل لوقعها برجع عكسى ظاهر ثم يأخذ على الفور فى تقليبها بملاحظاته على شتى الوجوه وما أن يتبين طويتها حتى يعود إلى صفائه النقى ومرحه الوداع وكأنّ البادرة وظروفها لم تحدث ولم تعرض لخاطره - فهو بهذا الوصف أحد هؤلاء الرجال الذين اصطلح الناس على نعتهم «بالطيبين - ذوى القلوب البيض» .

ومن العوامل النفسية التى كانت تجيش بفؤاده فى كثير من الأحيان تبرمه بالعيشة التى كان يحياها - فكان يظهر فى شىء من الاستخفاف والسخرية ذلك الأطار الدنيوى الذى كان يضمه - ومن ثمّ كان يود أن تصبح الدنيا فى غمضة عين ملائمه فى نمط سياقها لكل ما كان يتطلع إليه من آمال كبار هى أقل ما تستحقه شاعريته وإدراكه الأدبى الواسع الأفق .

والواقع هو أن المرحوم عثمان حلمى كان شاعراً فحلا من فحول الشعراء الذين ترنم الجيل الحاضر بأنغام قصائدهم ورنّ جرس هذه الأنغام حلواً فى أذن الزمان - وسيظل رنينه الشجى ينساب فى مسمع الدهر ما بقيت قصائده القيمة تردد على ألسنة رواتها فى شتى بلدان العالم العربى .

ولم ينل الشاعر عثمان حلمى من الحظ ما كان يجب أن يناله من يد الدنيا - مثله فى ذلك مثل طائفة عديدة من الشعراء الذين طواهم الموت عبر العصور الخوالى .

وليس فى مجال هذا البحث المركز متسع لذكر كثير من هؤلاء الشعراء الذين لم تنصفهم المنى ولم تسعفهم الهناءة أو يخصهم الرغد بصيب يتفق وما وصلوا إليه من مكانة أدبية فى عالم الفكر الأنسانى المثمر - ولذا أجد من الملائم الاقتصار على مثلين قد يكون فى سردهما الكفاية للتدليل على غبن الحظوظ وغدر الأيام.

فوضّاح اليمن أحد شعراء العروبة فى صدر الإسلام لا يقل نبوغا ونضوح شاعرية عن عمر بن أبى ربيعة ولا سيما فى الصفتين المميزتين لهذا الشاعر وهما : البراعة فى التشبيب والدقة فى وصف ما يعرض له من صور وحوادث .

ولكن الوضّاح لم ينل من الشهرة قسطا يعادل ما ناله ابن أبى ربيعة منها ـ لا فى زمنه ولا فى الأزمنة التى تعاقبت بعد ذلك بسير عجلة الدهر وتلاحق الأعوام والأجيال .

وكرنىّ « Corneille » شاعر فرنسا العظيم لم يجد فى عصره كما أصاب « راسين » من التمجيد الذى رفعه إلى قمة التعظيم فى كتاب صديقه الشاعر الناقد بوالو « Boileau » ـ وكان من نتائج هذا التمجيد وتلك الدعاية العريضة أن صار « راسين » شاعر البلاط فى عهد لويس الرابع عشر .

وسبب هذه التفرقة المغرضة يكمن فى الظروف السيئة التى اكتنفت حياة الشاعرين المكدودين « وضّاح اليمن وكرنىّ » ـ وفى الظروف المواتية التى أتيحت للشاعرين المحظوظين عمر بن أبى ربيعة وراسين ـ وكانت الدعاية أكبر عامل فى تحقيق هذه الظروف الحسنة .

ولقد كان الوضّاح من فحول الشعراء دون ريب ـ وإذا وضعنا شعره فى الوصف إزاء شعر ابن أبى ربيعة فى هذا اللون من القريض نؤمن على الفور بأن صور الوضّاح اللامعة الأخاذة تجاوز فى بهاء لوحاتها وتعبيرها الصافى وجلاء معالمها بعض صور ابن أبى ربيعة ورصيفه العرجى ـ غير أن الوضّاح ما زال مغمور الصيت ضعيف الشهرة بالنسبة لعمر الذى طبق صيته الآفاق بسبب الجاه العريض الذى كان يحيـا فى ظله الوارف مما سخر له أبواق الدعاية المدوّية الأصوات .

وكان كرنىّ عظيما فى أسلوبه فى تصوره وتفكيره ـ ولكن راسين نال من الشهرة فى زمانه ـ وعلى حساب كرنىّ ـ ما جعل هذا الشاعر الكبير لا يجد من

المال فى أواخر أيام حياته البائسة ما يمكنه من شراء حذاء جديد يستعيض به عن حذائه البالى ـ وقد قال نابليون بونابرت عن كرنىّ وهو فى منفاه بجزيزة سانت هيلانه :

« فن المأساة يلهب الشعور ويرقى بالنفس ويخلق من الرجال أبطالا ـ وعلى هذا الأساس تدين فرنسا لكرنىّ العظيم ببعض ما أدت من أعمال جليلة ـ فلو كان كرنىّ حيا فى عهدى لما ترددت فى منحه لقب الأمير » .

وهكذا كان حظ شاعرنا عثمان حلمى من الشهرة والتقدير ـ وقد ساعد على انكماش حيز هذه الشهرة والإغضاء المؤسف عن هذا التقدير اضطرار الشاعر الأسكندرى إلى الإقامة بمدينة الأسكندر الأكبر حاضنة المفكرين والشعراء الحنون فى شبابها الغض ومهملة شأنهم فى شيخوختها الساخرة بسبب الصبغة الأجنبية التى كانت تفرض عليها قبل الثورة التى محت هذه الصبغة البغيضة إلى غير رجعة ـ علاوة على المحيط التجارى الذى ما زال يطوقها ويحد من رعايتها الحادبة للأدباء الشعراء .

وشاعرية عثمان حلمى تجد فى رحب إدراكها متسعا لتصوير كل أحاسيس وجدانه ونبضات قلبه وخلجات نفسه سواء أكانت هادئة أم صاخبة ـ راضية أم متبرمة ـ قانعة أم طامحة مع وضع كل ذلك فى أوضح صورة وأحسن إطار.

والأمثلة على أحاسيس وجدانه المتعارضه كثيرة نستشفها من شعره ـ فعندما يستيقظ ويشاهد جمال الطبيعة فى الصباح الباكر يدفعه حسه المرهف الهادىء إلى إحتضان مزهره ليرتل فى حنان وخشوع .

آيةُ الصبحِ تجلَّتْ ـ قُمْ بنا
قبلَ أنْ تُطوى بِضَوْءِ الشمس طَيّا

إنَّ نـــورَ اللهِ فى بَهْجَتِــهِ
دلَّنَـــا أنَّ لَـــهُ سراً خَـفِيًّا
كلُّ شـــىء ضاحـكٌ مبتهِجٌ
بعث الصبحُ مواتَ الكَوْنِ حَيًّا
فهنـا الرَّيْحَانُ فى أوراقِـــهِ
نَاشِراً مِنْ رُوحِـهِ رُوحاً زكِيًّا
وهُنَـــا الوردُ على أغصانِهِ
خَجِلاً من حسنِهِ الزَّاهى حَيِيًّا
رَضِىَ اللهُ على الدنيـــا فما
تُبْصِرُ العينُ من الدنيا دَنِيًّـــا

غير أن هذا الهدوء الوجدانى سرعان ما ينقلب إلى غضب صاخب بمجرد أن يستولى عليه التأثر وتهتز نفسه الشاعرة هِزَّة المكلوم ـ عندها لايتردد عثمان فى أن يفاجىء من كان يحب ويصطفى بخمود جذوة المحبة فى قلبه دون أسف أو ندم على ما فات ـ فيقول له فى صراحة نافرة :

نَبَتَ الشوكُ بقلـبى فى مـــكانِ الزَّهَـــرِ
ومضى كالـــبرقِ حُبِّى أو كَضَــوْءِ السَّحَـرِ
صارَ قلبى مقفراً كالصحراءْ

يا حبيـبى لا أحبُّـــكْ زَمَنُ الحبِ مضـــى
وانتهى حُبِّى وحُبُّـكْ وانتهينـــا للرضـــــى
وانتهى الحُبُّ كما شِئْنَا وشاءْ

إلى أن يقول فى غضب ظاهر :

ليسَ للحبِ ضياءْ   لا ولا للحبِّ ظِلّ
ذهبَ الحُبُّ هَبَاءْ   أىُّ قلبٍ لا يَمَلّ

جَذوةٌ أطفأتها من غيرِ ماءْ

يا حبيبى لستَ مِنّى   لا ولا أبغى رِضاكا
يا حبيبى فأنا عَنّى   وكفانى وكفاكا

أنّ للحبِ ابتداءً وانتهاءْ

وليس للغضب السريع مقدمات فى طوية صديقى الشاعر الراحل - فهذا الغضب يحل بنفسه ويغادرها بسرعه التيار الكهربى - فعندما تصل انفعالاته الجامحة إلى حافة قلبه يتملكه الهياج فيرمى صاحبه الذى ظن أنه سبب هذا الغضب بالغدر والحقد والرياء فى غير تحفظ - ويرسمه بقلمه على هذه الصورة القاتمة:

فانقلبَ الصاحبُ كالحِرْبَاءِ

يكيدُ كالأعداءِ

ممتلئًا بالحِقْدِ والبَغْضَاءِ

مضطربَ الأحشاءِ

يكيدُ لى فى الجهرِ والخفاءِ

كَخَلّةِ النساءِ

ما صَدَّهُ حلمى ولا صَفائى

واشْتَدَّ فى عِداءِ

واخْتَصَّ بالعَناءِ

إلى أن يقول ساحبا وصفه لصاحبه على الناس جميعا :

الغدرُ طبعٌ فى نفوسِ النـاسِ
فلا تُصَاحِبْ أحـــــــــدَا
ما أبعَدَ النـاس عن الإحسـاسِ
فلا تَزِدْنِى كَمَـــــــــدَا
وانْجُ إذا شِئْتَ مِنَ الأرْجَاسِ
فـأنَ فى نُصْحِى الهُـــدَى
ولاتَعِشْ فى الخَوْفِ والوسْواسِ
فَقَـــدْ تَعِيشُ أَبـــــدَا
لا تشتكى طـولَ المَـــدَى

ولقد خبرت فيه هذا التقلب السريع بين الهدوء والصخب والعودة إلى الصفاء بالسرعة الصاروخية نفسها ـ وكنا دائما نرده إلى هذا الصفاء بكلمة طيبة تدخل السرور على نفسه فيزول عن وجدانه الكدر ويركن ثانية إلى الابتسام فالمرح .

وما هو إلا يوم أو يومان على الأكثر حتى يعود إلينا ليسمعنا قصيدة عذبة الأبيات يستسمح بها هذا الصاحب الذى وصفه بكل ما فى نفسه من ثورة عاطفية لاتهادن فى غضبها الجامح فيقول :

صبا القلبُ ليت القلبَ نَحْوَكَ ما صبا
وكمْ ذُدتُـهُ عنـــكم ولكنَّـه أبى
لحـاجة من يمضى إلى نيـلِ غايـةٍ
وإنْ صَدَّهُ عنهـا الردى ما تنكبَـا

وهيهاتَ مالى فى ودادِكَ مأربٌ
ويُزعِجُنى ألاّ أرى فيه مأربا
فإنّى مَشُوقٌ نحو ودِّكَ ساقنى
خفىٌّ فما أدريهِ عنْ [illegible] اختبا
ومالكَ من فضلٍ ولا لك مِنَّةٌ
علىَّ بما أوليتَ أنْ أتحبّبا
إذا غِبْتَ هزَّ الوجْدُ نفسى كأنّما
بها غامضٌ شوقاً إليكَ توثّبا
كأنى ولى جمٌّ مِنَ الصَحْبِ لم يكنْ
سواكَ خليقٌ أن يُحَبّ ويُصْحَبا

ومن هذه النماذج فى شعره تتضح أحاسيس وجدانه الهادئة الصاخبة التى تهادن ولا تتوسط فى تقلبها النفسانى السريع من النقيض إلى النقيض مما كان لمسه جليا فى سلوك حياته .

وكانت هذه الطفرة فى المزاج تمثل حالة نفسه حين يرضى عن عيشته وحين يبرم بها ـ فحينا كان يستكين إلى الرضا الوادع فتحسبه ناسكا متقشفا ، وحينا كان يندفع فى تبرمة الجامح فتخاله ثائرا يرى فى الدنيا قطعة من الصلصال يستطيع ضمها بين راحتيه ليكوّن منها شكلا آخر غير شكلها الراهن .

فاستمع إليه عندما يرضى عن دنياه ويشبهها بنغمة شجية الإيقاع ويجد فى جنباتها وفى طبيعتها الزاهية كل الرغد والبهاء :

ما العمرُ إلاّ نَغْمةٌ حُلْوةٌ
أو كأسُ خمرٍ فى ظِلالِ المُنى

أو خَلْوَةٌ والناسُ فى غَفْلَةٍ
أو غفلةٌ عَنْ صَرْخَاتِ الدُنا

فى روضةٍ غناءَ مِنْ زَهْرِهَا
ما يشرحُ الصدرَ ويُنْسى العَنَا

أو وقفةٌ يوماً على شاطىءٍ
حيثُ نسيمُ البحرِ يَلْهُو بِنَا

قبلَ غروبِ الشمسِ أو بعدَهُ
حيثُ يلوحُ الصَفْوُ حلْوَ الجَنَى

إلى أن يقول :

والعمرُ يــومٌ لا تحاسْب به
مُصَرِّفَ الايامِ عَمَّا جَنَى

فانسَ الأسى واضْرِبْ على نَغْمَةٍ
أقلُّ ما فيها حياةُ المُنَى

أما إذا برم بالحياة وطغى التشاؤم على عقله الباطن ـ وكثيرا ما كان يطغى ـ يسرع إلى وضع المنظار الأسود على عينيه وينشد شاكيا صروف الزمان الذى لم ينصفه ـ وهو الجدير بالإنصاف ـ هذا الزمان الذى حرمه من رغد العيش وهو المستحق لأوفر قسط منه :

قد رأيتُ الحياةَ تَشْرُقُ حُبًّا
ورأيتُ الحياةَ وهى تَغِيبُ

وحَبَانِى الشَّبَابُ جَذْوةَ نـــارٍ
أطفـأتْهـا حوادثٌ وخطـــوبُ
أينَ حُبِّى وأينَ أيْنَ هوى نفـ
ـسى قديما وأينَ ولّى الحبيبُ
أين نورُ الصباحِ يشرحُ صدرى
وسرورٌ محبَّبٌ وغـــروبُ

إلى أن يقول :

أنا شيخُ الشبابِ قَدْ شَابَ قلبى
وتظلُّ القـــلوبُ وهى قـلوبُ
إنَّ من يَحْمِلُ الهمومَ صبيًّا
هو شيخ والموتُ منه قريبُ

وتتمثل أمام بصيرته تجارب الحياة التى مارسها فأبت إلا أن تحطم إقدامه وتفت فى عضده فينعى حظه قائلا:

شوتنى تجاريبُ الحيـاةِ وإنَّها
لها لَهَبٌ يَشْوِى بِأوجَعِ مَا شَوَى
فَمَاذَا عَسَى أبْغِى ومَالِىَ عَزْمَـةٌ
وقد هَدَّنِى سَعْىِ وأفقَدَنِى القُوَى
فَلِى خَيْبَـةٌ فى كلِّ سعىٍ سَعَيْتُهُ
رَوَى وقْعَهَا شعْرى وفى الشعْرِ ما رَوَى
وهلْ بعدَ أنْ أفْنَيْتُ عُمْرِىَ ظَامِئًا
وقد غَصَّ غيرى بالأمانِى وارتوَى

أحاولُ تبديلَ الذى كانَ وانتهى
وهل يَنْضُرُ الغُصنُ الرطيب إذا ذوى؟

وفى هذة الأبيـــات صورة صادقة لما كان الشاعر عثمان يعـانيه من قسوة الأخفاق وحسرة الغبن اللذين لاحقاه طوال مراحل حياته .

فقد التحق فى صباه بوظيفة فى قسم التحصيل ببلدية الأسكندرية ـ وشاء حظه العاثر أن يكون رئيسه من هؤلاء الرؤساء الذين يحلو لهم الأساءة إلى زملائهم فى عجرفة وعنجهية جوفـاء ـ وعندما تعرض هذا الرئيس لعثمان الذى لايقبل المقام على الضيم أبت نفسه المرهفة الحس أن تخضع للغطرسه الروتينية ـ فبـادر إلى الاستقالة غير آسف على الوظيفة .

ثم عين بمصلحة الــبريد ـ ولم تخنه كبرياؤه فى الوظائف التى شغلها فى هذه المصلحة ـ فما ألح فى طلب يهدف إلى تحسين حالته الوظيفية ـ ولم يطرق بـاب أية وساطة لبلوغ حقه من الترقيه ـ فكان ـ كما يؤكد زملاؤه ـ زاهداً فى الوظائف عزوفا عن الترجى راضيـا بما قسم له فى عمله ولاسيما فى السنوات الأخيرة التى قطعها قابعا بقلم الاستعلامات يتولى رياسته إلى أن أحيل على التقاعد .

وكان كل مايصبو إليه هو بلوغ المكانة الأدبية التى هو قمين بأن يتبوأهـا بين كبار الشعراء والكتاب .

وأنين عثمان حلمى فى شكواه يرجع إلى مرارة الأخفاق والغبن التى ذاقها ـ فقد أحيل على التقاعد فى ١٨ مايو سنة ١٩٥٤م . (١٣٧٤هـ) ولمَّا يصل إلاَّ إلى الدرجة السادسة من درجات الكادر الكتابى ومن ثمَّ يستبين مقدار معاشه المتواضع الذى يتضاءل كثيراً إزاء درجته الأدبية فى كادر التفكير الثقافى الذى يضعه فى الصفوف الأمامية وفى الدرجة الأولى الفنية .

ولا يطول أمد التبرم بالحياة وقسوة صروفها فى وجدان عثمان حلمى فيرجع

على نغمات شعره إلى روضة القناعة يملأ رئتيه بعبير وردها وريحانها ويسير فى مسالكها البهيجة بخطوات موسيقية وئيد وهو ينشد :

كانت الدنيـا التى نحيا بها
والتى نمـرحُ فى أحزانهـا
والتى ندخـلُ من أبوابهـا
دونَ أنْ نجفل مِنْ سُلطانِها
والتى نجهـلُ من أسبابهـا
كلَّ ما يدعـو إلى إحسانِها
والتى تستخـرُ من طُـلّابهـا
والتى قـامت عـلى ميزانِها
رسلٌ للغيبِ من صنعِ القِدمْ
كانت الدنيـا ولا زالت قِسَمْ

ثم يستمر فى سيره وهو عامر القلب بالصوفية الربانية فيرى الله ببصيرته وبأيمانه الراسخ فيغنى:

تجـلَّى اللّـهُ فى الزهَـرِ
ولاحَ اللّـهُ فى النُـورِ
وفى الأغصـانِ والشجَـرِ
وفى شَـدْوِ العصافـيرِ
وفى قلـبى وفى نظـرى
يفـوقُ جـلالَ تقـديـرى

ولكن هذه القناعة المتصوفة لا تستمر طويلا فى أعماق نفسه فيعاوده طموحه الوثاب الذى قضى عليه الإخفاق فى غير رحمة ـ فينعيه بهذه الأبيات الحزينة :

مُنًى تَنَاثَرْنَ حولَ النفسِ ذابلةً
كما تناثرَ حولَ الدَّوْحَةِ الوَرَقُ
تَأْبى التجاريبُ إلاَّ أنْ تُرَدِّدَهَا
بين الطِّمَاحِ وبيْنَ اليأسِ تَصْطَفِقُ
والعمرُ يجرى كما يجرى السحابُ فما
يعودُ ما جدَّ منْهُ وهْوَ يَسْتَبِقُ

إلى أن يغمر الأسى فؤاده المكلوم فيسطر بالقلم خلجات قلبه الحزين قائلا:

وأدمعٌ لِىَ حَيْرَى فى مَحَاجِرِهَا
ولى فؤادٌ ولكنْ بالأسى خَفِقُ
فكنتُ أحْسَبُ أحلامى محققةً
ولا محالةَ حتى لاحَ لى الشَّفَقُ
آمنتُ أنَّ وجُودِى كلَّهُ خُدَعٌ
وأنَّ نفسىَ تَحْكِى كلَّ مَنْ سبقوا

وما أعذب نغمة شكواه حين يبغى الهروب من واقعية الحياة لينسى همومه وأحزانه وإخفاقه ويصور هذا النسيان فى إطار لوحته الواضحة الأبعاد والتعبير ويمثلها فى هذين البيتين :

وما اشتهتْ النفسُ المدامَ للذة
ولكنْ لكيلا تعرفَ النفسُ ماهيا

ألا فاستيانيها سُلافاً إذا سطلت
عَلى الرُشْدِ لم تترُكْ من الخيم باقيا

وليس من الإنصاف أن نطالب شاعرنا بأن يجعل التفاؤل نبراس سلوكه في الحياة وأن يرى هذه الحياة سياقا متصل المراحل من روضات الورود والرياحين وهو الذى قاسى من شحها الشيء الكثير وشاهد سخاءها المتدفق على من هم دون مرتبته في عالم الفكر والنضوج الأدبي .

ولقد عرض عثمان في شعره لألوان القريض المختلفة فغنى الحب والجمال وبهاء الكون وجلال الخالق وترنم بالوفـاء والفن وهجا الغدر وصحاب السؤ ولؤم الدنيا :

أما الوطنية فقد كانت تملك عليه شعوره فهام بها في قصائد عديدة تفيض بحب بلاده وبحب العروبة وبلدانها وشعوبها — ولم يقصر عثمان في التغني بعهد الثورة وما حققه للشعب من مكاسب — ومن أواخر قصائده في أعيادها قوله :

يومُ تهللَ في سَنَى أمجـادِهِ
دارَ الزمانُ وعادَ في ميعـادِهِ
في كلِّ عامٍ ما استهلَّ صَباحُهُ
إلاَّ أهَـلَّ اليمنُ في ميـلادِهِ
هو يومُ مصرَ ويومُ عيدِ خلاصِها
يا سعدَ من شَهِدوهُ من أشهادِهِ
الشَعْبُ باركَهُ وخلَّدَ ذِكْرَهُ
في أخلدِ الأعيادِ مِنْ أعيَادِهِ

وعالج عثمان الشعر القصصي وحالفه النجاح فيما أنتج من مسرحيـات

قوية التركيب والمعنى مستمدة حوادثها من تاريخ مصر الفرعونى والإسلامى الذى كان الإطلاع يتناول شتى نواحيه وذلك بعد أن ألف قصصا متينه التكوين جزله الأسلوب والقافية منها قصة الملك والشيطان — وقصة البخت النـــائم — وثورة فى جهنم .

ومن مسرحياته « ساحر بابل » التى تقدم بها فى مسابقة أجرتها وزارة التربية والتعليم وفاز فيها بالجائزة الأولى — والذى يعرفه أصدقاؤه عن هذه المسرحيات هو أن عددها ست — وعندما وافته المنية كان يكتب ملهاة عصرية لم يمهله الأجل ليفرغ منها .

غير أن القــدر لم يبخل عليه بفرحة تجعل البسمة تعلو شفتيه وهو على فراش الموت إذ صدرت له عن المؤسسة العــامة للثقــافة والنشر مسرحية «الظاهر برقوق» .

هـذا هو صديقى الشاعر عثمان حلمى كما عرفته وكما تبينته من خـلال شعره الذى يعبر عن حقيقة طويته وأحاسيس نفسه — فشعوره الصادق كان يصور ما يرى وما يسمع وما يحس أبدع تصوير .

ويقينى هو أن الشاعرية الحقة تقتضى هذا التنقل فى خضم العواطف ليعـبر عن جميع ما تضم خفايا النفس من عوامل متباينة متنازعة — وإلا كانت الشاعرية فاترة ضيقه الأفق لا تصلح للتأثير القوى على من يتذوقون الشعر ويطربون لأنغامه .

ولست من القائلين بأن عـثمان تتلمـذ على الشاعر عبد الرحمن شكرى وتأثر بشعره إذ أرى فى أسلوبه السهل وأنماط نظمه المختلفـة لونا آخـر غير اللون الذى ينبعث من قصائد الشاعر عبد الرحمن شـكرى — ويدفعنى هذا الرأى الذى كونته من طول مخالطتى لعثمان أن شعره يتسم بشخصية بارزة لها طابع خاص هى شخصية عثمانية بحت .

وبما أنه أحيل على التقاعد فى ١٨ من مايو سنة ١٩٥٤ فيكون قد ولد فى عام ١٨٩٤ - ومما يدل على مكان مولده قصيدته «الطاحونة» التى يستهلها بهذه الأبيات:

فى المكسِ فى ظِلالِهَا جلسنا
ونحنُ أطفـــال بـكل مغنَى
نجهلُ ما الدنيـــا وما علِمنَا
من أمرها غيرَ السرورِ يُجتَنى
نَطرَبُ مِنْ لا شىءٍ إنْ طرِبْنَا
ونمـــلأ الجـوَّ إذا ضحِكْنَا

وفعلا ولد عثمان فى ١٨ من مايو سنة ١٩٥٤ بضاحية المكس الكائنة فى فى الطرف الغربى من مدينة الأسكندرية التى لم يبارحها طول حياته - أما نسبه فقد كان يؤكد أنه ينتمى بالأورمة وبالأجداد الأقدمين إلى الجنس المغولى .

وإذا كان نابليون بونابرت قد اعترف بفضل «كورنى العظيم» على الشعر الفرنسى فقال إنه لو وجد فى عهده لقلده لقب الإمارة فإن الأسكندرية لن تنسى فضل عثمان حلمى عليها وستقلد ذكراه يوما قلادة المجد بين الخالدين من أبنائها المحسنين .

وما من شك فى أن تراثة الأدبى الغزير لن يضيع بإهماله فى زوايا النسيان - وأن الجهات الأدبية والهيئات الثقافية وعلى رأسها المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لن تضن بجمع هذا التراث وإخراجه إلى حيز الوجود إذ أن فى تخليد هذا التراث ما يدخل الغبطة على روح عثمان فى عالم الأبدية ويجعلها ترجع عما أوصى به صاحبها قبل أن تلاقى ربها بأن يحرق أهله شعره إذ قال :

لى قصـــــةٌ لا تستقيـــ
ـمُ بسمعِ من أَلِفَ السَّعَادَهْ

مثّلتُ بعضَ فُصُولِهَـــا
وستنتهى تلكَ الروايــــــه

أنَــــا شاعرٌ لم يَدْرِ بى
فى أُمتى أهـــلُ الدرايــه

* * *

يتســـــــاءلُ المتســـائلو
ن أمّا لهـذا الشعْرِ آيـــه؟

فأجبتُهُـــم هـــل يستحـــقُ
على غزارتِـــهِ العِنَايـــه؟

أوصيت أهـــلى بالــــذى
فيـــه الضمــانةُ والكفـــايه

أوصيتُهـــم أنْ يَحْـرِقُـــو
هُ وبئْس من خانَ الوِصايه

وحزَّ فى نفسى وأحزننى ما رأيته يوم تشييع جنازته ـ فلم يجتمع أمام منزله بشارع « السيدة فاطمة » المحازى لشارع محرم بك ـ وهو شارع متواضع ـ لم يجتمع لتشييع جنازته سوى سبعة وعشرون من أخصائه ـ وعندما بدأت الجنازة سيرها طفقت دموع الأسى تغمر مقلتى وقلت فى نفسى والحزن يغمرها : « أهكذا يكون تقدير كبار الأدباء فى نظر الناس؟ أهكذا يكون إظهار ماللأديب الشاعر الأريب من احترام وتجلة فى قلوب المواطنين»؟

وكنت قبل تشييع الجنازة ببضعة أيام أشترك فى تشييع جنازة رجل كل ما كان له من فضل هو أنه كان من الأغنياء وينعم بعضوية إحدى الهيئات ـ لا عن علم وجدارة ـ ولكن لما له من ثروة وجاه ـ وسعى فى جنازته مئات عديدة من المشيعين مع أن الفرق بين الرجلين كبير لا فى الآراء ولكن فى السمو الفكرى والثقافى

ومع ذلك سار نعش الثرى وخلفه صفوف كثيرة من الحاملين لذويه وسار نعش الشاعر عثمان حلمى يتبعه القليل من أقاربه وأصدقائه عارفى فضله . وكأنى بروح صاحبه تطل علينا ساخرة من الأقدار وتردد هذه الأبيات التى نظمتها فى فى يوليو عام ١٩٥٨ وكان الصديق الراحل من أوائل من استمعوا إليها:

مَاذَا يَضِيرُ رُفَاتِى إِذْ يُشَيِّعُهَا
عَدُّ الأَصَابِعِ مِنْ أَهْلِى وَخِلاَّنِى
سَأَستوِى فَوقَ حَدْبَائِى بِمَنْ مَلَكُوا
وأَمْعَنُوا فِى نَعِيمِ العَالَمِ الفَانِى
وفِى غَيَابَةِ قَبْرِى لَنْ يُفَرِّقَنِى
عن المُلُوكِ جَمِيعاً حَمْلُ تِيجَانِ
فَتِلكَ دَارُ بَقَاءٍ لايُدَنِّسُهَا
جَاهُ العُرُوشِ ولا إِغْرَاءُ شَيْطَانِ
تَرُدُّ أَرْجَاؤُهَا الذِكْرَى مُنَغَّمَةً
لِكُلِّ مَنْ أَحْسَنُوا فِى عَذْبِ أَلحَانِ

رحم الله عثمان حلمى وأجزل ثوابه لما قدم للعروبة من إنتاج أدبى قديم".

المراجع

١ ـ الأغانى ـ أجزاء مختلفة : أبو الفرج الأصفهانى

٢ ـ فجر الإسلام : الدكتور أحمد أمين

٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ أجزاء مختلفة : لجنة ترجمة الدائرة

٤ ـ جميل بثينة : عباس محمود العقاد

٥ ـ عائشة بنت طلحة : كمال بسيونى

٦ ـ نساء شهيرات : مبارك إبراهيم

٧ ـ الأصمعى : الدكتور أحمد كمال

٨ ـ محمود سامى البارودى : الدكتور على محمد الحديدى

٩ ـ كتاب الشعب : حافظ إبراهيم ـ مقال بالعدد رقم ٤٦

١٠ ـ حديث الأربعاء : الدكتور طه حسين

١١ ـ حب ابن أبى ربيعة : الدكتور زكى مبارك

١٢ ـ النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى

١٣ ـ الكامل فى التاريخ : ابن الأثير

١٤ ـ المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها : عبد الله عفيفى (الجزء الثانى)

١٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جورج زيدان

١٦ ـ المنتخب من أدب العرب : الدكتور طه حسين ـ وأحمد الاسكندرانى ـ وأحمد أمين ـ وعلى الجارم ـ وعبد العزيز البشرى ـ وأحمد ضيف

١٧ ـ المفصل فى تاريخ الأدب العربى : أحمد الاسكندرانى ـ وأحمد أمين ـ وعلى الجارم ـ وعبد العزيز البشرى ـ وأحمد ضيف

١٨ - ديوان إسماعيل صبرى : لجنة التأليف والترجمة

١٩ - ديوان حافظ إبراهيم : أحمد أمين - وأحمد الزين - وإبراهيم الإبيارى

٢٠ - ليالى سطيح : حافظ إبراهيم

٢١ - البؤساء : حافظ إبراهيم (ترجمة عن الفرنسية)

٢٢ - ديوان الفجر الأول : خليل شيبوب

٢٣ - المعجم القضائى : خليل شيبوب

٢٤ - الوصف فى شعر البارودى : المؤلف - مقال نشر بمجلة الإمام - عدد مارس ١٩٣٦

٢٥ - ديوان نسيم السحر : عثمان حلمى

٢٦ - مجلة العربى - أجزاء مختلفة : وزارة الإرشاد والأنباء بحكومة الكويت

Références

1 — Cyrano de Bergerac : Edmond Rostand

2 – Histore de la Litterature française : J. Faivre

3 — Larousse Universel : Claude Auge

4 — Méditations (L'isolement) : Lamartine

5 — Les Miserables : Victor Hugo

6 — Napoléon le Petit : Victor Hugo

7 — Les Châtiments : Victor Hugo

8 — L' Art d'être Grand-père : Victor Hugo

مواد الكتاب

صفحة

مطبعة المصري
٩ شارع ابن زنكي - محطة الرمل
تليفون ٣٧٤٠٦ إسكندرية

صحائف من تاريخ الأدب العربى

كتاب ممتع ، يحدثك فى أسلوب رشيق عن :

- « مجنون ليلى » ، وكيف أن شخصيته خيالية لا وجود لها ، ويقارن الشعر المنسوب إليه ، بشعر « جميل بن معمر » ، ويصور تشابه قصته وشعره بقصة جميل وشعره .
- « وضاح اليمن » ومقارنة شعره بشعر « عمر بن أبى ربيعة » ، وكيف أن وضاحاً لا يقل عن ابن أبى ربيعة شاعرية وإتقاناً .
- « عائشة بنت طلحة » ومنتدياتها الأدبية التى نقت الشعر الغزلى فى صدر الإسلام ، ومقارنة منتداها (صالونها) بمنتدى « مدام دى رمبوييه » الفرنسية .
- « محمود سامى البارودى » ومقدرته الفائقة على الوصف التصويرى ، ومقارنته بالشاعر الفرنسى « ألفريد دى فينى » مع أمثلة من شعر الشاعرين فى هذا اللون .
- « إسماعيل صبرى » وتأثره « بالشريف الرضى » وبالشاعر الفرنسى « لامرتين » مع أمثلة من شعريهما .
- « حافظ إبراهيم » وتأثره بالشاعر الفرنسى « فيكتور هوجو » فى الشعر والنثر .
- « خليل شيبوب » وتأثره فى شعره بالمذهب الرومانسى ، ولاسيما بالشاعر الفرنسى « موسيه » .
- وأخيراً الشاعر السكندرى « عثمان خليل » وما عاناه من إخفاق على الرغم من قوته وغزارة إنتاجه .



٥٠ ص



